

النائم يستيقظ

هربرت جورج ويلز

♦ المؤلف: هريبرت جورج ويلز

♦ العنوان: النائم يستيقظ

♦ ترجمة: شهرت العالم

♦ الطبعة: الأولى 2023

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٢ / ١٧٠٣٢

الترقيم الدولي: ISBN :

978 - 977 - 765 - 346 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

هربرت جورج ويلز

النائم يستيقظ

طبعة منقحة من «عندما يستيقظ النائم»

ترجمة

شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

ويلز، هربرت جورج.
النائم يستيقظ - هربرت جورج ويلز
ترجمة: شهرت العالم
ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2023
328 ص، 21 سم.
رقم الإيداع 17032 / 2022
الترقيم الدولي 6 - 346 - 765 - 977 - 978
1 - روايات
2 - العنوان

هذه ترجمة كتاب:

THE SLEEPER AWAKES

A Revised Edition of "When the Sleeper Wakes"

By H.G. Wells

1899

Copyright © 1899,

All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

مقدمة الطَّبعة الجديدة

رواية (عندما يستيقظ النائم) - التي غيِّرتُ عنوانها الآن إلى (النائم يستيقظ) - نُشرت أول مرة ككتاب في عام ١٨٩٩ بعد نشرها حلقات في صحيفة «جرافيك»^(١)، ودورية أو دوريتين من الدوريات الأمريكية ودوريات المستعمرات. إن هذا الكتاب هو أحد أكثر كتبي طموحًا وأقلها إرضاء؛ وقد انتهزت الفرصة التي أتاحتها عملية إعادة الطبع هذه لإجراء بعض عمليات الحذف والتعديل. فمثل معظم أعمالي السابقة، كتبت هذه الرواية تحت ضغط كبير؛ وهناك علامات على التسرع، ليس في كتابة الجزء الأخير فقط، وإنما في بناء القصة نفسه. وباستثناء بعض آثار الإغفال - الذي يبدو أحد عيوبي التي يتعذر تجنبها - هناك القليل الذي يمكن الخجل منه في كتابة الجزء الافتتاحي؛ على أن الناقد سيرى بوضوح أن الجزء الأخير - سيئ الصياغة - قد دُفع إلى نهايته، بدلًا من تنحيته والتفكير مليًا خلال فترة فاصلة مريحة. كنت في ذلك الوقت مثقلًا بالعمل، وبحاجة ماسة إلى عطلة. فبالإضافة إلى المهام الصحفية الضرورية المختلفة، كنت منشغلًا بكتاب آخر، رواية (الحب والسيد

(١) جرافيك (Graphic): صحيفة بريطانية أسبوعية مصورة، بدأت تصدر في ٤ ديسمبر ١٨٦٩.

«الترجمة».

لويشام)^(٢)، التي استحوذت على مشاعري أكثر بكثير من هذه القصة الحالية. وقد تطلبت ظروفى ضرورة إنهاء إحداهما قبل أخذ أي قسط من الراحة؛ ولذا انتهيت من رواية (النائم) بما يكفي لجعلها عملاً يمكن تسويقه، على أمل أن أتمكن من مراجعتها قبل دفعها بأي حال إلى الطباعة. على أن الحظ كان ضدي. عُدت إلى إنجلترا، قادماً من إيطاليا، لأسقط في براثن مرض خطير. لا أزال أتذكر عجز غضبي وتوتري عند محاولتي وضع نوع من النهاية لقصتي عن (السيد لويشام)، وقد تجاوزت درجة حرارتي ٣٩° مئوية. لم أستطع تحمّل فكرة ترك هذا الكتاب غير مكتمل. تدبرت بعد ذلك أمر إنقاذه من عواقب تلك الحمى؛ ويُعتبر كتاب (الحب والسيد لويشام) - في الواقع - أحد أكثر كتبي توازناً بعناية. لكنني لا أتذكر ماذا حدث لرواية (النائم).

لقد مرت ١٢ سنة الآن منذ أن كتبتُ (النائم)؛ وذلك الشاب - الذي كان يبلغ من العمر ٣١ سنة عندما كتبها - أصبح بالفعل بعيداً عني تماماً عند محاولة أي إعادة بناء جذرية لروايته. وبالتالي لم أقم بأي دور الآن إلا الدور التحريري فقط الذي يمارسه أخ أكبر: التخلص بلا هوادة من بعض المقاطع المضجرة الطويلة، التي أظهرت بوضوح شديد مدى إرهاق العقل وتعثره، ومدى بطء اندفاع القلم الثقيل، علاوة على حسم بعض التردد في النهاية. وباستثناء ذلك، لم أفعل أكثر من التدخل في بعض العبارات والتكرارات الخرقاء هنا وهناك. أسوأ شيء في الطبعة السابقة - الشيء الذي احتل المرتبة الأولى في ذهني - كان تناول العلاقة بين هيلين وُوتون

(٢) «الحب والسيد لويشام» (Love and Mr. Lewisham): رواية لهربرت جورج ويلز صدرت عام ١٩٠٠، وهي من رواياته الأولى خارج نوع الخيال العلمي. «الترجمة».

وجراهام. التسرع في الفن -دوّمًا- نوع من الابتذال، وقد انزلتُ إلى الابتذال بوضوح عندما اعتبرتُ ما تشعر به هيلين «اهتمامًا بالحب»، كما تسميه المؤسسات الصحفية. كان هناك حتى تلميح أخرق: أن يستسلم جراهام لأوستروج ويتزوج هيلين، بدلًا من صعوده إلى الآلة الطائرة وخوض القتال. لقد أزلت الآن هذه التلميحات بتلك الزيجات الغريبة. ففي الحقيقة لم يكن من الممكن أن يظهر أدنى إيحاء بأي اهتمام جنسي بين هذين الاثنين. لقد تحابا وتبادلا القُبلات، ولكن مثلما تحب فتاة جدها البطل، وتُقبّله في ظروف أزمة. لقد وجدت أنه يمكن -دون أي إخلال جدّي- إزالة كل الأشياء البغيضة من القصة، وبالتالي أريح ضميري قليلًا تجاه هذه الهفوة الخرقاء. استبعدتُ أيضًا -بجراحة قلم- بعض التلميحات الجائرة والمؤسفة بأن الناس تغلبت على أوستروج. يموت جراهام -كما يجب أن يموت كل أبناء نوعه- دون يقين من النصر أو الهزيمة.

من سيفوز: أوستروج أم الناس؟ سيظل هذا السؤال -بعد ألف سنة من الآن- مجرد سؤال مفتوح.. نتركه اليوم.

إتش. جي. ويلز

الفصل الأول

الأرق

بعد ظهر أحد الأيام، عند مياه منخفضة، سار السيد إيسبستر - وهو فنان شاب يقيم في قرية بوسكاسل^(٣) - من ذلك المكان إلى خليج بتارجن الخلّاب؛ رغبة منه في فحص كهوفه. وفجأة، في منتصف الطريق المتعرج إلى شاطئ بتارجن، وجد رجلاً يجلس أسفل كتلة صخرية بارزة، في وضع ينم عن حزن عميق. تدلت يدا هذا الرجل بضعف على ركبتيه، وحدقت عيناه الحمران أمامه، وبللت الدموع وجهه.

لمح الرجل موطئ قدم إيسبستر. ارتبك الرجلان، وإن كان ارتباك إيسبستر أكبر. ولتجاوز حرج صمته العفوي، أشار - بطريقة تنم عن اقتناع مدروس - إلى أن الطقس يُعتبر حاراً في ذلك الوقت من السنة.

«حارٌ جدًّا»، أجاب الغريب باختصار؛ تردد لثانية، ثم أضاف بنبهة حيادية: «لا أستطيع النوم».

(٣) بوسكاسل (Boscastle): قرية وميناء صيد على الساحل الشمالي لمقاطعة كورنوال في إنجلترا. «المترجمة».

توقف إيسبستر فجأة. «لا تنام؟»، كان كل ما قاله، لكن طريقته أوحى بدافعه الطيب.

«قد يبدو الأمر لا يُصدّق»، قال الغريب وهو يوجه عينيه المتعبتين نحو وجه إيسبستر، ويؤكد كلماته بيد ضعيفة: «لكنني لم أنم، لم أنم على الإطلاق لمدة ست ليالٍ».

- هل استشرت أحداً؟

- نعم، حصلت على نصيحة سيئة في معظمها. أدوية. جهازي العصبي... الأدوية كلها جيدة جداً للناس. يصعب شرح ذلك. لا أجرؤ على تناول.. أدوية قوية بما يكفي.

قال إيسبستر: «هذا يزيد من صعوبة الأمر».

وقف عاجزاً في الطريق الضيق، متحيراً ماذا يفعل. من الواضح أن الرجل أراد التحدّث. فكرة طبيعية تمامًا في ظل هذه الظروف، دفعته للاستمرار في المحادثة. قال بنبرة من الثرثرة المألوفة: «لم أعانٍ من الأرق أبداً، لكنني في تلك الحالات التي عرفتُها، عادة ما يجد الناس شيئاً...».

- لا أجرؤ على التجربة.

تحدث وهو في حالة من الإرهاق. أوماً على نحو ينم عن الرفض، ثم صمت الرجلان لفترة.

«ممارسة الرياضة»، اقترح إيسبستر بخجل؛ بينما نظر محاوره البائس إلى الملابس السياحية التي يرتديها.

- هذا ما حاولته. ربما بحماقة. كنت أسير على الساحل كل يوم من

نيو كي^(٤)؛ لكنه لم يصف إلا إرهاقًا عضليًا إلى الإرهاق الذهني. الإفراط في العمل هو سبب هذا الاضطراب... المعاناة. كان هناك شيء... توقف.. كأنما من التعب الشديد. فرك جبهته بيد هزيلة، ثم استأنف الكلام مثل شخص يتحدث إلى نفسه:

«أنا ذئب وحيد، رجل منعزل، أتجول في عالم لا دور لي فيه. أنا بلا زوجة، بلا أطفال، وأتحدث عمّن ليس لديهم أطفال كالأغصان الميتة على شجرة الحياة؟ أنا بلا زوجة، بلا أطفال، وليس لديّ مهمة لأنجزها. لا يمتلئ قلبي حتى بأي رغبة. هناك شيء واحد قررت أخيرًا القيام به.

«قلت: سأفعل ذلك، وللقيام به، للتغلب على الهمود الذي يعتري جسدي البليد، لجأت إلى الأدوية. يا إلهي، لقد اكتفيت منها! أنا لا أعرف إذا كنت تشعر بالإرهاق الجسدي الشديد، والحاجة الملحة إلى فترة من الوقت بعيدًا عن العقل، وقت، حياة! أن تعيش! نحن لا نعيش إلا في مساحات مغلقة. علينا أن نأكل، ثم يأتي الرضى الهضمي المضجر... أو التوتر. وعلينا أن نستشق الهواء، وإلا سنجد أفكارنا تنمو بطيئة وغبية، وتتجه نحو منحدرات وطرق مغلقة. تنشأ آلاف المُشَتَّات من الداخل والخارج، ومن ثم يأتي النعاس والنوم. يبدو أن الرجال يعيشون من أجل النوم. كم يقل نصيب المرء من يومه، حتى في أحسن الأحوال! ثم يأتي هؤلاء الأصدقاء الزائفون، مساعدو البلطجية، وأشباه القلوب التي تخنق التعب الطبيعي وتقتل الراحة... القهوة السوداء، والكوكايين...».

قال إيسبيستر: «فهمت».

(٤) نيو كي (New Quay): مدينة ساحلية في ويلز. «الترجمة».

وبنبرة شاكية، قال الرجل الذي لم ينم: «لقد قمت بعملتي، وهذا هو الثمن؟».

- نعم.

صمت الرجلان لبعض الوقت.

«لا يمكنك أن تتخيل ما أشعر به من توق شديد إلى الراحة؛ جوع وعطش. لمدة ستة أيام طويلة، منذ أن أنجزت عملي، كان ذهني كالدوامة؛ سريعاً، يدور على الدوام، سيل من الأفكار التي لا تقود إلى شيء، يدور بسرعة وحزم...»، توقف برهة ثم أكمل، «نحو الهاوية».

قال إيسبستر بحسم، وبطريقة من اكتشاف العلاج: «يجب أن تنام. بالتأكيد يجب أن تنام». «ذهني صافٍ تمامًا. لم يكن أكثر صفاءً من قبل. لكنني أعرف أنني متجه نحو الدوامة. في الوقت الحاضر...».

- ماذا؟

- هل رأيت أشياء تسقط في دوامة؟ بعيداً عن ضوء النهار، بعيداً عن عالم التعقل الجميل هذا؛ تهوي...
«ولكن...»، اعترض إيسبستر.

مدّ الرجل يده نحو إيسبستر، وعيناه جامحتان، وارتفع صوته فجأة: «سأقتل نفسي. إذا لم يكن بأي طريقة أخرى... عند سفح الهاوية المظلمة هناك، حيث الأمواج الخضراء والأمواج البيضاء تصعد وتهبط، وهذا الخيط الصغير من الماء يرتجف منخفضاً. هناك، على أي حال... النوم».

«هذا غير معقول»، قال إيسبستر مذهولاً من عاصفة انفعال الرجل الهستيرية، «العقاير أفضل من ذلك».

لم يصغ له الغريب، وإنما كرر: «هناك نوم، على أي حال».
نظر إيسبستر إليه قائلاً: «أنت تعرف ماذا هناك.. هناك منحدر مثل
ذلك الذي يوجد عند خليج لولوورث - بنفس الارتفاع، على أي حال -
حيث سقطت فتاة صغيرة من أعلى إلى أسفل. وهي تعيش اليوم، بصحة
جيدة».

- لكن تلك الصخور هناك؟

- يمكن أن يستلقي عليها المرء بأسى إلى حد ما، خلال ليلة باردة،
وتصطك عظامه المكسورة وهو يرتعش، وتتناثر المياه الباردة فوقك. هه؟
التقت أعينهما. «آسف لإثارة القلق في مُثْلِكَ العُلْيَا»، قال إيسبستر
بشعور شيطاني متآلق، «لكن الانتحار على هذا المنحدر (أو أي منحدر
آخر)، هو حقاً عمل لفنان...». ضحك: «فنان هاوٍ ملعون».

«لكن الشيء الآخر»، قال متوترًا الرجل الذي لم ينم: «الشيء الآخر..
لا يمكن لأي رجل أن يظل عاقلًا، إذا استمر ليلة بعد ليلة...».

- هل كنت تسير على طول هذا الساحل بمفردك؟

- نعم.

- يا لسخافة القيام بهذا النوع من الأشياء! إن سمحت لي بقول ذلك.
بمفردك! كما تقول، إرهاق الجسد ليس علاجًا لإرهاق الذهن. مَنْ أخبرك
أن تفعل ذلك؟ لا عجب؛ أن تسير! فوق رأسك الشمس، والحرارة،
والإرهاق، والعزلة، طوال اليوم. وبعد ذلك، كما أتصور، تذهب إلى
السرير وتحاول بجدية... هه؟

توقف إيسبستر لبرهة، وهو ينظر برؤية إلى الرجل المُتَأَلِّم.

وفجأة صرخ الرجل الجالس بإيماء قوية: «انظر إلى هذه الصخور!
انظر إلى ذلك البحر الذي يشرق ويرتجف هناك إلى الأبد! انظر إلى الزبد
الأبيض يندفع في الظلام أسفل هذا الجرف الهائل. وهذا القبو الأزرق،
حيث تتدفق الشمس الساطعة من قبته. إنه عالمك. أنت تقبله، وتسعد به.
إنه يدفئك ويدعمك ويسعدك. وبالنسبة لي...».

أدار رأسه وأظهر وجهًا مروعًا، وعينين ملطختين بالدماء، وشفيتين
شاحبتين. تحدث بصوت هامس: «إنه ثوب بؤسي. العالم كله... هو ثوب
بؤسي».

نظر إيسبستر في اتجاه ذلك الجمال البري كله في المنحدرات
المُضْماء بأشعة الشمس حولهما، ثم عاد اليأس إلى وجهه. ظل صامتًا
للحظة.

قام، وأبدى إيماء رفض نافذ الصبر. قال: «أنت تنام ليلاً، ولن ترى
الكثير من البؤس هنا. صدقني».

كان متأكدًا تمامًا الآن أن اللقاء من تدبير العناية الإلهية؛ فقد كان يشعر
بممل رهيب قبل نصف ساعة فقط. هنا كان توظيف للفكر المجرد كإطراء
كافٍ للذات. وتولى زمام الأمور على الفور. كانت الرُفقة هي الاحتياج
الأول لهذا الإنسان المُنهَك. ألقى بنفسه على الأرض العشبية شديدة
الانحدار، إلى جوار الشخص الجالس بلا حراك، وبدأ في الثرثرة.

سقط مستمعه في حالة من عدم الاكتراث. ظل يحرق بحزن نحو
البحر، ولم يتحدث إلا ردًا على أسئلة إيسبستر المباشرة وليس على كل
الأسئلة. لكنه لم يعترض على هذا التدخل الهادف إلى الخير حول يأسه،

بل بدا ممتناً. شعر إيسبستر أن حديثه يفقد قوته، اقترح أن عليهما إعادة صعود المنحدر والعودة إلى بوسكاسل؛ زاعماً هدوء جمال المشهد في بلاكابيت. في منتصف طريق الصعود، بدأ يتحدث إلى نفسه، وفجأة أدار وجهًا مروّعاً نحو مُساعدِه: «ماذا يمكن أن يحدث؟»، سأل وهو يحرك يده الهزيلة مستفهِماً: «ماذا يمكن أن يحدث؟ يدور، يدور، يدور، يدور. إنه يدور ويدور، يدور ويدور، إلى الأبد».

وقف ويده تدور.

قال إيسبستر بنبرة صديق قديم: «كل شيء على ما يرام، أيها الفتى العجوز. لا تقلق. ثق بي».

أسقط الرجل يده، واستدار مرة أخرى. وصلا إلى حافة المنحدر، ثم إلى الأرض المرتفعة بعد قرية بينالي. وظل الرجل الذي لم ينم يوماً مراراً وتكراراً، ويتحدث على نحو غير مكتمل عن أشياء حول عقله الذي يدور كالدوامة. عند الأرض المرتفعة، وقف بجانب المقعد الذي ينظر في اتجاه أسرار بلاكابيت وألغازها المظلمة، ثم جلسا. كان إيسبستر يستأنف حديثه كلما اتسع الطريق بما يكفي ليسيرا متجاورين. أسهب حول تعقيد صعوبة الطقس السيئ في ميناء بوسكاسل، عندما قاطعه رفيقه فجأة ليتحدث ثانية عن أشياء أخرى لا علاقة لها بالموضوع.

«رأسي ليس كما كان»، قال وهو يومئ بما يعني عدم وجود عبارات تُعبر عن حاله، «ليس كما كان. هناك نوع من القهر، الإحساس بالثقل. كلا.. ليس النعاس، أتمنى لو كان! إنه شيء مثل الظل، ظل عميق يسقط فجأة وبسرعة عبر شيء منشغل. تدور، تدور في الظلام. اضطراب الفكر،

الارتباك، الدوامة والدوران. لا أستطيع التعبير عن ذلك. وبالكاد ما أتمكن من الحفاظ على تركيز ذهني، الحفاظ عليه ثابتاً بما يكفي لإخبارك». توقف وهو في حالة ضعف.

قال إيسبستر: «لا تقلق أيها الفتى العجوز. أعتقد أنني أستطيع أن أفهم. على أي حال، لا يهم كثيراً الآن أن تخبرني. تعرف ذلك».

رفع الرجل الذي لم ينم أصبعه إلى عينيه وفركها. ظل إيسبستر يتحدث لفترة، بينما استمر الرجل يفرك عينيه، ثم تراءت له فكرة جديدة. قال: «تعال، لنهبط إلى غرفتي، وتجرب تدخين البايب. يمكنني أن أريك بعض الرسوم التخطيطية لمنطقة بلاكايت، إذا كنت مهتماً؟».

نهض الآخر مُطيعاً، وتبعه إلى أسفل المنحدر.

سمِعَه إيسبستر يتعثر مرات عديدة خلال هبوطهما، وكانت حركته بطيئة ومتردة. قال إيسبستر: «تعال معي، وجرب تدخين السجائر واحتساء الكحول. إذا كنت تشرب الخمر».

تردد الغريب عند بوابة الحديقة. بدا أنه لم يعد مُدْرِكاً أفعاله. قال ببطء، وهو يصعد إلى ممر الحديقة: «أنا لا أشرب»، ثم كرر غيائياً بعد لحظة: «لا، أنا لا أشرب. إنه يدور. يدور، يدور كالدوامة».

تعثر عند عتبة الباب، ودخل الغرفة كشخص لا يرى أي شيء.

جلس بكل ثقله على الكرسي المريح، وبدا كأنما يسقط عليه. انحنى إلى الأمام ورأسه على يديه، وكف عن الحركة. ثم بدأت حنجرته تُصدر صوتاً خافتاً.

أخذ إيسبستر يتحرك في أنحاء الغرفة بعصبية مضيء عديم الخبرة،

مع إبداء ملاحظات قليلة بالكاد ما تتطلب إجابة. أمسك بمحفظته ووضعها على الطاولة، ونظر إلى الساعة الموضوعة على الرف.

«لا أعرف إذا كنت ترغب في تناول العشاء معي»، قال وفي يده سيجارة لم يشعلها؛ إذ كان ذهنه مضطرباً بأفكار استخدام مادة الكلورال في الخفاء، «ليس لديّ إلا لحم الضأن البارد، تعرف، لكنه جيد، على طريقة ويلز. وأعتقد أن لديّ تورتة أيضاً». كرر تلك العبارة ثانية بعد لحظة صمت.

الرجل الجالس لم يرد. توقف إيسبستر وعود الثقاب في يده، وهو ينظر إلى الرجل.

طال السكون. انطفأ عود الثقاب، ظلت السيجارة غير مشتعلة. كان الرجل شديد الهدوء بالفعل. أمسك إيسبستر محفظته وفتحها، ثم وضعها جانباً وهو متردد. بدا أنه على وشك الكلام. «ربما»، همس متشككاً. ألقى نظرة سريعة نحو الباب، ثم عاد إلى الرجل. تسلل على أطراف أصابعه خارج الغرفة، وهو يقتنص لمحة خاطفة إلى رفيقه بعد كل خطوة محسوبة. أغلق الباب دون ضوضاء. كان باب المنزل مفتوحاً. خرج متجاوزاً الرواق، ووقف حيث ارتفع نبات البيش^(٥) عند زاوية الحديقة. كان بإمكانه من هذه النقطة رؤية الغريب من خلال النافذة المفتوحة ساكناً وكئيماً، يجلس أمامه وجهاً لوجه. لم يتحرك.

توقف عدد من الأطفال الذين يسرون على طول الطريق، ونظروا إلى

(٥) نبات البيش (monkshood): جنس نباتات عشبية تضم أكثر من ٢٥٠ نوع من النباتات السامة، وتُزرع لجمال أزهارها. «المتريجة».

الفنان بفضول. تبادل معهم ملاح بعض كلمات المجاملة. شعر أن الحذر في سلوكه وموقفه ربما يبدو غريباً وليس له ما يبرره. ربما يبدو التدخين طبيعياً أكثر. سحب الباب والمحفظة من جيبه، وملأ الباب ببطء.

«يا له من شخص عجيب»، قال وشعوره بافتقاد الرضى عن النفس بالكاد ما يكون ملحوظاً، «على أي حال، يجب على المرء أن يعطيه فرصة». حكّ عود الثقاب بقوة في علبة أعواد الثقاب، ثم شرع في إشعال الباب.

سمع ربة منزله خلفه، قادمة من المطبخ وفي يدها مصباحه مُضاء. التفت وهو يوميء بالباب، وأوقفها عند باب غرفة الجلوس. وجد صعوبة في شرح الوضع همساً؛ فهي لم تكن تعرف أن لديه زائراً. تراجعت إلى الوراء والمصباح في يدها. شعر بالحيرة بعض الشيء ليحكم على أسلوبها، لكنه استأنف حركته ذهاباً وإياباً في زاوية الرواق، متورداً وأقل راحة.

بعد فترة طويلة من تدخينه الباب، وعندما كانت الخفافيش في الخارج، سيطر الفضول على تردداته المختلفة؛ فتسلل ثانية إلى غرفة الجلوس المظلمة. توقف عند المدخل. الغريب لا يزال في الوضع نفسه: هيئة داكنة في مواجهة النافذة. وباستثناء غناء بعض البحارة على متن إحدى السفن الصغيرة التي تحمل أحجار الورد في الميناء، كان المساء شديد السكون. وفي الخارج، انتصبت أشواك نباتات البيش والعائق^(٦) بلا حراك أمام ظل سفح التل. جال خاطر في ذهن إيسبستر؛ فمال على الطاولة

(٦) نبات العائق (Delphinium): نبات له أشواك طويلة ذات زهور زرقاء. «المترجمة».

واستمع. وازدادت الشكوك غير السارة قوة، وتحولت إلى اقتناع. استولت عليه الدهشة، وأصابه الفزع!

لم يصدر صوت تنفس من الرجل الجالس!

تسلل ببطءٍ وبلا ضوضاء حول الطاولة، وتوقف مرتين للاستماع. وتمكن أخيراً من وضع يده على ظهر الكرسي. انحنى حتى أصبح الرأسان متواجهين، ثم انحنى أكثر ليتفحص وجه زائره. انتفض بعنف وتفوه بكلمات تعجّب. فقد كانت العينان عبارة عن فراغ أبيض.

نظر مرة أخرى ورأى أنهما مفتوحتان، وتدحرج بؤبؤا العينين أسفل الجفنين. شعر بالخوف، وأمسك كتفي الرجل وأخذ يهزه: «هل أنت نائم؟»، قال بصوت مرتفع، ثم كرر: «هل أنت نائم؟».

سيطر على عقله أن هذا الرجل قد مات. أصبح مضطرباً وصاخباً، وأخذ يتحرك في أنحاء الغرفة. واصطدم بالطاولة، ثم رن الجرس.

نادى في الممر: «أشعلي الضوء حالاً من فضلك». حدث شيء غريب لصديقي».

عاد إلى الشخص الجالس بلا حراك، أمسك كتفيه، وهزهما صائحاً. غمر الوهج الأصفر الغرفة عندما دخلت ربة البيت ومعها المصباح. كان وجهه شاحباً عندما استدار لينظر نحوها. قال: «يجب أن أحضر طبيباً. هذا إما موت وإما نوبة. هل يوجد طبيب في القرية؟ أين يمكن إيجاد طبيب؟».



الفصل الثاني

الغيبوبة

استمرت حالة الإغماء التخشبي الصارمة التي سقط فيها هذا الرجل لفترة زمنية لم يسبق لها مثيل، ثم انتقل ببطءٍ إلى حالة مترهلة، ومنها إلى وضع التراخي الذي يوحي براحة عميقة. ثم أصبح في الإمكان إغلاق عينيه.

نقلناه من الفندق إلى مستشفى الجراحة في بوسكاسل. ثم من الجراحة -بعد بضعة أسابيع- إلى لندن. لكنه لا يزال يقاوم كل محاولة لإنعاشه. توقفت هذه المحاولات بعد فترة، ولأسباب ستظهر لاحقاً. ظل لوقت طويل راقداً في هذه الحالة الغريبة، خاملاً وساكناً، ليس ميتاً وليس حيّاً، وإنما مُعلّق في منتصف الطريق بين العدم والوجود. كان ظلامه لا يقطعه شعاع من الفكر أو الإحساس؛ كان إعياء بلا أحلام، وفضاء شاسعاً من السلام. تضخم اضطراب ذهنه، ووصل إلى ذروة صمت مفاجئة. أين كان الرجل؟ أين يوجد أي رجل عندما يسيطر عليه عدم الحس والإدراك؟ قال إيسبستر: «يبدو الأمر كأنه بالأمس. أتذكر كل شيء كأنه حدث بالأمس، ربما أكثر وضوحاً مما لو كان حدث بالأمس».

كان هذا إيسبستر المذكور في الفصل السابق، لكنه لم يعد شابًا. شعره الذي كان بُنيًا وأطول قليلاً من الطول المؤلف قد أصبح رماديًا قصيرًا، ووجهه الذي كان أبيض ورديًا أصبح مصفرًا شاحبًا. كما أصبحت لديه لحية مُدببة خطَّها الشيب. تحدَّث إلى رجل مُسنٍّ يرتدي ملابس التدريب الصيفية (صيف ذلك العام كان حارًا بشكل غير معتاد)، اسمه وورمينج، وهو محام في لندن وأقرب أقرباء جراهام؛ جراهام الرجل الذي دخل في حالة غيبوبة. وقف الرجلان متجاورين في غرفة بمنزل في لندن، ينظران إلى الشخص الراقد.

كان شخصًا شاحبًا يرقد على سرير مائي ويرتدي قميصًا فضفاضًا. كان وجهه ضامرًا ولحيته قصيرة، وأطرافه هزيلة، وأظافره ضعيفة. أحاط به صندوق من الزجاج الرقيق. يبدو أن هذا الزجاج يفصل النائم عن واقع الحياة حوله؛ فقد كان شيئًا منفصلًا، حالة غريبة معزولة. وقف الرجلان بالقرب من الزجاج يحدقان.

قال إيسبستر: «لقد صُدِمت. شعرت بمفاجأة من نوع غريب، حتى الآن عندما أفكر في عينيهِ اللتين أصبحتا بيضاء. بيضاء، ومتدحرجتين إلى الخلف. عودتي إلى هنا ثانية تُدكّرني بكل شيء». سأله وورمينج: «ألم تره منذ ذلك الوقت؟».

أجاب إيسبستر: «كثيرًا ما أردت المجيء. لكن الأعمال التجارية حاليًا تتسم بأهمية كبيرة يصعب معها أخذ عطلة. فقد كنت في أمريكا معظم الوقت».

قال وورمينج: «أتذكر أنك كنت فنّانًا، أليس كذلك؟».

- كان ذلك في الماضي، ثم تزوجت. رأيت أن جميع الأشياء كانت أبيض وأسود، ثم بدأت العمل بسرعة تناسب على الأقل شخصاً متوسط القدرة. تلك الملصقات على المنحدرات في دوفر هي من صنع عمّالي. قال المحامي موافقاً: «إنها ملصقات جيدة، على الرغم من أنني حزين لرؤيتها هناك».

أجاب إيسبستر بنبرة ارتياح: «ستظل موجودة -إن لزم الأمر- ما دامت المنحدرات موجودة. العالم يتغير. عندما نام -قبل عشرين عاماً- كنت في بوسكاسل ومعى علبة ألوان مائية وطموح نبيل عتيق الطراز. لم أتوقع أن يأتي يوم تُمجّد فيه أصباغي ساحل إنجلترا المبارك كله، من لاندز إند^(٧) وتلتف وصولاً إلى ليزارد^(٨). كثيراً ما يأتي الحظ إلى الرجل وهو لا يبحث عنه».

بدا أن وورمينج يشك في نوعية الحظ: «إذا كانت ذاكرتي على صواب، فقد فاتني رؤيتك».

- أنت عُدت بواسطة العربة التي أخذني إلى محطة سكك حديد كاميلفورد. كان ذلك في فترة قريبة من الاحتفال باليوبيل، يوبيل فيكتوريا؛ لأنني أتذكر المقاعد والأعلام في وستمنستر، والشجار مع سائق عربة الأجرة في تشيلسي.

«كان اليوبيل الماسي»، قال وورمينج: «اليوبيل الثاني».

(٧) لاندز إند (Land's End): لسان صخري يقع غرب مقاطعة كورنوال في إنجلترا، ويُعتبر أقصى نقطة في غرب إنجلترا. «المترجمة».

(٨) ليزارد (Lizard): شبه جزيرة في جنوب مقاطعة كورنوال في إنجلترا، وتُعتبر أقصى نقطة في جنوب إنجلترا. «المترجمة».

- آه، نعم! في اليوبيل الأصيل، مرور خمسين عامًا، كنت صبيًا في قرية ووكي. فأتني كل ذلك... يا له من قلق واجهناه معه! لم تكن مدبرة المنزل ترغب في إدخاله أو السماح له بالبقاء؛ فقد بدا شديد الغرابة وهو متخشب. كان علينا حمله على كرسي إلى الفندق. ولم يكن طبيب بوسكاسل هو الشاب الموجود حاليًا، وإنما الممارس السابق عليه، وظل معه حتى الساعة الثانية تقريبًا، وأنا ومدبرة المنزل معي نحمل الأضواء وما إلى ذلك.

- هل تعني أنه كان متيسًا وجامدًا؟

«متيسًا! أينما أحنيت يظل ثابتًا على وضعه. ربما لو أوقفته على رأسه كان سيظل على وضعه. لم أشهد من قبل مثل هذا التخشب»، ثم أشار بحركة من رأسه إلى وضعية الاستلقاء قائلاً: «هذا مختلف تمامًا بالطبع. والطبيب الشاب، ماذا كان اسمه؟».

- سميرز؟

- كان اسمه سميرز. وقد أخطأ تمامًا عندما حاول تحريكه في وقت مبكر جدًا، وفقًا لجميع الروايات. الأشياء التي فعلها! تجعلني أشعر حتى الآن بكل شيء... أووه! الخردل، الاستنشاق، الوخز. وإحدى تلك الأشياء الصغيرة الوحشية، ليست مولدات كهربائية...

- أسلاك ملفوفة!

- نعم. كان يمكنك أن ترى عضلاته تنبض وتقفز، وهو يتلوى. لم يكن هناك إلا شمعتان صفراوان مشتعلتان، وكانت جميع الظلال ترتجف، والطبيب الصغير متوتر ومتعجرف، والآخر متخشب ويتشنج بطرق غير طبيعية. حسنًا، جعلني أحلم.

فترة توقف.

«إنها حالة غريبة»، قال وورمينج.

قال إيسبستر: «إنه نوع من الغياب التام. ها هو الجسد فارغ.. لم يمت، ومع ذلك ليس على قيد الحياة. إنه مثل مقعد شاغر وعليه علامة (مشغول). لا شعور، لا هضم، وقلب لا ينبض... لا يخفق. لم يجعلني هذا أشعر كأنما هناك رجل موجود. إنه -بمعنى ما- ميت أكثر من الموت؛ إذ أخبرني هؤلاء الأطباء أن حتى شعره قد توقف عن النمو. والآن -مع ميت عادي- سيستمر الشعر في النمو...».

«أعرف ذلك»، قال وورمينج وفي تعبيره ومضة ألم.

نظروا عبر الزجاج مرة أخرى. كان جراهم في حالة غريبة بالفعل، في مرحلة متراخية من الغيبوبة، لكنها غيبوبة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الطب. تستمر عادة تلك الغفوات إلى حوالي سنة، وبعد ذلك يحدث إما الاستيقاظ وإما الموت؛ وفي بعض الأحيان الاستيقاظ يليه الموت. أشار إيسبستر إلى العلامات التي وضعها الأطباء لحقن التغذية، حيث لجأوا إلى ذلك بهدف تأجيل الانهيار. لفت نظر وورمينج الذي كان يحاول عدم رؤيتها.

قال إيسبستر بحماس الحياة التي أمضاها بحرية: «وبينما كان مُستلقياً هنا، قمت بتغيير خططي في الحياة؛ لقد غيرت خططي في الحياة. تزوجت، وبنيت عائلة. ابني الأكبر، ولم أكن قد بدأت أفكر في الأبناء آنذاك، هو مواطن أمريكي، ويتطلع إلى مغادرة هارفارد. وبدأ الشيب يخط في شعري. وهذا الرجل، لم يكبر يوماً ولم يزد حكمة (عملياً) عما كنت

عليه في أيامي الصعبة. من الغريب التفكير في ذلك».

استدار وورمينج. قال: «لقد كبرت أنا أيضًا. لعبت معه الكريكت عندما كنت مجرد صبي، وكان هو يبدو شابًا. ربما كان شاحبًا، لكنه شاب».

قال إيسبستر: «وكانت هناك الحرب».

- من البداية إلى النهاية.

- وهؤلاء المريخيون.

قال إيسبستر بعد لحظات من التوقف: «لقد فهمت أن لديه بعض الممتلكات المعقولة؟».

أجاب وورمينج: «هذا صحيح»، سعل قليلاً ثم أضاف: «وحدث أنني المسؤول عنها».

«آه!»، فكر إيسبستر، تردد ثم تحدث: «لا شك أن الاحتفاظ به هنا ليس مكلفًا، ولا شك أنه تحسن... هل تراكمت؟».

- هذا صحيح. سيستيقظ أفضل حالًا بكثير - إذا استيقظ - مما كان عليه وضعه عندما نام.

قال إيسبستر: «هذا ما دار في ذهني بشكل طبيعي، بصفتي رجل أعمال. كنت أتصور أحيانًا أن هذا النوم - إذا تحدثنا بلغة التجارة، بالطبع - ربما يكون شيئًا جيدًا جدًا بالنسبة له. أعني أن يعرف ما يدور حوله، إن جاز التعبير، أنه فاقد للوعي لفترة طويلة. لو كان قد عاش مباشرة...».

قال وورمينج: «أشك أنه كان ليتعمد ذلك؛ فلم يكن - في الواقع - رجلاً بعيد النظر».

- ماذا؟

- إننا نختلف حول هذه النقطة. أنا وقفت معه - إلى حدٍّ ما - كوصي. وربما أنت رأيت ما يكفي لتدرك وجود بعض الاحتكاكات أحياناً... ولكن، حتى لو كان الأمر كذلك، فهناك شك إن كان سيستيقظ على الإطلاق. إن هذا النوم يستنزف المرء ببطءٍ، لكنه يستنزفه. من الواضح أنه ينزل ببطء، ببطء شديد ومُمل، أسفل منحدر طويل، هل تفهمني؟

- من المؤسف أن يفقد دهشته. شهدت السنوات العشرين الأخيرة العديد من التغييرات. إنه شخصية ريب فان وينكل^(٩) عندما تتحول إلى حقيقة.

قال وورمينج: «حدثت تغييرات كثيرة بالتأكيد. ومن بين التغييرات الأخرى، أنني تغيرت. أنا رجل عجوز الآن».

تردد إيسبستر، ثم تظاهر بمفاجأة متأخرة: «ما كان يجب أن أفكر في ذلك».

- كنت في الثالثة والأربعين عندما وصلتني رسالة من البنك الذي يتعامل معه. تتذكر أنك أرسلت إلى البنك.

قال إيسبستر: «حصلت على عنوان البنك من دفتر الشيكات الذي وجدته في جيبه».

قال وورمينج: «حسنًا، الإضافة ليست صعبة».

(٩) ريب فان وينكل (Rip Van Winkle): اسم البطل في قصة قصيرة بنفس العنوان للكاتب الأمريكي واشنطن إيرفينج، نُشرت عام ١٨١٩، وتحكي عن قروي تعرض لظروف جعلته ينام عشرين سنة ثم استيقظ بعدها ليوافه المجتمع الذي أصبح غريباً تماماً. «الترجمة».

ومرة أخرى ساد صمت لفترة وجيزة، ثم أفسح إيسبستر المجال لفضول لا مفر منه. قال: «مع ذلك، قد يستمر وضعه لسنوات». ثم أضاف بعد أن تردد للحظة: «علينا أن نفكر في ذلك. فشؤونه، كما تعرف، قد تقع يومًا في يدي شخص آخر، كما تعرف».

- صدقني، سيد إيسبستر، هذه إحدى المشكلات التي أفكر فيها باستمرار. لقد تصادف أننا نتحمل هذه المسؤولية. ولا توجد لدينا - في واقع الأمر - صلات جديرة بالثقة. إنه موقف بشع وغير مسبوق.

«صحيح»، قال إيسبستر.

- يبدو لي أنها قضية شخصية عامة، هي عمليًا قضية وصي لا يموت. إذا استمر حقًا في قيد الحياة، كما يعتقد الأطباء، بعض الأطباء. وفي الحقيقة تناقشت مع رجل أو اثنين من الشخصيات العامة حول هذا الموضوع. ولكن لم يحدث أي شيء حتى الآن.

- لن تكون فكرة سيئة أن نسلمه إلى هيئة عامة: أمناء المتحف البريطاني، أو كلية الأطباء الملكية. يبدو هذا غريبًا بعض الشيء، بطبيعة الحال، لكن الوضع برمته غريب.

- تكمن الصعوبة في حثهم على استلامه.

- الروتين... على ما أعتقد؟

- جزئيًا.

مرت فترة صمت وجيزة، ثم قال إيسبستر: «إنها تجارة غريبة بالتأكيد، وهناك وسيلة لتساعد الفائدة المركبة».

قال وورمينج: «وقد حدث. والآن تنفذ إمدادات الذهب، وهناك ميل نحو... تقدير القيمة».

قال إيسبستر بتجهم: «لقد شعرت بذلك، لكن هذا يجعل الأمر أفضل له».

- إذا استيقظ.

«إذا استيقظ»، ردد إيسبيس، «هل تلاحظ مظهر أنفه المضغوط، وطريقة غرق جفونه؟».

نظر وورمينج، وظل يفكر للحظات، ثم قال أخيرًا: «أشك في أنه سيستيقظ».

قال إيسبستر: «لم أفهم أبدًا بشكل صحيح ما سبب حدوث ذلك. لقد أخبرني شيئًا عن الإفراط في العمل. كنت أشعر بالفضول في كثير من الأحيان».

- كان رجلًا يتمتع بمواهب كبيرة، لكنه تشنجي وانفعالي، ويواجه مشاكل عائلية شديدة. لقد طلق زوجته، وأعتقد أنه نتيجة لذلك اندفع نحو ممارسة سياسة من نوع مُضر. كان متطرفًا متعصبًا... اشتراكياً... أو ليبرالياً نموذجياً، كما يسمون أنفسهم، من المدرسة المتقدمة. كان نشيطاً، وطائشاً، وغير منضبط. لقد وصل إلى ما هو عليه نتيجة الإفراط في العمل حول نقاط الخلاف. أذكر الكُتيب الذي أصدره، كُتيب غريب، يضم أشياء جامحة وملئية بالالتفافات. كما ضم نبوءة أو اثنتين؛ انكشف بعضها بالفعل، وبعضها حقائق ثابتة. لكن الجانب الأكبر في قراءة مثل هذه الأطروحة هو إدراك مدى امتلاء العالم بأشياء غير متوقَّعة. سيكون لديه الكثير والكثير الذي يجب أن يتعلمه عندما يستيقظ، إذا جاء وقت يستيقظ فيه.

قال إيسبستر: «أنا على استعداد للقيام بأي شيء لأكون موجودًا عندما يستيقظ، كي أستمع فقط إلى ما سيقوله عن كل شيء».

«وأنا أيضًا. نعم! أنا أيضًا»، قال وورمينج، ثم أضاف مع تحوله كرجل عجوز فجأة إلى الشفقة على نفسه: «لكنني لن أراه يستيقظ أبدًا».

وقف ينظر بتمعن إلى الهيئة الشمعية للشخص خلف الزجاج، وأخيرًا قال: «لن يستيقظ أبدًا». تنهد ثم قال: «لن يستيقظ مرة أخرى».



الفصل الثالث

الصَّحوة

لكن وورمينج كان مخطئاً في ذلك؛ فقد أتت لحظة الصَّحوة.
يا لتعقيدها الرائع! هذه الوحدة التي تبدو ظاهرياً بسيطة: الذات!
مَنْ يمكنه تتبع إعادة اندماجها عندما نستيقظ صباحاً بعد صباح، وتتدفق
وتتلاقى عواملها التي لا تُعد ولا تُحصى وهي تتشابك معاً، فضلاً عن إعادة
البناء، والحركات الأولى الخافتة للروح، ونمو وتركيب اللا وعي إلى ما
دون الوعي، ومن ما دون الوعي إلى بزوغ فجر الوعي، حتى نتعرف أخيراً
على أنفسنا مرة أخرى. ما حدث مع جراهام في نهاية سباته الطويل، يماثل
ما يحدث لمعظمنا بعد نوم الليل. تتشكل سحابة باهتة من الإحساس،
كآبة غائمة، ثم وجد نفسه في مكان ما غامض، راقداً وضعيفاً، لكنه على
قيد الحياة.

بدا أن الارتحال نحو كيان إنساني يتطلب اجتياز خلجان شاسعة،
ويستغرق عصوراً. فالأحلام العملاقة التي كانت حقائق رهيبة في ذلك
الوقت، تركت ذكريات غامضة تبعث على الحيرة، ومخلوقات عجيبة،
ومشاهد غريبة، كأنها من كوكب آخر. برز انطباع أيضاً عن حديث بالغ

الأهمية حول اسم لم يستطع تحديده لكنه سيتكرر لاحقاً، يتعلق بإحساس غريب بالوريد والعضلات -إحساس منسي منذ فترة طويلة- وبشعور بجهد يائس كبير، جهد رجل يكاد يغرق في الظلام. ثم بدأت بانوراما من تجمع لمشاهد مبهرة غير مستقرة...

أدرك جراهام أن عينيه كانتا مفتوحتين، وتريان شيئاً غير مألوف. كان شيئاً أبيض اللون، حافة شيء، إطاراً من الخشب. حرك رأسه قليلاً، متتبّعاً محيط هذا الشكل. رآه يرتفع إلى ما يتجاوز قمة عينيه. حاول أن يفكر أين يوجد الآن. هل هذا مُهم، وهو يرى مدى بؤسه؟ كان لون أفكاره كآبة قاتمة. شعر بالمعاناة الرتيبة التي تصيب مَنْ يستيقظ في وقت يقترب من ساعة الفجر. كان لديه شعور غير يقيني بهمسات وخطوات تنحسر على عجل.

انطوت حركة رأسه على إدراك بالضعف البدني الشديد. افترض أنه يرقد في سرير بالفندق القائم في الوادي، لكنه لم يستطع أن يتذكر تلك الحافة البيضاء. لا بد أنه نام. تذكر الآن أنه كان يريد النوم. وتذكر الجرف والشلال مرة أخرى، ثم تذكر شيئاً عن تحدّثه مع أحد المارة...

منذ متى وهو نائم؟ ماذا عن صوت هرولة الأقدام؟ وماذا عن هذا الارتفاع والسقوط، مثل دمدمة أسطوانة على الحصى؟ مديداً واهنة لتصل إلى ساعته على المقعد، حيث اعتاد وضعها، فلمست سطحاً صلباً أملس مثل الزجاج. أصابه ذهول شديد لأنه لم يكن يتوقع ذلك. تقلب فجأة، وحدّق للحظة، ثم أخذ يكافح ليجلس. بذل جهداً كبيراً على نحو غير متوقّع، مما تركه دائخاً ضعيفاً مذهولاً.

فرك عينيه. أثار لغز المكان الذي يوجد فيه ارتبাকে، لكن ذهنه كان صافياً تماماً؛ فمن الواضح أن النوم أفاده. لم يكن في سرير على الإطلاق، على نحو ما يفهمه من الكلمة، لكنه كان مستلقياً عارياً على مرتبة شديدة النعومة والمرونة، في حوض من الزجاج الداكن. كانت المرتبة شفافة جزئياً، وهي حقيقة لاحظها بشعور من عدم الأمان، وتوجد أسفلها مرآة تعكس صورته بلون ضارب إلى الرمادي. رأى مصدوماً أن بشرته جافة وصفراء، وأن ذراعه مربوطة بأداة مطاطية غريبة، بطريقة مأكرة على نحو يجعلها تبدو كأنها تمر داخل جلده من أعلى وأسفل. وهذا الفراش موجود داخل صندوق من الزجاج الملون الضارب إلى الخضرة (كما بدا له)، يحيط به حاجز في إطار أبيض، ذلك الإطار الذي جذب انتباهه بداية. ويوجد في زاوية الصندوق حامل يضم أدوات لامعة ودقيقة الصنع، يتسم أغلبها بالغرابة. على أن ميزان الحرارة كان هو الحد الأقصى والحد الأدنى من الأدوات التي يمكنه التعرف عليها.

كان اللون المخضر قليلاً للمادة الشبيهة بالزجاج، التي أحاطت به من جميع الجوانب، تحجب كل ما يكمن وراءها، لكنه تصور أنها شقة واسعة رائعة، وفي مواجهته ممر أبيض كبير وبسيط. وبالقرب من جدران القفص يوجد بعض الأثاث: طاولة مغطاة بقطعة قماش فضية، فضية مثل جانب السمكة، ومقعدان مريحان، وعلى الطاولة عدد من الأطباق المكدسة بالمواد، وزجاجة وكوبان. أدرك أنه جائع جداً.

لم يتمكن من رؤية أحد. وبعد فترة من التردد، اندفع من فوق المرتبة الشفافة في محاولة للوقوف على الأرضية البيضاء النظيفة لشقته الصغيرة. لكنه أخطأ في حساب قوته، فترنح ووضع يده على اللوح الزجاجي أمامه

لثببت نفسه. للحظة واجهت يده مقاومة من لوح الزجاج، حيث انحنى إلى الخارج مثل كيس منتفخ، ثم انكسر مع إصدار صوت طفيف واختفى مثل فقاعة تُقْبَت. خرج متمائلاً إلى القاعة العامة، وهو مندهش للغاية. استند على الطاولة لإنقاذ نفسه، فوق أحد الكوبين على الأرض مُصدراً رنيناً لكنه لم ينكسر. ثم جلس على أحد المقعدين.

وعندما تعافى قليلاً، ملأ الكوب المتبقي من الزجاجاة وشرب. كان سائلاً عديم اللون لكنه ليس الماء، وله رائحة ومذاق خفيف ولطيف، ومن نوعية ذات تأثير داعم وتحفيزي فوري. وضع الإناء ونظر حوله.

لم تفقد الشقة أيّاً من حجمها وروعها الآن بعد إزالة المادة الشفافة الخضراء الحازجة. يؤدي الممر المقوس الذي رآه إلى سلالم، تتجه إلى أسفل دون المرور بالباب، وتقود إلى ممر مستعرض واسع. يمتد هذا الممر بين أعمدة مصقولة مصنوعة من مادة بلون اللازورد الأزرق الداكن الذي تتخلله عروق بيضاء، وعلى طول الممر سمع أصوات البشر وضجيج تحركاتهم، وطنيناً عميقاً متواصلاً. جلس مستيقظاً تماماً الآن، يستمع بيقظة، متناسياً رغبته في الطعام.

ثم تذكر مصدوماً أنه كان عارياً، فتطلع حوله بحثاً عن شيء يغطيه. رأى رداء طويلاً أسود مُلقًى على أحد الكراسي بجانبه، لفه حول نفسه وجلس مرة أخرى وهو يرتجف.

لا يزال ذهنه في حيرة متزايدة. ومن الواضح أنه نام، ويُقَل أثناء نومه. لكن إلى أين؟ ومن هؤلاء الناس، ذلك الحشد البعيد خلف الأعمدة ذات اللون الأزرق الغامق؟ بوسكاسل؟ سكب كوباً آخر من السائل عديم اللون وشرب بعضه.

ما هذا المكان؟ المكان الذي بدا لحواسه يهتز بمهارة مثل شيء مفعم بالحياة؟ نظر حوله متطلعاً إلى شكل الشقة النظيف والجميل، الذي لم تلوثه الزخرفة. ورأى موضعاً مكسوراً في السقف بفتحة دائرية مليئة بالضوء؛ وبينما كان ينظر، مر ظل ثابت كاسح حجب الضوء، ثم تكرر مروره. كان للظل الكاسح رنين خاص -«تك، تك»- وسط الضجيج الخافت الذي ملأ الهواء.

كاد أن يصيح، لكنَّ قدرًا ضئيلاً فقط من الصوت وصل إلى حلقه. نهض واقفًا، وشق طريقه نحو الممر المقوس بخطوات سكيّر مترنحة. تمايل وهو ينزل على السلم، كما تعثر على طرف العباءة السوداء التي لفها حول نفسه، لكنه أنقذ نفسه بالإمساك بأحد الأعمدة الزرقاء.

امتد الممر عبر مشهد رائع باللونين الأزرق والأرجواني، وصولاً بعد مسافة بعيدة إلى مكان مسور مثل شرفة ساطعة الإضاءة وتبرز لمسافة في الضباب، مسافة تماثل الجزء الداخلي في بعض المباني العملاقة. وخلفها على البعد تقع أشكال معمارية ضخمة وغامضة. ارتفع الآن صخب الضوضاء عاليًا وواضحًا؛ رأى في الشرفة ثلاثة أشخاص يرتدون ملابس غنية فضفاضة وذات ألوان مشرقة، كانت ظهورهم نحوه ويومئون في حديث مفعم بالحيوية. تدفقت ضوضاء عدد كبير من الناس إلى الشرفة. بدا مرة أن الجزء العلوي من لافتة قد مر، وبدا مرة أن شيئاً زاهي اللون - ربما قبعة أو قطعة ملابس زرقاء باهتة أُلقيت في الهواء - يومض في المكان ثم يسقط. بدا أن الصيحات باللغة الإنجليزية، تكررت كلمة «استيقظ!». سمع صيحة حادة مبهمة، وفجأة بدأ هؤلاء الرجال الثلاثة يضحكون.

«هاهاها!»، ضحك أحدهم، وكان رجلاً أحمر الشعر، يلبس رداء أرجوانياً قصيراً، «متى يستيقظ النائم؟ متى!».

أدار عينيه المليئتين بالفرح على طول الممر. تغير وجهه، تغير الرجل كله، أصابه جمود. التفت الاثنان الآخران بسرعة عندما صاح متعجباً، ووقفوا بلا حراك. اتخذت وجوههم تعبيراً عن الذعر، تعبيراً زاد تعمقاً وتحول إلى رهبة.

وفجأة انحنت ركبتا جراهام تحته، وانهارت ذراعه بضعف من على العمود، ثم ترنح إلى الأمام وسقط على وجهه.



الفصل الرابع

صوت اضطراب

كان رنين الأجراس هو آخر انطباع لدى جراهام قبل أن يُغمى عليه. عرف بعد ذلك أنه فقد الوعي -متسكعًا بين الحياة والموت- لما يقرب من ساعة. وعندما استعاد حواسه، عاد إلى أريكته الشفافة، وشعر بدفءٍ في القلب والحنجرة. أدرك أن الجهاز الداكن قد أُزيل من ذراعه، التي وجدها مُضمدةً. أما الإطار الأبيض، فلا يزال قائمًا حوله وإن اختفت تمامًا المادة الشفافة الخضراء التي ملأته. كان أحد الرجال في الشرفة يرتدي رداء باللون البنفسجي الغامق، وينظر باهتمام إلى وجهه.

تناهى إلى سمعه -عن بُعد وبإلحاح- صخب من رنين الأجراس والأصوات المختلطة، بما أوحى في ذهنه صورة لعدد كبير من الناس يصرخون معًا. بدا أن شيئًا سقط وسط هذا الاضطراب، أغلق باب فجأة.

حرّك جراهام رأسه، وقال ببطءٍ: «ما معنى هذا كله؟ أين أنا؟».

رأى الرجل ذو الشعر الأحمر الذي كان أول من اكتشفه. وتراءى له أن صوتًا يسأل عما قاله، لكنه سكت فجأة.

أجاب الرجل ذو الرداء البنفسجي بصوت خافت، متحدثًا بالإنجليزية
بلكنة أجنبية إلى حد ما، أو هكذا على الأقل بدا الأمر لأذني النائم: «أنت
آمن تمامًا. لقد أحضروك إلى هنا من المكان الذي نمت فيه. وهنا المكان
آمن تمامًا. أنت هنا منذ فترة، نائم.. في غيبوبة».

قال شيئًا آخر لم يتمكن جراهام من سماعه، ثم أُعطيت إليه قنينة
صغيرة. شعر جراهام برذاذ بارد، ضباب عطري، على جبهته للحظة،
وازداد إحساسه بالانتعاش. أغلق عينيه بارتياح.

وعندما فتح عينيه، سأله الرجل ذو الرداء البنفسجي: «هل أنت أفضل
الآن؟». كان رجلًا لطيف الوجه، ربما في الثلاثين من عمره، بلحية كتانية
مدببة، ويضع مشبكًا ذهبيًا عند عنق رداءه البنفسجي.

«نعم»، أجاب جراهام.

- أنت نمت لفترة، في غيبوبة تخشبية. هل سمعت؟ إغماء تخشبي؟
قد يبدو الأمر غريبًا بالنسبة لك في البداية، وإنما بإمكانني أنؤكد لك أن
كل شيء على ما يرام.

جراهام لم يجب، لكن هذه الكلمات حققت غرضها في طمأنته.
تنقلت عيناه من وجه إلى وجه من وجوه الأشخاص الثلاثة المحيطين به،
وينظرون إليه بغرابة. عرف أنه لا بد موجود في مكان ما بمقاطعة كورنول،
لكنه لم يستطع ربط هذه الأشياء بهذا الانطباع.

عاد إلى ذهنه شيء كان يشغله خلال لحظات استيقاظه الأخيرة في
بوسكاسل، وهو شيء حلّه وأهمله بطريقة أو بأخرى. تنحنح لتنظيف
حلقه.

ثم سأل: «هل أرسلت برقية إلى ابن عمي؟ اسمه إي. وورمينج، وعنوانه ٢٧ شارع تشانسري لين؟».

حرص الجميع على سماعه. لكنه اضطر لتكرار كلامه. همس الرجل ذو الشعر الأحمر: «يا له من غموض غريب في لهجته!». وقال الشاب ذو اللحية الكتانية، وهو في حيرة واضحة: «برقية، يا سيدي؟».

تطوع الثالث، وهو شاب لطيف الوجه يبلغ من العمر تسع عشرة سنة أو عشرين، قائلاً: «إنه يعني إرسال برقية كهربائية». أطلق الرجل ذو اللحية الكتانية صيحة تنم عن الفهم، ثم قال لجراهام: «يا لغبائي! تأكد يا سيدي من إنجاز كل شيء. لكنني أخشى أنه سيصعب إرسال برقية إلى ابن عمك. فهو ليس في لندن الآن، ولكن لا توجد أي مشكلة حول الترتيبات حتى الآن. لقد بقيت نائماً لفترة طويلة جداً، والمهم هو التغلب على ذلك، يا سيدي».

أدرك جراهام الكلمة كانت سيدي، لكن هذا الرجل نطقها «سايدي». «أوه!»، قال جراهام، ثم صمت.

كان كل شيء مُحيرًا جدًا، وإنما على ما يبدو أن هؤلاء الناس الذين يرتدون ملابس غير مألوفة يعرفون ما يوجد حولهم. لكنهم يتسمون بالغرابة، كما كانت الغرفة غريبة. يبدو أنه في مكان حديث التأسيس. انتابته ومضة شك مفاجئة! فهذه بالتأكيد ليست قاعة لمعرض عام! ولو كانت قاعة معرض، لغضب من وورمينج. لكنها بالكاد ما تتسم بهذا الطابع. لو كان في قاعة معرض، لم يكن ليجد نفسه عارياً.

ثم فجأة -وعلى نحو غير متوقع تمامًا- أدرك ما حدث. لم يستغرق شكه أي فترة زمنية ملحوظة، ولم توجد نقطة بدء لمعرفته. أدرك فجأة أن غفوته استمرت لفترة طويلة؛ كأنما تمكن من خلال عملية قراءة الأفكار من تفسير الرهبة التي علت الوجوه التي تحديق في وجهه. نظر إليهم بغرابة مليئة بانفعالات قوية. ويبدو أنهم قرأوا عينيه. حرّك شفثيه ليتحدث، لكنه لم يستطع. ففي لحظة اكتشافه نفسها، طاف في ذهنه دافع غريب لإخفاء معرفته. نظر بصمت إلى قدميه العاريتين. تلاشى اندفاعه للتحدث. كان يرتجف بشدة.

أعطوه سائلًا ورديّ اللون، يتألق مخضرًا وله مذاق اللحم؛ مؤكدين استعادته لقوته.

قال بصوت أجش: «هذا يجعلني أشعر بتحسن». سرت همهمات تنم عن الموافقة العليمة. أصبح يدرك الأمر الآن بوضوح تام. حاول أن يتحدث ثانية، ومرة أخرى لم يستطع.

ضغط على حلقة وحاول مرة ثالثة. ثم سأل بصوت خافت: «كم من الوقت؟ منذ متى وأنا نائم؟».

«لفترة طويلة»، أجابه الرجل ذو اللحية الكتانية، وهو يلقي نظرة خاطفة على الآخرين.

- كم من الوقت؟

- وقت طويل جدًا.

قال جراهام فجأة بعصبية: «نعم... نعم. لكنني أريد... هل هي... هل هي... بضع سنوات؟ سنوات عديدة؟ كان هناك شيء، نسيت ما هو. إنني

أشعر... بالارتباك. لكنك...»، صاح: «لكنك لست في حاجة إلى إخفاء الأمر عني. كم من الوقت...؟».

توقف، وأصبح تنفسه غير منتظم. ضغط على عينيه بأصابعه، وجلس في انتظار إجابة.

تحدثوا بأصوات خفيفة.

«خمسة أعوام أو ستة؟»، سأل بصوت خافت. «أكثر؟».

- أكثر من ذلك بكثير.

- أكثر!

- نعم، أكثر.

نظر إليهم، وبدا كأن العفاريت تتقاذف على عضلات وجهه. انتظر الإجابة على سؤاله.

«سنوات عديدة»، قال الرجل ذو اللحية الحمراء.

كافح جراهام ليتمكن من الجلوس. مسح دمعة من وجهه بيد هزيلة. وكرر قائلاً: «سنوات عديدة!». أغلق عينيه بإحكام، وفتحهما. ثم جلس ينظر حوله، وينقل بصره من كل شيء غير مألوف إلى آخر.

سأل: «كم سنة؟».

- يجب أن تستعد للدهشة.

- حسناً؟

- أكثر من ١٢ دزينة من السنوات.

غضب من هذه الكلمة الغريبة: «أكثر من ماذا؟».

تحدث اثنان منهم في وقت واحد. قالوا بعض الكلمات السريعة حول «عدد عشري»، لكنه لم يستوعبه.

سأل جراهام: «كم من الوقت قلت؟ كم عدد السنوات؟ لا تنظر هكذا! أخبرني».

من بين الكلمات التي صدرت بصوت خفيض، أمسكت أذنه ثلاث كلمات: «أكثر من قرنين».

«ماذا؟»، صاح، وحول بصره نحو الشاب الذي تصور أنه من تحدث: «مَن قال؟ ماذا قال؟ قرنان!».

«نعم»، قال الرجل ذو اللحية الحمراء: «٢٠٠ عام».

كرر جراهام الكلمات. كان مستعدًا لسماع فترة سكون طويلة، ومع ذلك هزمه تحديد الوقت بقرنين.

كرر ثانية: «٢٠٠ سنة». وأخذت هاوية ضخمة تنفتح ببطء شديد في ذهنه؛ ثم قال: «أوه، ولكن...».

لم يقل أحد شيئًا.

- أنت... هل قلت...؟

قال الرجل ذو اللحية الحمراء: «٢٠٠ عام. قرنان من الزمان».

مرت لحظات صمت. نظر جراهام إلى وجوههم، وأدرك أن ما سمعه كان صحيحًا بالفعل.

قال باستياء: «لكن... هذا غير ممكن. أنا أحلم. الغيبوبة... الغيبوبة لا تدوم. هذا غير صحيح. لا بد أنك تمزح معي! أخبرني... كنت أسير، ربما منذ بضعة أيام، على طول ساحل كورنوول...؟».

ثم خذله صوته.

تردد الرجل ذو اللحية الكتانية، ثم قال بضعف وهو ينظر إلى الآخرين:
«أنا لست قوياً في التاريخ يا سيدي».

قال الشاب: «هذا كل شيء يا سيدي. بوسكاسل، في دوقية كورنول القديمة؛ في جنوب غرب البلد، خلف مروج الألبان. يوجد منزل هناك، لا يزال هناك. أنا كنت هناك».

«بوسكاسل!»، أدار جراهام عينيه إلى الشاب، «هذه هي، بوسكاسل. بوسكاسل الصغيرة. لقد نمت هناك، في مكان ما هناك. أنا لا أتذكر بالضبط. لا أتذكر بالضبط».

ضغط على حواجه وهمس: «أكثر من مائتي عام!».
بدأ يتحدث بسرعة ووجهه يرتعش، لكن قلبه كان بارداً بداخله:
«ولكن، إذا مرت ٢٠٠ عام، فهذا يعني أن كل روح أعرفها، وكل إنسان رأيته أو تحدثت إليه قبل أن أنام، يجب أن يكون ميتاً».
لم يجب أحد.

– الملكة، والعائلة المالكة، ووزراؤها. الكنيسة والدولة. الطبقات العليا والدنيا، الأغنياء والفقراء، واحد مع الآخر... هل إنجلترا لا تزال موجودة؟

– هذا مريح! هل لندن لا تزال موجودة؟
– هذه لندن، هه؟ وأنت مساعد الوصي، مساعد الوصي. وهؤلاء...؟
هه؟ مساعدو الوصي أيضاً!
جلس وعلى وجهه نظرة هزيلة: «لكن... لماذا أنا هنا؟ لا! لا تتكلم. عليك بالصمت. دعني...».

جلس صامتًا، فرك عينيه، وعندما كشفهما، وجد كويًا صغيرًا آخر من السائل الوردي مُقدَّمًا إليه. شرب الجرعة، ثم بدأ مباشرة ييكي بشكل طبيعي ومريح.

نظر الآن إلى وجوههم بقدر من الحماسة، وفجأة ضحك من خلال دموعه. ثم قال: «لكن... ٢٠٠ سنة!»، تغيرت قسما وجهه بشكل هستيري، وغطاه مرة أخرى.

هدأ بعد فترة. جلس ويده على ركبتيه، في الوضع نفسه الذي وجدته فيه إيسبستر عند المنحدر في بتارجن. جذب انتباهه صوت مهمن غليظ، مع خطوات شخص يتقدم: «ماذا تفعل؟ لماذا لم يُبلغني أحد؟ كان بإيمانكم إبلاغي بالتأكد؟ شخص ما سيُعاقب على ذلك. يجب أن يظل الرجل هادئًا. هل المداخل مُغلقة؟ كل المداخل؟ يجب أن يبقى هادئًا تمامًا، كما يجب عدم إخباره. هل قيل له أي شيء؟».

أدلى الرجل ذو اللحية التي خطها الشيب ببعض الكلمات الهامسة. نظر جراهام من فوق كتفه، ورأى رجلًا قصيرًا سمينًا يقترب، وبلا لحية كثيفة، وأنفه معقوف، فضلاً عن ضخامة رقبته وذقنه. وكان حاجباه سميكين شديدي السواد، وينحدران بعض الشيء بحيث يكادان أن يلتقيا فوق أنفه، ومعلقين فوق عينيه الرماديتين؛ مما أعطى وجهه تعبيرًا مخيفًا غريبًا. تجهم للحظات وهو ينظر إلى جراهام، ثم حوّل نظره إلى الرجل ذي اللحية الكتانية وقال بصوت غاضب: «وهذان الآخرون... من الأفضل أن تذهبا».

«نذهب؟»، قال الرجل ذو اللحية الحمراء.

- بالتأكيد، اذهبا الآن. وتأكدا من إغلاق المداخل خلفكما.

أطاعه الرجلان واستدارا بعد نظرة مترددة على جراهام. وبدلاً من السير عبر الممر المقوس كما هو متوقع، سارا مباشرة في اتجاه جدار الشقة المقابل للممر. بدا شريطاً طويلاً من هذا الجدار الصلب الذي يلتف على نحو مفاجئ، مُعلّقاً فوق الرجلين المُنسحبين، ثم اختفى ثانية؛ وعلى الفور أصبح جراهام بمفرده مع الوافد الجديد والرجل ذي الرداء الأرجواني واللحية الكتانية.

لم يلقَ الرجل الغليظ اهتماماً بجراهام لفترة قصيرة، وشرع في استجواب الآخر - من الواضح أنه مرؤوس - فيما يتعلق بطريقة تعاملهم مع الحالة. تحدث بوضوح، ولكن بعبارات لم يفهمها جراهام إلا جزئياً. لم تكن الصحوة مجرد مفاجأة، بل سببت له أيضاً مزيجاً من الذعر والانزعاج. بدا انفعاله شديد الوضوح.

«يجب ألا تُربك عقله بإخباره بأشياء»، كرر مراراً وتكراراً: «يجب ألا تُربك عقله».

وبعد أن حصل على إجابات على أسئلته، استدار بسرعة وهو ينظر بتعبير غامض إلى النائم الذي استيقظ.

سأله: «هل تشعر بالغرابة؟».

- جداً.

- هل يبدو ما تراه من العالم غريباً بالنسبة لك؟

- أعتقد أنني يجب أن أعيش فيه كما هو، عالم غريب.

- أعتقد ذلك، الآن.

- وبداية، أليس من الأفضل أن أحصل على ملابس؟
«إنهم...»، قال الرجل الغليظ ثم توقف. خرج الرجل ذو اللحية
الكتانية بعد أن التقت عيناه بعيني رئيسه. قال الرجل الغليظ: «ستتوفر لك
الملابس سريعاً».

سأله جراهام: «هل صحيح أنني بقيت نائمًا لمائتي...؟».
- أخبروك بذلك، هل أخبروك؟ مائتان وثلاثة، في واقع الأمر.
لم يكن أمام جراهام إلا أن يقبل الوضع المؤكد الآن، وحاجباه
مرفوعان وفمه متدلل. جلس صامتًا للحظة، ثم سأل: «هل هناك طاحونة
أو دينامو بالقرب من هنا؟». لم ينتظر جوابًا، وأضاف: «أتصور أن الأمور
تغيرت بشكل كبير؟».

وفجأة سأل: «ما هذا الصراخ؟».
أجاب الرجل الغليظ بنفاد صبر: «لا شيء. هؤلاء هم الناس. ستفهم
بشكل أفضل لاحقًا... ربما. فقد تغيرت الأمور، كما قلت». وبعد فترة
قصيرة، تماسك حاجباه وألقى نظرة عليه كرجل يحاول أن يتخذ قرارًا في
حالة طوارئ، وقال: «على أي حال، يجب أن نحضر لك ملابس وما إلى
ذلك. من الأفضل أن تنتظر هنا حتى نشترها. لن يقترب منك أحد. تحتاج
أن تحلق».

فرك جراهام ذقنه.
عاد الرجل ذو اللحية الكتانية متجهًا إليهما، واستدار فجأة، واستمع
للحظة، ورفع حاجبيه وهو ينظر إلى الرجل الأكبر سنًا، ثم أسرع عبر
الممر المقوس نحو الشرفة. ارتفعت ضجة الصباح. استدار الرجل الغليظ

ليستمع أيضًا. وفجأة أطلق لعنات وهو يحبس أنفاسه، وأدار عينيه نحو جراهام في تعبير غير ودي. كانت موجة أصوات عديدة ترتفع وتنخفض، تصيح وتصرخ. وصدر مرة صوت مثل ضربات وصرخات حادة، ثم قضم مثل طقطقة عصي جافة. ركّز جراهام أذنيه في محاولة لتحديد أحد الأصوات في تلك الضجة المتشابكة.

ثم تمكن من تمييز صيغة معينة تتكرر على الدوام. تشكك للحظات في أذنيه، لكن الكلمات كانت بالتأكيد: «نريد أن نرى النائب! نريد أن نرى النائب!». النائب!

هرع الرجل الغليظ فجأة إلى الممر المقوس.

صاح: «يا للهول! كيف يعرفون؟ هل يعرفون؟ أم هو تخمين؟».

ربما هناك إجابة.

قال الرجل الغليظ: «لا يمكنني أن آتي. يجب أن أرحاه. لكن، عليكم الصياح من الشرفة».

كان هناك رد غير مسموع.

-قولوا إنه لم يستيقظ. قولوا أي شيء! أترك الأمر لكم.

عاد مُسرّعًا إلى جراهام، وقال له: «يجب أن توفر لك الملابس على الفور. لا يمكنك البقاء هنا، ومن المستحيل أن...».

أسرع مبتعدًا، وجراهام يصيح بأسئلة بلا إجابة. عاد بعد لحظات.

- لا يمكنني أن أقول لك ما يحدث. فالأمر شديد التعقيد بحيث يصعب تفسيره. ستحصل على ملابسك بعد لحظات. نعم، هي لحظات. وبعدها يمكنني أن آخذك بعيدًا عن هنا. وسرعان ما ستكتشف مشاكلنا.

- لكن هذه الأصوات. كانوا يصيحون؟!

- بشيء عن النائم، أي عنك. لديهم فكرة ملتوية. لا أعرف ما هي.
لا أعرف شيئاً.

كان جرس صاحب يدق بحدة عبر اختلاط غير واضح من الضوضاء عن بُعد. توجه هذا الشخص اللفظ نحو مجموعة صغيرة من الأجهزة في ركن الغرفة. أخذ يستمع للحظة، وينظر إلى كرة من الكريستال. أو ما برأسه وقال بضع كلمات غير واضحة. ثم مشى إلى الجدار الذي اختفى من خلاله الرجلان. التف مرة أخرى مثل ستارة، ووقف منتظراً.

رفع جراهام ذراعه، واندesh عندما أدرك القوة التي منحته إياها العقاقير الطبية. دفع إحدى ساقيه على الأريكة، ثم دفع ساقه الأخرى. لم يعد رأسه يدور. وبالكاد ما وثق في تعافيه السريع. جلس يستشعر أطرافه. عاد الرجل ذو اللحية الكتانية من الممر المقوس. وفي أثناء ذلك، كان قفص المصعد ينزل إلى أسفل أمام الرجل الغليظ، وظهر فيه رجل هزيل رمادي اللحية، يحمل لفافة، ويرتدي سترة مُحكمة باللون الأخضر الداكن. «هذا هو الترزي»، قال الرجل الغليظ وهو يومئ للتعريف بالشخص القادم. ثم قال للترزي: «لا يناسبك أبداً هذا اللون الأسود. لا أعرف كيف وصل إلى هنا. لكنني سأعرف. سأعرف. أيمكنك أن تنتهي من عملك في أسرع وقت ممكن؟».

انحنى الرجل ذو الرداء الأخضر، وتقدم ليجلس بجانب جراهام على السرير. كان أسلوبه هادئاً، لكنَّ عينيه كانتا مليئتين بالفضول. قال: «ستجد الأزياء متغيرة يا سيدي». نظر من تحت حواجبه إلى الرجل الغليظ.

فتح اللفافة بحركة سريعة، فتدققت على ركبتيه مجموعة مختلفة من الأقمشة الرائعة. «أنت عشت يا سيدي في فترة دائرية أساسًا: العصر الفيكتوري، حيث الميل إلى عالم القبعات. منحنيات دائرية دائمًا. والآن...»، ثم نفخ الغبار عن جهاز صغير يشبه في حجمه ومظهره ساعة من دون مفتاح، وأدار مقبضه وانتظر. ظهر على القرص بأسلوب الكينيتوسكوب^(١٠) شكل لشخص صغير الحجم يرتدي رداء أبيض اللون، يسير ويدور. التقط الترزي نوعًا من الساتان الأبيض المزرق. قال: «هذا هو تصوري لعلاجك الفوري».

جاء الرجل الغليظ ووقف بجانب كتف جراهام.

وقال: «لدينا وقت قليل جدًا».

قال الترزي: «صدقني. جهازي يتتابع. ما رأيك في هذا؟».

«ما هذا؟»، سأل الرجل القادم من القرن التاسع عشر.

أجاب الترزي: «في أيامك، كانوا يظهرون لك صور الأزياء، لكن هذا هو تطورنا الحديث. انظر هنا»، كرر الشكل الصغير حركاته ولكن في زي مختلف، «أو انظر هذا»، وبضغطة واحدة سار شخص صغير آخر على القرص، وهو يرتدي رداء من نوع أكثر ضخامة. كانت حركات الترزي سريعة جدًا في تحركاته، ونظر مرتين نحو المصعد في أثناء ذلك.

صدرت ثانية أصواتٌ مهمة. وظهر صبيّ يبدو مصابًا بالأنيميا، يكاد يكون حليق الرأس وملامحه صينية، يرتدي ملابس من قماش خشن

(١٠) الكينيتوسكوب (kinetoscope): جهاز من اختراع إديسون، يعرض الصور المتسلسلة بطريقة تعطي انطباعًا بالحركة، حيث تتحرك حلقة لا نهاية لها من الفيلم باستمرار فوق مصدر الضوء؛ وهو مقدمة للصور المتحركة الحديثة. «الترجمة».

باللون الأزرق الشاحب، وبجواره جهاز مُعقد دفعه على عجالات صغيرة دون ضجيج إلى الغرفة. أبعد الكيتوسكوب الصغير، وطُلب من جراهام الوقوف أمام الجهاز. تمت الترزي بتعليمات إلى الفتى حليق الرأس، الذي أجاب بصوت مبحوح وبكلمات لم يتعرف عليها جراهام. ذهب الصبي إلى الركن وبدأ في مونولوج غير مفهوم. سحب الترزي عددًا من الأذرع المشقوقة التي تنتهي بأقراص صغيرة، وظل يسحبها إلى الخارج إلى أن أصبحت الأقراص مُسطحة على جسم جراهام: واحدة في كل لوح كتف، واحدة في المرفقين، واحدة في الرقبة، وهكذا بحيث أصبح هناك أخيرًا - ربما- أربعون منهم على جسده وأطرافه. وفي الوقت نفسه، دخل شخص آخر إلى الغرفة قادمًا من المصعد، خلف جراهام. قام الترزي بتشغيل آلية، بدأت حركة إيقاعية خافتة الصوت لأجزاء من الجهاز، وفي اللحظة التالية أخذ الترزي يطرق العتلات وإطلاق سراح جراهام. استبدل الترزي عباءته السوداء، وعرض عليه الرجل ذو اللحية الكتانية كوبًا صغيرًا من سائل منعش. رأى جراهام من فوق حافة الزجاج شابًا شاحب الوجه يحدق نحوه بشكل غريب.

كان الرجل الغليظ يسير في الغرفة بقلق، ثم استدار وسار عبر الممر المقوس نحو الشرفة، حيث لا تزال ضوضاء الحشد البعيد تأتي في هبات وإيقاعات. سلّم الفتى حليق الرأس الترزي لفافة من الساتان المزرق، وبدأ الاثنان في تثبيتها في الآلية بطريقة تُدكّرنا بلفافة الورق في آلة طباعة من القرن التاسع عشر. ثم قاما بتحريك الجهاز كله على عجالاته السهلة بلا ضجيج عبر الغرفة إلى ركن بعيد، حيث يتدلى برشاقة سلك ملتوٍ من الجدار. قاما بربط السلك بالجهاز، فأصبح بعدها نشيطًا وسريعًا.

«ماذا يفعل هذا؟»، سأل جراهام، مشيرًا بكوب فارغ إلى الشخصيات
المنشغلة، مع محاولة تجاهل تحديق القادم الجديد، «هل هذا.. نوع من
القوة... أضيف؟».

«نعم»، أجاب الرجل ذو اللحية الكتانية.

«ومن هذا؟»، أشار إلى الممر خلفه.

داعب الرجل ذو الرداء الأرجواني لحيته الصغيرة، وتردد، ثم أجاب
بصوت خفيض: «إنه هاورد، الوصيُّ الرئيسُ عليك. يصعب الشرح قليلًا
يا سيدي. يتولى المجلس تعيين وصي ومساعدين. كانت هذه القاعة
عامة وإنما بموجب بعض القيود؛ لكي يشعر الناس بالرضى. وقد أغلقنا
المدخل لأول مرة. لكنني أعتقد -إذا كنت لا تمانع- أن أتركه يشرح لك
الأمر».

«يا للغرابة!»، قال جراهام، «الوصي؟ المجلس؟»، ثم أدار ظهره للوفد
الجديد وسأل بصوت خفيض: «لماذا يحدث هذا الرجل في وجهي؟ هل
هو ساحر؟».

- ساحر! إنه حلاق.

- حلاق!

- نعم، أحد أهمهم. أجره السنوي يبلغ ست دزينات من اللايونات.
بدا الكلام مجرد هراء. جذبت العبارة الأخيرة انتباه جراهام بعقل غير
مستقر، وردد: «ست دزينات من اللايونات».

- ألم يكن لديكم لايونات؟ لا أعتقد ذلك. هل كانت لديكم
الجنيهاات القديمة؟ اللايون هو وحدتنا النقدية.

- ولكن ماذا قلت ... ست دزينات؟!

- نعم، ست دزينات، يا سيدي. فهذه الأشياء البسيطة قد تغيرت أيضاً، بطبيعة الحال. أنت عشت في أيام النظام العشري، النظام العربي... العشرات، والقليل من المئات والآلاف. لدينا الآن أحد عشر رقمًا. لدينا أرقام فردية لكل من الـ ١٠ و ١١، ورقمان للدينية، ودينية.. الدينية تعادل اثنتي عشرة دينية، مائة بالمائة، كما تعرف، ودينية الاثنتي عشرة دينية تعادل دوزاند، ودوزاند.. الدوزاند يعادل عشرة آلاف. الأمر بسيط جدًا؟ «أعتقد ذلك»، قال جراهام، «ولكن، ماذا عن هذا الغطاء... ماذا كان؟».

ألقى الرجل ذو اللحية الكتانية نظرة سريعة من فوق كتفه.

قال: «ها هي ملابسك!». استدار جراهام بسرعة، ورأى الترزي يقف بالقرب من مرفقه مبتسمًا، ويحمل بعض الملابس الجديدة بوضوح على ذراعه. وكان الصبي حليق الرأس يدق جرسًا، ويدفع بالآلة المعقدة نحو المصعد الذي وصل به. تطلع جراهام إلى البدلة المكتملة. «أنت لا تعني أن تقول...!».

«صُنِعت للتو»، قال الترزي. وضع الملابس عند قدمي جراهام، وسار إلى السرير الذي كان جراهام مستلقيًا عليه مؤخرًا، وألقى المرتبة الشفافة، وفتح الزجاج. وفي أثناء ذلك، استدعى جرسٌ غاضبٌ الرجل الغليظ إلى الركن. هرع إليه الرجل ذو اللحية الكتانية، ثم أسرع خارجًا عبر الممر المقوس.

كان الترزي يساعد جراهام في ارتداء ثوب أرجواني داكن وجوارب

وسترة وسروال، عندما عاد الرجل الغليظ من الركن لمقابلة الرجل كتاني اللحية العائد من الشرفة. شرعا في حديث سريع بصوت خافت، وبطريقة لا لبس فيها من القلق. فوق الرداء الداخلي الأرجواني، جاء ثوب معقد لونه أبيض مائل إلى الزرقاء. وها هو جراهام يرتدي على نمط أزياء العصر ثانية. رأى أنه شاحب الوجه، وغير حليق، ولا يزال أشعث، لكنه على الأقل لم يُعد عاريًا، كما أنه رشيق بطريقة غير مسبقة يصعب تحديدها. «يجب أن أحلق»، قال جراهام وهو ينظر إلى نفسه في المرأة. «حالا»، قال هاورد.

توقف تحديقه المتواصل. أغلق الشاب عينيه ثم فتحهما بيد هزيلة ممدودة، وتقدم نحو جراهام. ثم توقف ويده تلمح ببطء، ونظر حوله. قال هاورد بصبر نافذ: «نحتاج إلى مقعد». وعلى الفور أحضر الرجل ذو اللحية الكتانية كرسيًا ووضع وراء جراهام. قال هاورد: «اجلس من فضلك».

تردد جراهام، ورأى في اليد الأخرى للرجل جامع العينين بريق الفولاذ.

«ألا تفهم يا سيدي؟»، صاح الرجل كتاني اللحية بأدب متعجل: «سيقص شعرك».

«أوووه!»، صاح جراهام بعد أن فهم: «لكنك قلت إنه...».

- حلاق... بالضبط! إنه أحد أفضل الفنانين في العالم.

جلس جراهام فجأة. واختفى الرجل ذو اللحية الكتانية. تقدم الحلاق وفحص أذني جراهام، وتحسس مؤخرة رأسه، وكان سيجلس مرة أخرى

لينظر نحوه لولا نفاد صبر هاورد المسموع. وعلى الفور، وبحركات سريعة وسلسلة من الأدوات التي يتعامل معها بمهارة، حلق ذقن جراهام، وقص شاربه، كما قص شعره ونظمه. قام بكل ذلك صامتًا، في جو شاعري مستوحى. وبعد أن انتهى، حصل جراهام على حذاء.

وفجأة صاح صوت عالٍ -بدا قادمًا من إحدى قطع الآلات في الركن- «على الفور... على الفور. الناس في جميع أنحاء المدينة يعرفون. لقد توقف العمل. توقف العمل. لا تنتظروا شيئًا، بل تعالوا».

ويبدو أن هذه الصرخة أزعجت هاورد كثيرًا. فمن خلال إيماءاته، بدا لجراهام أنه تردد بين اتجاهين. ذهب هاورد فجأة نحو الركن، حيث يلف الجهاز حول كرة كريستالية صغيرة. وفي أثناء ذلك، كان الصياح الصاخب في الممر -الذي استمر خلال كل تلك الأحداث- يرتفع إلى صوت هائل، زئير كأنما يمر مكتسحًا، ثم يهبط ثانية كأنما يتراجع بسرعة. انجذب جراهام نحوه بجاذبية يتعذر مقاومتها. نظر إلى الرجل الغليظ، ثم أطاع اندفاعه. وصل أسفل السلم ومنه إلى الممر في خطوتين، وفي اندفاعه خرج إلى الشرفة التي وقف عليها الرجال الثلاثة.



الفصل الخامس

الطرق المتحركة

ذهب إلى درابزين الشرفة ونظر إلى أعلى. ظهرت على وجهه علامات الاندهاش، وتحرك عدد من الناس قادمين من المساحة الكبيرة أدناه. أثارت العمالة الهائلة أول انطباعاته. كان المكان الذي ينظر إليه عبارة عن ممر يضم مباني عملاقة، وينحني متسعاً في اتجاهين. تناثرت الأعمدة العالية عبر هذا الاتساع الضخم، وحجبت زخرفة من مادة شفافة السماء. كشفت كرات عملاقة من الضوء الأبيض الهادئ أشعة الشمس الشاحبة التي تسربت من خلال العوارض والأسلاك. تناثرت هنا وهناك غلالة رقيقة كجسر مُعلق، يسير فوقه رُكاب مشاة يتدفقون عبر الفجوة، والهواء مكسو بشبكة من الأحبال الممشوقة. وعندما نظر إلى أعلى، رأى جرفاً عليه صرح ضخم، وكانت الواجهة المقابلة رمادية وقاتمة، تقطعها أقوس كبيرة، وثقوب دائرية، وشرفات، ودعامات، وأضواء برج، وعدد لا يُحصى من النوافذ الشاسعة، وتخطيط مُعقد لنحت معماري بارز. وتوجد بالعرض نقوش أفقية ومائلة، في حروف غير مألوفة. وثُبَّت هنا وهناك أحبال ذات متانة غريبة بالقرب السقف، تتدلى في منحنى حاد إلى فتحات دائرية

على الجانب الآخر من الفضاء. وعندما كان جراهام يتطلع إليها، لفت انتباهه هيئة نائية وضئيلة لرجل يرتدي ثوبًا باللون الأزرق الشاحب. يقع هذا الشخص الضئيل على مسافة بعيدة عبر الفضاء، بجانب أعلى تثبيت لأحد هذه الأحبال المتدلّية، مكان مُعلق إلى الأمام من حافة صغيرة للبناء ويتعامل مع بعض تلك الأحبال التي تكاد أن تكون غير مرئية ومعتمدة على خط الأحبال. ثم حدث فجأة ما جعل ضربات قلب جراهام تزداد بشدة؛ فقد هُرع هذا الرجل إلى أسفل المنحنى، واختفى في فتحة دائرية على أحد جانبي الطريق. كان جراهام ينظر إلى أعلى وهو يخرج إلى الشرفة، واستحوذت على انتباهه الأشياء التي رآها أعلاه وأمامه إلى حد استبعاد أي شيء آخر. ثم اكتشف الطريق فجأة! لم يكن طريقًا على الإطلاق على النحو الذي يفهمه جراهام؛ إذ كانت الطرق والشوارع في القرن التاسع عشر عبارة عن مسارات مطروقة على أرض ترابية ثابتة لا تتحرك، يتدافع فوقها نهر من المركبات بين ممرات المشاة الضيقة. على أن عرض هذا الطريق كان يبلغ ٣٠٠ قدم، ويتحرك؛ يتحرك كله ما عدا منطقه الوسط، وهي الجزء الأدنى. أبهرت الحركة عقله للحظات، ثم فهم. يتحرك هذا الطريق الاستثنائي بسرعة تحت الشرفة إلى يمين جراهام، يتدفق بلا نهاية مندفعًا مثل أسرع قطار في القرن التاسع عشر، منصة لانهاية لها من الألواح الضيقة المستعرضة المتداخلة، مع مساحات مشتركة صغيرة تتيح التكيف مع انحناءات الشارع. تتناثر فوقها مقاعد وأكشاك صغيرة، لكنها جميعًا تندفع بسرعة هائلة يصعب معها رؤية ما قد يوجد بداخلها. ومن هذه المنصة الأقرب والأسرع، تهبط سلسلة من المنصات الأخرى إلى وسط الفضاء. تتحرك كلُّ منها إلى اليمين، وإن كانت أبطأ بشكل ملحوظ من

المنصة التي تعلوها، على أن اختلاف السرعة كان ضئيلاً بما يكفي للسماح لأي شخص أن ينتقل من أي منصة إلى أخرى مجاورة، وبالتالي يمشي دون انقطاع من الطريق الأسرع إلى الطريق الأوسط غير المتحرك. وتوجد خلف هذا الطريق الأوسط سلسلة أخرى من المنصات اللانهائية، تندفع بسرعات متفاوتة إلى يسار جراهام. وهناك عدد لا يُحصى وشديد التنوع من الناس يجلسون في حشود على أوسع وأسرع منصتين، أو ينتقلون من منصة إلى أخرى بواسطة سلالم، أو يحتشدون فوق المنطقة المركزية.

وفجأة صاح هاورد بجانبه: «يجب ألا تقف هنا. عليك أن تتبعد في الحال».

جراهام لم يجب. سمع دون أن ينصت. تحركت المنصات هادئة والناس يصيحون. أخذ ينظر إلى النساء والفتيات ذوات الشعر المتدفق، في ملابسهم الجميلة، والشرائط تمتد على صدورهن. رأى ذلك بداية خلال تشوش ذهنه. ثم أدرك أن النغمة السائدة في مشهد الأزياء هذا هو اللون الأزرق الشاحب الذي كان يرتديه صبي الترتزي. كما أدرك الصيحات التي يسمعها: «النائم، ماذا حدث للنائم؟»، وبدا له كأنما المنصات المندفعة أمامه قد تناثرت عليها فجأة وجوه بشرية ذات مسحة صفراء شاحبة، وأعدادها في تزايد. رأى أصابع تشير إليه. أدرك أن المنطقة الوسطى غير المتحركة في هذا الممر الضخم، الذي يقع أمام الشرفة مباشرة، تزدهم بسكان يرتدون ملابس زرقاء. لقد دبت الحياة في صراع من نوع ما. يبدو أن الناس قد دُفعوا إلى المنصات المتحركة أعلاهم على الجانبين، ونُقلوا بعيداً على غير ما يرغبون. كانوا ينطلقون بمجرد أن يتجاوزوا خضم الارتباك، ويعودون إلى الصراع.

«إنه النائم. نعم، دون ريب، إنه النائم»، صاحت بعض الأصوات. بينما صاحت أصوات أخرى: «ليس هذا هو النائم أبدًا». تحولت المزيد والمزيد من الوجوه إليه. لاحظ جراهام وجود فتحات، حُفر، على مسافات على طول هذه المنطقة الوسطى؛ يبدو أنها بدايات السلالم التي يستخدمها الناس في الصعود والهبوط. وقد بدا الصراع متركزًا حول إحدى تلك الفتحات الأقرب إليه. كان الناس يركضون عبر المنصات المتحركة إلى هذه الفتحة، ويقفزون ببراعة من منصة إلى أخرى. كما كان اهتمام الأشخاص الذين يتجمعون على المنصات العليا ينقسم بين هذه النقطة والشفرة. رأى أيضًا عددًا من الشخصيات الصغيرة القوية يرتدون زياً موحدًا باللون الأحمر الزاهي، ويعملون معًا بشكل منظم، على ما يبدو مكلفين لمنع الوصول إلى سلم الهبوط هذا. كان الحشد يتجمع حولهم بسرعة. وكان لون ملابسهم الزاهي يتناقض بوضوح مع اللون الأزرق المائل للبياض لملابس خصومهم، ولم يكن هناك أي شك في نشوب نزاع.

رأى هذه الأشياء وهاورد يصيح في أذنه ويهز ذراعه. وفجأة اختفى هاورد ووجد نفسه يقف بمفرده.

لاحظ أن صيحات «النائم!» تتنامى، وأن الناس يقفون على المنصة الأقرب. كما لاحظ أن المنصة الأقرب على يمينه كانت فارغة، وأن المنصة التي تقع بعيدًا عبر الفضاء وتتحرك في الاتجاه المعاكس كانت تأتي مزدحمة وتمضي فارغة. وبسرعة مذهلة تجمع حشد كبير في الفضاء الأوسط أمام عينيه: كتلة كثيفة من الناس تتمايل، وصيحات تتصاعد من صرخات متقطعة إلى صخب ضخم متواصل: «النائم! النائم!»، وهتافات

وتهليل وتلويح بالملابس وصيحات «أوقفوا حركة الطرق!». وكانوا يصيحون أيضاً باسم آخر غريب لجراهم، بدا مثل «أوستروج». وسرعان ما أصبحت المنصات الأبطأ كثيفة بالناس النشطين، الذين يركضون ضد الحركة للحفاظ على وضعهم في مواجهته.

صاحوا: «أوقفوا حركة الطرق». ركضت شخصيات خفيفة الحركة من المنطقة الوسطى إلى أقرب طريق سريع له، حيث مر بهم الطريق بسرعة أمامه وهو يطلقون صيحات بأشياء غريبة وغير مفهومة، ثم تحرك الطريق مرة أخرى بشكل غير مباشر إلى الطريق الأوسط. وتمكن جراهم من تمييز شيء واحد، وهو صياحهم: «إنه بالفعل النائم، إنه بالفعل النائم». وقف جراهم فترة بلا حراك، ثم أدرك بوضوح أن كل هذا يتعلق به. أسعدته شعبيته الرائعة، فانحنى، ثم لوح بذراعه سعياً إلى إيماة لمسافة أبعد. وأدهشه عنف الضجة التي أثارها ذلك. وتصاعدت الاضطرابات عند سلم الهبوط إلى عنف صاخب. أصبح على بينة بالشرفات المزدحمة، والرجال الذين ينزلون على حبال، والرجال الذين يجلسون في مقاعد تشبه الأرجوحة يتمايلون في الفضاء. سمع أصواتاً خلفه لعدد من الناس يهبطون السلم عبر الممر. وأدرك فجأة أن حارسه هاورد عاد مرة أخرى، وأمسك ذراعه بشكل مؤلم، وصاح في أذنه بصوت خافت غير مسموع. استدار ورأى وجه هاورد شاحباً. سمعه يقول: «يجب أن ترجع. سيوقفون الطرق. وستصبح المدينة بأكملها في حالة من الارتباك».

رأى عددًا من الرجال يسرعون على طول ممر الأعمدة الزرقاء وراء هاورد: الرجل أحمر الشعر، والرجل كتاني اللحية، ورجل طويل يرتدي

ملابس أرجوانية زاهية، وحشد من رجال آخرين يرتدون ملابس حمراء ويحملون هراوات؛ ويبدو على وجوههم جميعاً الجزع والقلق.

صاح هاورد: «أبعدوه».

قال جراهام: «ولكن لماذا؟ لا أرى...».

«يجب أن تبعد!»، قال الرجل ذو الرداء الأحمر بصوت حازم. كان الحزم واضحاً أيضاً على وجهه وعينه. تنقلت نظرات جراهام من وجهه إلى وجهه، وشعر فجأة بأكثر شعور كرهه في الحياة: الإكراه. أمسك شخصٌ ذراعهُ...

كان يسحبه بعيداً. بدا الأمر كأنما أصبح الاضطراب اثنين فجأة، كما لو أن نصف الصيحات التي أتت من هذا الطريق الرائع قد انتشرت في ممرات المبنى الكبير خلفه. اندهش مرتبكاً، وانتابته رغبة عاجزة للمقاومة وهو نصف مُقاد ونصف مدفوع على طول ممر الأعمدة الزرقاء، وفجأة وجد نفسه وحيداً مع هاورد في مصعد يتحرك بسرعة إلى أعلى.



الفصل السادس

قاعة الأطلس

مرت بالكاد خمس دقائق من اللحظة التي انحنى فيها التريزي ليلقي تحية الوداع إلى اللحظة التي وجد فيها جراهام نفسه في المصعد. لا يزال ضباب فترة نومه الطويل يخيم عليه، ولا تزال الغرابة الأولية لوجوده حيًا أصلًا في هذا العصر البعيد تمس كل شيء بدهشة، في ظل شعور باللاعقلانية وشيء من نوعية الحلم الواقعي. لا يزال منفصلاً عن هذا الواقع، متفرجاً مندهشاً، هادئاً وإن كان لا يزال نصف مشارك في الحياة. ما شاهده - وبخاصة آخر الاضطرابات الحاشدة التي رآها من الشرفة - كانت منعطفاً مذهلاً؛ مثل شيء شاهده من مقصورة مسرح. قال: «أنا لا أفهم. ما المشكلة؟ عقلي يدور في دوامة. لماذا يصرخون؟ ما الخطر المحيق؟».

أجابه هاورد: «لدينا مشاكلنا». تجنببت عيناه سؤال جراهام، ثم أضاف: «هذه فترة اضطرابات. وترتبط - في واقع الأمر - بظهورك واستيقاظك الآن...».

كان يتحدث وهو يرتجف، كرجل تنفسه ليس منتظماً. ثم توقف فجأة.

«أنا لا أفهم»، قال جراهام.

قال هاورد: «ستتضح الأمور لاحقاً».

نظر إلى أعلى بقلق، كمن يجد تقدم المصعد بطيئاً.

قال جراهام في حيرة: «سأفهم بشكل أفضل -بلا شك- عندما أرى الطريق حولي قليلاً. أعتقد أن الوضع سيكون... لا بد أنه مُحير. كل شيء غريب جداً الآن. كل شيء يبدو ممكناً. أي شيء. حتى في التفاصيل. أفهم أن طريقتكم في الأعداد والحسابات مختلفة».

توقف المصعد. خرجوا إلى ممر ضيق، لكنه طويل جداً بين الجدران العالية، ويمتد على طوله عدد غير عادي من الأنابيب والأحبال الكبيرة. قال جراهام: «يا ضخامة هذا المكان! هل هذا كله مبنى واحد؟ ما هذا المكان؟».

- هذا أحد طرق المدينة للخدمات العامة المختلفة. الضوء، وما إلى ذلك.

- هل توجد مشكلة اجتماعية، هناك في موقع الطريق الكبير؟ ما نظام الحكم لديكم؟ هل الشرطة لا تزال موجودة؟
قال هاورد: «العديد».

- العديد؟

- حوالي أربعة عشر.

- لا أفهم.

- على الأرجح لا تفهم. ربما يبدو نظامنا الاجتماعي شديد التعقيد بالنسبة لك. وفي الحقيقة أنا نفسي لا أفهمه بوضوح. وما من أحد يفهمه أيضاً بوضوح. ربما ستفهمه تدريجياً. علينا الآن أن نذهب إلى المجلس. انقسم اهتمام جراهام بين الضرورة الملحة لتساؤلاته والناس في الممرات والقاعات التي يمرون بها. يتركز ذهنه للحظات على هاورد

والإجابات العرجاء التي أدلى بها، ثم يفقد الخيط رد فعل لانطباع عن شيء غير متوقع. على طول الممرات وفي القاعات، كان نصف الناس رجالاً يرتدون الزي الأحمر. لم تظهر الملابس ذات اللون الأزرق الشاحب، التي كانت كثيرة جداً في ممر الطرق المتحركة. ظل هؤلاء الرجال ينظرون إليه ويحيونه هو وهاورد أثناء مرورهما.

كانت رؤيته واضحة وهما يدخلان ممراً طويلاً، حيث تجلس عدد من الفتيات على مقاعد منخفضة، كما لو أنهن في فصل مدرسي. لم ير أيّ مُعلم، وإنما فقط جهاز جديد تخيل أن صوتاً ينطلق منه. تصور أن الفتيات ينظرن إليه وإلى قائده بفضول ودهشة. لكنه أسرع قبل أن يتمكن من تكوين فكرة واضحة عن هذا التجمع. وأعتقد أنهن يعرفن هاورد، ولا يعرفنه هو، ويتساءلن عن من يكون. يبدو أن هاورد كان شخصاً مهماً، لكنه كان أيضاً مجرد الوصي على جراهام. كان ذلك غريباً.

وصلا إلى ممر شبه معتم وبه ممشى مُعلق، فتمكن من رؤية أقدام وكواحل السائرين ذهاباً وإياباً، دون أن يرى أي شيء آخر. ثم انتابته انطباعات غامضة عن الأروقة والمارة العابرين مصادفة ومندهشين، الذين استداروا هم وحارسهم في زيه الأحمر لينظروا إليهما.

كان تأثير العقاقير المنشطة التي تناولها مؤقتاً فقط؛ إذ سرعان ما شعر بالتعب نتيجة هذه السرعة المفرطة. طلب من هاورد أن يبطئ سرعته. والآن، دخلا مصعداً به نافذة تطل على ساحة الشارع الكبير، لكن النافذة كانت مُغلقة بزجاج ولم تفتح، كما كانت مرتفعة جداً بالنسبة له لرؤية المنصات المتحركة أدناه. لكنه رأى الناس يتحركون جيئة وذهاباً على طول أحبال وجسور غريبة واهية المظهر.

وبعد ذلك عبر الشارع على ارتفاع شاسع فوقه، عن طريق جسر ضيق مُغلق بالزجاج، وشديد الوضوح بحيث جعله يشعر بالدوار حتى عندما يتذكره. كانت الأرضية زجاجية أيضًا. ومن واقع ذاكرته للمنحدرات بين بلدة نيوكيه وبوسكاسل، منذ فترة بعيدة جدًا زمنيًا وحديثة جدًا في تجربته، بدا له أن ارتفاعهما فوق الطرق المتحركة لا بد أن يقترب من أربعمئة قدم. توقف، ونظر إلى أسفل على الحشود المتراخمة في الملابس الزرقاء والحمراء، التي لا تزال تصارع وتشير نحو الشرفة الصغيرة في أسفل على مسافة بعيدة بحيث تبدو لعبة صغيرة، حيث كان يقف منذ فترة وجيزة. حجب ضباب رقيق ووهج كرات الضوء الجبارة كل شيء. ومن نقطة أعلى من الجسر الضيق الصغير، انطلق رجل كان يجلس في سلة شبكية صغيرة وهرع يهبط على حبل بسرعة شديدة كما لو كان يسقط. توقف جراهام لا إرادياً لمشاهدة هذا الراكب الغريب يختفي أذناه، ثم عادت عيناه ثانية إلى الصراع الصاخب.

اندفع حشد كثيف من النقاط الحمراء على طول أحد أسرع الطرق. تفرق الحشد منقسمًا إلى أفراد عندما اقترب من الشرفة، متجهين نحو الطرق الأبطأ في اتجاه الحشد الكثيف المكافح في المنطقة الوسطى. تبين أن الرجال الذين يرتدون ملابس حمراء مسلحون بالعصي أو الهراوات، وأخذوا يضربون ويدفعون. تفجرت صيحات هائلة وهتافات غاضبة وصرخات، لكنها وصلت إلى جراهام في الأعلى خافتة وضعيفة. صاح هاورد وهو يضع يديه عليه: «هيا».

وهُرع رجل آخر إلى أسفل باستخدام حبل. تطلع جراهام إلى أعلى فجأة ليرى من أين جاء، ورأى من خلال السقف الزجاجي وشبكة الأحبال

والعوارض أشكلاً معتمة تتحرك على نحو إيقاعي مثل دوارات طواحين الهواء، وتظهر بينها لمحات من سماء نائية وشاحبة. ثم دفعه هاورد إلى الأمام عبر الجسر، فوجد نفسه في ممر صغير ضيق مُزين برسوم هندسية. قاوم جراهام صائحاً: «أريد أن أرى المزيد».

صاح هاورد وهو لا يزال ممسكاً بذراعه: «لا، لا. من هذا الطريق. يجب أن تسلك هذا الطريق». وكان رجال الزي الأحمر يتبعونهما، وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامره.

ظهر في الممر بعض الرجال السود يرتدون زياً غريباً باللونين الأسود والأصفر يشبه الدبابير، وأسرع أحدهم لرفع مصراع منزلق، بدا لجراهام أنه باب، وقاد الطريق من خلاله. وجد جراهام نفسه في قاعة مُعلقة عند نهاية غرفة كبيرة. عبر الخادم بملابسه السوداء والصفراء، ودفع المصراع الثاني لأعلى ثم وقف منتظراً.

كان لهذا المكان مظهر غرفة انتظار. رأى عددًا من الناس في الفضاء الأوسط، ورأى عند الطرف الآخر مدخلًا كبيراً وفخمًا عند قمة درجات سلم، مغطى بستائر كثيفة وإن تمكن من أن يلمح خلالها قاعة أكبر وراءها. شاهد رجالاً بيض البشرة يرتدون ملابس حمراء، بينما يرتدي رجال سود آخرون ملابس باللونين الأسود والأصفر، ويقف جميعهم بصرامة حول تلك البوابات.

سمع خلال مرورهما عبر القاعة همساً من أسفل: «النائم»، وشاهد تحول الرؤوس نحوه، وهمهمة المراقبة. دخلاً ممراً صغيراً آخر في جدار غرفة الانتظار، ووجد نفسه فوق قاعة ذات قضبان حديدية من معدن يمتد حول جانب القاعة الكبرى التي كان قد رآها بالفعل من خلال الستائر.

دخل المكان من جانب الركن، بحيث يحصل على انطباع كامل عن أبعاده الضخمة. وقف الرجل الأسود الذي يرتدي زي الدبابير جانبًا، مثل خادم مدرب تدريبًا جيدًا، وأغلق المصراع خلفه.

مقارنة بأي من الأماكن التي رآها جراهام حتى الآن، كانت هذه القاعة الثانية مُزينة بثناء شديد. وعلى قاعدة في الطرف البعيد، ومُضاء ببراعة أكثر من أي شيء، يوجد تمثال أبيض عملاق لشخصية أطلس^(١١)، قوي ومُتعب، ويحمل العالم فوق كتفيه المنحنيين. كان التمثال أول ما لفت انتباهه؛ إذ كان ضخماً جداً، وبدا حقيقياً بأنأة وألم، لونه أبيض وبسيط للغاية. وباستثناء هذا التمثال ومنصة في الوسط، كانت أرضية المكان واسعة شاغرة ساطعة. وظهرت المنصة صغيرة وسط عظمة المساحة. كان يمكن أن تبدو مجرد لوح معدني لولا مجموعة الرجال السبعة الذين وقفوا حول طاولة على المنصة، وأعطت فكرة عن أبعادها. ارتدى جميعهم أرواباً بيضاء، ويبدو أنهم نهضوا من مقاعدهم في تلك اللحظة وهم يشبتون أنظارهم نحو جراهام. لاحظ بريق بعض الأجهزة الميكانيكية في نهاية الطاولة.

قاده هاورد عبر هذه القاعة الأخيرة، حتى أصبحا في مواجهة تمثال هذه الشخصية الكادحة القوية، ثم توقف. جاء الرجلان اللذان يرتديان ملابس حمراء وتبعاهما إلى القاعة، ووقف كل منهما على جانب إحدى يدي جراهام.

(١١) أطلس: إله معبود في الأساطير الإغريقية، يشتهر بحمله قبة السماء على كتفيه، وهو أحد الجبابرة الأقوياء فيما عرف بحرب الجبابرة، وعاقبه زيوس بعد نهاية الحرب بأن حكم عليه بحمل قبة السماء على كتفيه. «المترجمة».

غمغم هاورد: «يجب أن تبقى هنا لبضع لحظات». ودون انتظار الرد، ابتعد مُسرَّعًا عبر القاعة.

بدأ جراهام يسأله: «لكن، لماذا...؟».

تحرك كأنما ليتبع هاورد، لكنه وجد طريقه مسدودًا من جانب أحد الرجلين اللذين يرتديان الزي الأحمر، والذي قال له: «عليك أن تنتظر هنا، يا سيدي».

- لماذا؟

- إنها الأوامر، يا سيدي.

- أوامر مَنْ؟

- الأوامر التي لدينا، يا سيدي.

بدا السخط على وجه جراهام.

تساءل: «ما هذا المكان؟ وَمَنْ هؤلاء الرجال؟».

- إنهم لوردات المجلس، يا سيدي.

- أي مجلس؟

- المجلس.

«أوه!»، قال جراهام. وبعد محاولة مماثلة عقيمة مع الرجل الآخر، ذهب إلى الدرابزين لينظر إلى الرجال الذين يرتدون الأرواب البيضاء ويقفون على بُعد يراقبونه ويتهامسون.

المجلس! لاحظ أنهم الآن ثمانية أشخاص، لكنه لم يلحظ كيفية وصول الوافد الجديد. لم يقدموا أي إشارة تحية؛ بل وقفوا ينظرون إليه مثلما تقف مجموعة من رجال القرن التاسع عشر في الشارع لتتنظر إلى منطاد بعيد طاف فجأة أمامهم. أي مجلس هذا المُجتمع هناك، ذلك الكيان الضئيل من الرجال تحت الأطلس الأبيض المهم، منعزلًا عن كل متنصت

في هذه الرحابة المثيرة للإعجاب؟ ولماذا يجب إحضاره إليهم، لينظروا إليه بغرابة ويتحدثوا عنه بشكل غير مسموع؟ ظهر هاورد في أسفل، وهو يسرع على طول الأرضية المصقولة، متجهًا نحوهم. وعندما اقترب، انحنى وأدى بعض الحركات الغريبة، وعلى ما يبدو أنها ذات طبيعة رسمية. ثم صعد درجات سلم المنصة، ووقف بجانب الجهاز في نهاية الطاولة.

شاهد جراهام تلك المحادثة المرئية غير المسموعة. كان أحد الرجال الذين يرتدون الروب الأبيض ينظر إليه من حين إلى آخر. أرهق جراهام أذنيه دون جدوى. أصبحت إيماءة اثنين من المتحدثين مفعمة بالحيوية. أدار بصره عنهم، وحوله إلى وجوه مرافقيه السلبية... وعندما نظر نحوهم مرة أخرى، كان هاورد يمد يديه ويحرك رأسه بما يماثل رجلًا يحتاج. يبدو أن أحد رجال الروب الأبيض قاطعه، ضاربًا بيده على الطاولة.

استمرت المحادثة لفترة، شعر جراهام أنها بلا نهاية. ارتفعت عيناه إلى العملاق الساكن الذي يجلس المجلس عند قدميه، ثم انتقلت متجولة على جدران القاعة. كانت الجدران مزدانة بألواح طويلة تشبه الألواح اليابانية، والكثير منها جميل جدًا. تجمعت هذه الألواح في إطار كبير ومُتقن من معدن داكن، يمر عبر تماثيل معدنية لعذارى كاراواي^(١٢) في القاعة والخطوط الهيكلية الكبيرة في الداخل. عزز جمال ورشاقة هذه الألواح الجهد الأبيض الجبار الذي يشقى في وسط المنصة. عادت عينا جراهام إلى المجلس، حيث كان هاورد ينزل درجات السلم. ومع اقترابه، تمكن جراهام من تمييز ملامحه، وشاهد خديه متوهجين متفخين. كان وجهه لا يزال منزعجًا عندما ظهر الآن في القاعة.

(١٢) عذارى كاراواي (caryatidae): تماثيل لنساء قرية كاراواي في جنوب اليونان، تعمل كأعمدة تدعم صرحًا على رؤوسهن. «المترجمة».

قال بإيجاز: «من هذا الطريق»، ثم ذهب في صمت إلى باب صغير انفتح عند اقترابهما. وقف الرجلان في ملابسهما الحمراء على جانبي هذا الباب. دخل هاورد وجراهام. نظر جراهام خلفه، ورأى رجال المجلس في أروابهم البيضاء لا يزالون يقفون في مجموعة متقاربة وينظرون نحوه. ثم أغلق الباب خلفه بجلجلة شديدة، ولأول مرة منذ صحوته، ظل جراهام صامتًا. حتى الأرضية كانت صامتة تحت قدميه.

فتح هاورد بابًا آخر، ودخلا أول حجرة من حجرتين متجاورتين مفروشتين بالأبيض والأخضر. بدأ جراهام تساؤلته: «ما هذا المجلس؟ ماذا كانوا يناقشون؟ ما علاقتهم بي؟». أغلق هاورد الباب بعناية، وصدرت عنه نهيدة كبيرة، ثم قال شيئًا بصوت خفيض. سار مائلًا عبر الغرفة، ثم استدار ونفخ وجنتيه مرة أخرى. أصدر صوتًا كالنخير: «أف!»، واستراح. وقف جراهام ينظر إليه.

وفجأة بدأ هاورد في الحديث، متجنبًا عيني جراهام: «يجب أن تفهم أن نظامنا الاجتماعي مُعقد للغاية. أي تفسير غير مكتمل، أو عبارة غير دقيقة، ستعطيك انطباعات خاطئة. إنها، في واقع الأمر، مسألة فائدة مركبة جزئيًا؛ ثروتك الصغيرة، والثروة التي تركها لها ابن عمك وورمينج، ومبادرات أخرى معينة، قد أصبحت كبيرة جدًا. وبشكل يصعب عليك فهمه، أنت أصبحت شخصًا مهمًا، على درجة كبيرة من الأهمية، تشارك في شؤون العالم».

توقف عن الكلام.

سأله جراهام: «ماذا تعني؟».

- لدينا مشاكل اجتماعية خطيرة.

- ما هي؟

- لقد وصلت الأمور إلى حد يجعل من المستحسن -في الواقع- أن نعزلك هنا.

صاح جراهام: «أتبقونني سجيناً!».

- حسناً، نطلب منك أن تبقى في عزلة.

استدار جراهام قائلاً: «هذا غريب!».

- لن يلحق بك أي ضرر.

- لن يلحق بي ضرر!

- لكنك يجب أن تبقى هنا...

- إلى أن أعرف وضعي، كما أفترض.

- بالضبط.

- حسناً جداً إذن. فلنبداً. لماذا الضرر؟

- ليس الآن.

- ولم لا؟

- إنها قصة طويلة جداً يا سيدي.

- لأسباب كثيرة يجب أن أبدأ على الفور. أنت تقول إنني شخص

مُهم، ما كان ذلك الصباح الذي سمعته؟ لماذا كان حشد ضخم متحمس

يهتف لانتهاؤ غيبوتي؟ ومن هم الرجال في الأرواب البيضاء في قاعة

المجلس الضخمة؟

قال هاورد: «كل شيء في الوقت المناسب يا سيدي، ولكن ليس

بفضافة، ليس بفضافة. إنها فترة من تلك الفترات الواهية، عندما لا يوجد

لأي رجل عقل مستقر. لم يتوقع أحد صحتك. والمجلس يتشاور».

- أي مجلس؟

- المجلس الذي رأيته.

قام جراهام بحركة فظة، وقال: «هذا غير صحيح. يجب إخباري بما يحدث».

- يجب أن تنتظر. حقاً يجب أن تنتظر.

جلس جراهام فجأة، ثم قال: «أعتقد أنني ما دمت انتظرت طويلاً لأستأنف الحياة، يجب أن انتظر لفترة أطول قليلاً».

قال هاورد: «هذا أفضل. نعم، هذا أفضل بكثير. يجب أن أتركك وشأنك. لفترة من الوقت. بينما أحضر المناقشة في المجلس... أنا آسف». توجه إلى الباب البعيد عن الضوضاء، تردد، واختفى.

سار جراهام إلى الباب وحاول فتحه. وجده مُغلقاً بإحكام بطريقة لم يتمكن أبداً من فهمها. استدّار، وأخذ يسير في الغرفة قلقاً، لف الغرفة كلها، ثم جلس. ظل جالساً لبعض الوقت، وذراعه متشابكان، وحاجباه معقودان، ويقضم أظافر أصابعه، ويحاول تجميع الانطباعات المختلفة لهذه الساعة الأولى من حياته بعد استيقاظه: المساحات الميكانيكية الشاسعة، سلسلة الغرف والممرات اللانهائية، هدير الكفاح العظيم وانتشاره خلال هذه الطرق الغريبة، تلك المجموعة البعيدة الصغيرة من الرجال غير المتعاطفين تحت الأطلس الهائل، سلوك هاورد الغامض. دارت في ذهنه أفكار عن ميراث هائل يتسم بالأهمية والفرص غير المسبوقة، ميراث هائل ربما أُسيء استخدامه. ماذا يجب أن يفعل؟ وكان أبلغ تعبير عن السجن هو صمت هذه الغرفة المعزولة!

تبادر إلى ذهن جراهام اقتناع شديد الإغراء، أن هذه السلسلة من الانطباعات الهائلة كانت حلمًا. حاول أن يغلق عينيه ونجح، لكن تلك الإرادة القوية لم تؤدّ إلى أي صحة من الحلم.

بدأ الآن يلمس ويفحص جميع التجهيزات غير المألوفة في الغرفتين الصغيرتين اللتين وجد نفسه فيهما.

رأى نفسه في مرآة بيضاوية طويلة، ووقف مندهشًا. كان يرتدي ملابس أنيقة باللونين الأرجواني والأبيض المزرق، وله لحية رمادية صغيرة مشدبة، أما شعره الأسود الذي انتشرت فيه خُصل رمادية، فقد كان مُرتبًا على جبهته بطريقة غير مألوفة وإن كانت لطيفة. بدا كرجل ربما في الخامسة والأربعين من عمره. وللحظة لم يدرك أن هذا هو نفسه.

وعندما أدرك، اتابته ضحكة خاطفة. صاح: «لا بد من استدعاء وورمينج العجوز ليراني هكذا! وأجعله يأخذني إلى الخارج لتناول طعام الغداء!».

ثم فكر في لقاء واحد ثم آخر من عدد قليل من معارفه القلائل خلال فترة مبكرة من سن الرجولة. وفي وسط هذا التفكير المبهج، أدرك أن كل شخص عرفه ومزح معه قد توفي منذ سنوات عديدة. صدمته هذه الفكرة فجأة وبشدة؛ كف عن الكلام، وتغيرت تعبيرات وجهه إلى ذعر شاحب.

أعادت الذاكرة المضطربة للمنصات المتحركة، والحشد الضخم في ذلك الشارع الهائل، تأكيد نفسها. عادت الجموع الصارخة واضحة وحية، فضلًا عن أولئك المستشارين البعيدين، غير المسموعين، وغير الودودين، الذين يرتدون أروابًا بيضاء. شعر أنه كائن ضئيل، صغير جدًا وغير فعال، ومثير للشفقة. وكل شيء حوله، العالم حوله، كان غريبًا.

الفصل السابع

في الغرف الصّامتة

استأنف جراهام الآن فحص شقتيه. ساعده الفضول على الحركة، على الرغم من تعبهِ. نظر إلى الغرفة الداخلية ووجدَها عالية، ويتخذ سقّفها شكل القبة مع فتحة مستطيلة في المنتصف، تنتهي بقمع تدور داخله عجلة ذات دوارات عريضة، يبدو أنها تدفع الهواء إلى أعلى القمع. كان الطنين الخافت لحركتها البسيطة هو الصوت الواضح الوحيد في ذلك المكان الهادئ. ومع حركة هذه الدوارات واحدة تلو الأخرى، تمكن جراهام من مشاهدة لمحات عابرة من السماء. وتفاجأ برؤية نجم.

ولفت هذا انتباهه إلى أن الإضاءة الساطعة في الغرفتين ترجع إلى العديد من المصابيح الخافتة حول الأفاريز. كانت الغرفتان بلا نوافذ. ثم بدأ يتذكر أنه لم يرَ أي نوافذ على الإطلاق على طول جميع الغرف والممرات الشاسعة التي اجتازها مع هاورد. هل كانت هناك نوافذ؟ كانت توجد نوافذ بالفعل في الشارع، ولكن هل كانت للإضاءة؟ أم أن المدينة بأكملها كانت مضاءة ليلاً ونهاراً على الدوام، بحيث لا يوجد ليل؟

لفت انتباهه شيء آخر، وهو عدم وجود مدفأة في أي من الغرفتين. هل الآن فصل الصيف، أم أنهما شقتان صيفيتان فقط، أم أن المدينة بأكملها ذات تدفئة أو تبريد موحد؟ أصبح مهتمًا بهذه التساؤلات، وبدأ في فحص ملمس الجدران الناعم، والسرير المُشيد ببساطة، والترتيبات المبتكرة التي أدت عمليًا إلى الاستغناء عن عمالة خدمة غرفة النوم. وفوق كل شيء، هناك غياب غير عادي للزخرفة الجدران، وإنما مجرد جدران عارية وأنيقة من حيث الشكل واللون، بما يبعث على راحة العينين. هناك أيضًا العديد من الكراسي المريحة، وطاوله خفيفة تتحرك على بكرات صامته، وتحمل عددًا من الزجاجات المليئة بسوائل، وأكوابًا، وطبقين بهما مادة شفافة مثل الجيلي. ثم لاحظ عدم وجود أي كتب أو صحف أو مواد للكتابة. فقال: «لقد تغير العالم بالفعل».

لاحظ أن جانبًا كاملاً من الغرفة الخارجية يضم صفوفًا من أسطوانات مزدوجة غريبة، منقوشة بأحرف خضراء على سطح أبيض لتنسجم مع مخطط الغرفة الزخرفي. ويبرز في وسط هذا الجانب جهاز صغير تبلغ مساحته حوالي ياردة مربعة، وتتجه مقدمته البيضاء الملساء نحو الغرفة، وأمامه كرسي. طافت بذهنه فكرة وقتية بأن هذه الأسطوانات قد تكون كُتبًا، أو بديلًا حديثًا للكتب، وإن لم تعط هذا الانطباع في البداية. أثارت الحروف المنقوشة على الأسطوانات حيرته. بدت للوهلة الأولى كأنها روسية. ثم لاحظ ما يوحي بلغة إنجليزية مشوهة حول بعض الكلمات.

رأى العبارة التالية بإنجليزية مشوهة: «Thi Man huwdbi Kin»،

وعند قراءتها فرضت نفسها عليه كالتالي: «The Man who would be King»؛ أي «الرجل الذي سيكون ملكًا».

قال: «تهجئة صوتية». تذكر قراءة قصة بهذا العنوان، ثم تذكر القصة بوضوح، وهي واحدة من أفضل القصص في العالم. لكن هذا الشيء الذي أمامه لم يكن كتابًا بالمعنى الذي يفهمه. أثار حيرته عنوانان لأسطوانتين متجاورتين. فلم يسمع بهما من قبل: «قلب الظلام» و«مادونا المستقبل». إذا كانا عنوانين لقصتين بالفعل، فلا شك أنهما لكاتبين من عصر بعد العصر الفيكتوري.

ظل متحيرًا لفترة أمام هذه الأسطوانة الغريبة، ثم تركها، والتفت ليفحص الجهاز المربع. فتح غطاء من نوع ما، ووجد في الداخل أسطوانة مزدوجة. كما وجد عند الحافة العليا زرًا صغيرًا مثل زر الجرس الكهربائي. ضغط عليه، فبدأ نقرًا سريعًا ثم توقف. أدرك صدور أصوات وموسيقى، ولاحظ تلاعبًا بالألوان على السطح الأمامي الأملس. وفجأة استوعب الأمر، وخطا للخلف كي يشاهد.

ظهرت على السطح المستوي الآن صورة صغيرة زاهية الألوان، وفي هذه الصورة توجد الشخصيات التي تتحرك. لم يقتصر الأمر على تحركهم، بل كانوا يتحدثون بأصوات خفيفة واضحة. بدا الأمر تمامًا مثلما ترى الواقع من خلال منظار كالمستخدم في الأوبرا لكنه مقلوب، وتسمعه من خلال أنبوب طويل. استحوذ الموقف على اهتمامه فورًا، حيث شاهد رجلًا يتحرك جيئةً وذهابًا ويطلق صياحًا بكلمات غاضبة لامرأة جميلة لكنها مشاكسة. كان كلاهما يرتدي زيًا خلابًا، بدا شديد الغرابة لجراهام. قال الرجل: «لقد أنهيت عملي. وأنتِ ماذا كنتِ تفعلين؟».

قال جراهام: «أهااا!». نسي كل شيء آخر، وجلس على الكرسي. وفي غضون خمس دقائق سمع اسمه يُقال، سمع عبارة «عندما يستيقظ النائم» تُستخدم بمزاح كقول مأثور على تأجيل شيء، شيء مؤجل يصعب تصديقه. لكنه سرعان ما تمكن من معرفة أن هذين الشخصين صديقان حميمان.

وصلت الدراما المصغرة إلى نهايتها أخيرًا، وعاد سطح الجهاز المربع فارغًا مرة أخرى.

كان عالمًا غريبًا أتاح له مشاهدة عالم خفي ونشط، عديم الضمير ويبحث عن المتعة، فضلًا عن أنه عالم يُموج أيضًا بصراع اقتصادي رهيب. هناك تلميحات لم يفهمها، أحداث نقلت إحياءات غريبة لمُثل أخلاقية متغيرة، ومضات من تنوير مريب. القماش الأزرق الذي تراكم إلى حد كبير في انطباعه الأول لطرق المدينة، قد تكرر ظهوره كزي عام للناس. لم يكن لديه شك في أن القصة معاصرة، ويصعب إنكار واقعيتها الشديدة. وجاءت النهاية مأساة أزعجته. جلس يحرق في الفراغ.

فرك عينيه. لقد استغرقت الرواية بديلاً عن يومه السابق، وأنه استيقظ في غرفة صغيرة باللونين الأخضر والأبيض والعديد من لمسات مفاجأة صحوته الأولى.

وقف، وفجأة عاد إلى بلاد العجائب. انتهت دراما الكيتوسكوب، وعاد إلى ذاكرته ذلك الصراع الذي شاهده في أماكن الشوارع الشاسعة، والمجلس الغامض، وسرعة مراحل وقت استيقاظه. لقد تقدم أعضاء

المجلس باقتراحات تحمل طابعًا غامضًا لعالمية السلطة. تحدثوا عن
النائم. لم يفكر جيدًا فيما قالوه حينذاك؛ لأنه كان النائم. عليه أن يتذكر
بالضبط ما قالوه...

دخل إلى غرفة النوم وتطلع إلى سرعة فترات فواصل المروحة
الدوارة. ومع دوران المروحة، حدث اضطراب خافت مثل ضوضاء آلية
بإيقاع الدوامات. وكان الصمت يلف كل شيء آخر. على الرغم من أن
النهار الدائم أبدًا لا يزال يشرق في مقر سكنه، فقد لاحظ أن شريطًا متقطعًا
قليلاً من السماء قد اتخذ الآن اللون الأزرق الغامق، الأسود تقريبًا، مع
غبار من عدد قليل من النجوم...

استأنف فحص الغرفتين. لم يجد أي طريقة لفتح الباب المُبطن: لا
جرس، ولا وسائل أخرى لاستدعاء مرافقيه. توقف شعوره بالدهشة؛ لكنه
كان فضوليًا، متلهفًا للحصول على معلومات. أراد أن يعرف بالضبط كيف
واجه هذه الأشياء الجديدة. حاول تشجيع نفسه على الانتظار حتى يأتيه أي
شخص. لكنه أصبح الآن قلقًا ومتلهفًا للمعلومات، للحيرة، للأحاسيس
الجديدة.

عاد إلى الجهاز في الغرفة الأخرى، وسرعان ما استبدت به الحيرة
حول كيفية استبدال الأسطوانات بغيرها. تبادر إلى ذهنه عندئذ أن هذه
الأجهزة الصغيرة لا بد أنها عالجت اللغة بحيث تظل واضحة ومفهومة
بعد مائتي عام. أصدرت الأسطوانات العشوائية التي استبدلها فانتازيا
موسيقية. كانت جميلة في البداية، ثم أصبحت حسية. ثم أدرك ما تصور

أنه نسخة معدلة من قصة تانهاوزر^(١٣). لم تكن الموسيقى مألوفة. لكن طريقة العزف كانت واقعية، وغير مألوفة من حيث المعاصرة. لم يذهب تانهاوزر إلى فينوسبيرج، وإنما إلى مدينة المتعة. ما مدينة المتعة؟ حلم، بالتأكيد، نزوة كاتب حسي رائع.

أصبح مهتمًا وفضوليًا. تطورت القصة بنكهة عاطفية متشابكة بشكل غريب. وفجأة لم يعجبه ذلك. ومع استمرارها، قل إعجابه بها.

أحس بنفور شعوري. لم تكن هذه صورًا ولا مثاليات، بل حقائق مصورة. لم يكن يريد المزيد من فينوسبيرج القرن الثاني والعشرين. نسي الدور الذي لعبه النموذج في فن القرن التاسع عشر، وأفسح المجال لسخط عفا عليه الزمن. نهض غاضبًا وخجلًا من نفسه؛ لأنه شهد هذا الشيء حتى وهو في عزلة. جذب الجهاز إلى الأمام، وسعى بعنف إلى وسيلة لوقفه. فرقع شيء. انطلقت شرارة بنفسجية لسعت ذراعه وهزته، وصمت الجهاز. وعندما حاول في اليوم التالي تغيير أسطوانات تانهاوزر وتشغيل غيرها، وجد الجهاز مكسورًا...

تحرك في الغرفة جيئةً وذهابًا في مسار مائل، وهو يكافح انطباعات واسعة غير مُحتمَلة. تضاربت الأشياء التي استمدتها من الأسطوانات والأشياء التي رآها، وأربكته. أما الشيء الأكثر إدهاشًا خلال الثلاثين عامًا من حياته، فهو أنه لم يحاول أبدًا تشكيل صورة لهذه العصور المقبلة. قال:

(١٣) تانهاوزر (Tannhäuser): أوبرا تانهاوزر للموسيقار الألماني العالمي ريتشارد فاغنر. تجسد الأوبرا مجموعة من الأساطير الألمانية في العصور الوسطى حول الفارس الشاعر تانهاوزر ورحلته إلى جبل فينوسبورج. «الترجمة».

«نحن نصنع المستقبل، وبالكاد ما ينزعج أيُّ منا عند التفكير في المستقبل الذي نصنعه. وها هو!».

«ما الذي وصلوا إليه، وماذا فعلوا؟ كيف يمكنني الدخول وسط هذا كله؟»، اتساع الشارع والمنزل اللذين كان متأهبًا لهما، وحشود الناس. ولكن، نزاعات في طرق المدينة! والحسبة الممنهجة لدى طبقة الرجال الأغنياء!

فكّر في بيلامي^(١٤) وروايته عن اليوتوبيا الاشتراكية، حيث توقع البطل بشكل غريب هذه التجربة الفعلية. لكن هنا لا توجد يوتوبيا، ولا دولة اشتراكية. لقد رأى ما يكفي بالفعل ليدرك أن التناقض القديم بين الترف والإهدار والشهوانية من ناحية والفقر المدقع من ناحية أخرى، لا يزال سائدًا. كان يعرف العوامل الأساسية للحياة التي تكفي لفهم هذا الارتباط. لم يقتصر الأمر على مبانٍ عملاقة في المدينة وحشود عملاقة في الشارع، وإنما كانت الأصوات التي سمعها بالطرق، وعدم ارتياح هاورد، والجو ذاته، يثير استياءً هائلًا. في أي بلد كان؟ يبدو أنها لا تزال إنجلترا، لكن الغريب هو اللغة «غير الإنجليزية». تجول عقله في بقية العالم، ولم يرَ إلا حجابًا غامضًا.

ظل يطوف في شقته ويفحص كل شيء، كما قد يفعل حيوان محبوس في قفص. كان مُتعبًا للغاية، ويشعر بإرهاق محموم لا يعترف بالراحة. استمر لفترة طويلة أسفل المروحة في محاولة لالتقاط أي صدًى بعيد للاضطرابات التي شعر أنها لا بد تحدث في المدينة.

(١٤) إدوارد بيلامي (Edward Bellamy): كاتب وروائي أمريكي اشتراكي (١٨٥٠-١٨٩٨).
«الترجمة».

بدأ يتحدث مع نفسه: «مائتان وثلاث سنوات!»، قال لنفسه مرارًا وتكرارًا، وهو يضحك بغباء. «إذن أنا عمري الآن ٢٣٣ سنة! أكبر السُّكَّان سنًا. فمن المؤكد أنهم لم يعكسوا اتجاه عصرنا وعادوا إلى حكم الأقدمين. لا جدال في ادعاءاتي. أخذ يتمتم. أتذكر الفظائع البلغارية كما لو كانت بالأمس. «يا له من عصر عظيم! هاها!». فُوجئ في البداية بسماع نفسه يضحك، ثم ضحك مرة أخرى عن عمد وبصوت أعلى. ثم أدرك أنه يتصرف بحماقة. قال: «يجب أن أهدأ، أهدأ!».

زاد انتظام خطواته. قال: «لا أفهم هذا العالم الجديد. لماذا؟ لكن كل شيء هو لماذا؟».

ثم أضاف: «أعتقد أنهم يستطيعون الطيران والقيام بكل أنواع الأشياء. سأحاول أن أتذكر كيف بدأ الأمر».

فُوجئ في البداية عندما اكتشف مدى ضبابية ذكريات سنواته الثلاثين الأولى. تذكر نبذات، في معظمها لحظات تافهة، وملاحظته لأشياء ليس لها أهمية كبيرة. بدا أن فترة صباه أكثر سهولة في تذكرها بداية؛ إذ تذكر الكتب المدرسية وبعض الدروس في القياس. ثم أعاد إحياء أبرز ملامح حياته، وذكريات زوجته التي ماتت منذ فترة طويلة وظل تأثيرها السحري باقيًا، ومنافسيه وأصدقائه ومن خانوه، والقرارات التي اتخذها في موضوع أو آخر، ثم سنواته الأخيرة التي شابها البؤس والقرارات المتقلبة، وأخيرًا دراسته المضنية. أدرك بعد فترة قصيرة أنه يتذكر كل شيء ثانية؛ ربما بشكل ضعيف، مثل المعدن الذي تتركه لفترة طويلة، لكنه لا يعطب أو يصيبه الضرر بأي حال، ويمكن إعادة تلميعه. أصابه ذلك بمسحة من

بؤس عميق. هل كان يستحق إعادة التلميع؟ لقد تم انتشاله بمعجزة من حياة أصبحت لا تُطاق...

عاد إلى حالته؛ بعد أن تصارع عبثاً مع الحقائق. تعقد تشابك الأمور. ومن خلال المروحة، رأى السماء وردية مع بزوغ الفجر. انطلق اعتقاد قديم من الخبايا المظلمة لذاكرته؛ قال: «يجب أن أنام». بدا ذلك بمثابة تخفيف لطيف من هذه المحنة العقلية، والألم المتزايد، وتناقل أطرافه. ذهب إلى السرير الصغير الغريب، وتمدد، والآن نام...

كان مُقدِّراً له أن يألّف هاتين الشقتين ويعرفهما تماماً قبل أن يغادرهما؛ إذ ظل حبيساً فيهما لثلاثة أيام. لم يدخل الغرفتين أي شخص طوال ذلك الوقت باستثناء هاورد. اختلّطت أعجوبة مصيره مع أعجوبة بقاءه على قيد الحياة، وقللت منها بطريقة أو بأخرى. لقد استيقظ كرجل يبدو مُختطفاً في هذه العزلة التي يتعذر تفسيرها. كان هاورد يأتيه بانتظام ليّمده بسوائل مُغذية وأطعمة خفيفة وممتعة، غريبة تماماً بالنسبة له. وكان يغلق الباب بعناية دائماً بعد دخوله. كان لطيفاً على نحو متزايد حول الموضوعات التفصيلية، لكنه لم يوضح تأثير جراحام على القضايا الكبرى التي كان من الواضح أنها محل نزاع شديد خلف الجدران العازلة للصوت التي أحاطت به. كان يتهرب -بأدب قدر الإمكان- من أي سؤال عن حالة الأوضاع في العالم الخارجي.

اتسعت وتمددت أفكار جراحام المستمرة خلال تلك الأيام الثلاثة. انشغل ذهنه بكل ما رآه، وكل هذه الوسائل المتقنة لمنعه من الرؤية. فكّر في كل تفسير ممكن لوضعه؛ حتى لو صادف أنه التفسير الصحيح.

وبحكم هذه العزلة، أصبح أخيرًا يصدق الأشياء التي حدثت له. وعندما حانت لحظة إطلاق سراحه، وجدته مستعدًا.

أدت طريقة حمل هاورد إلى تعميق انطباع جراهام عن أهميته الغريبة؛ فالباب بين فتحه وإغلاقه يمنحه لحظات تؤكد حدثًا بالغ الأهمية. أصبحت تساؤلاته أكثر تحديدًا واستفسارًا. وهنا يتراجع هاورد عبر الاحتجاج والتحدث عن وجود صعوبات. كان هاورد يكرر أن الصحوة لم تكن متوقعة؛ وتصادف أنها حدثت في نفس فترة حدوث اضطراب اجتماعي. احتج هاورد قائلاً: «لشرح الأمر، يجب أن أسرد لك تاريخ اثنتي عشرة دزينة ونصف من الأعوام».

قال جراهام: «المسألة هي أنكم تخشون من شيء سأفعله. بطريقة ما أنا مُحَكَّم، قد أكون مُحَكَّمًا».

- ليست المسألة هكذا. القدر الذي يمكنني إبلاغك به هو أن ممتلكاتك زادت تلقائيًا، بما يضع بين يديك إمكانيات كبيرة للتدخل. ومن ناحية أخرى لديك تأثير، في ظل مفاهيم القرن الثامن عشر التي لديك.

قال جراهام مُصَحِّحًا: «القرن التاسع عشر».

- على كلٍّ، مع مفاهيمك المرتبطة بعالمك القديم، أنت تجهل كل سمة من سمات دولتنا.

- وهل أنا أحمق؟

- بالتأكيد لا.

- هل أبدو من ذلك النوع من الرجال الذي يتصرف بتهور؟

- لم يكن من المتوقع أن تتصرف على الإطلاق؛ فلم يعول أحد على صحتك. لم يحلم أحد أنك ستستيقظ أساسًا. لقد أحاطك المجلس بظروف مُطَهَّرة. وفي واقع الأمر، كنا نظن أنك ميت، مجرد قيد الاضمحلال. و... لكن الوضع معقد للغاية. نحن لا نجرؤ فجأة... بينما لا تزال نصف مستيقظ.

قال جراهام: «هذا لن ينجح. لنفترض أن الوضع كما تقول، لماذا لا تغمرونني ليلاً ونهاراً بالحقائق والتحذيرات وحكمة هذا الزمان لتجهيزي لمسؤولياتي؟ هل أنا أكثر حكمة الآن مما كنت عليه قبل يومين، إذا كانا يومين، عندما استيقظت؟».

جذب هاورد شفته.

- بدأت أشعر - وكل ساعة بوضوح أكبر - بنظام الإخفاء الذي أنت وجهه. هل هذا المجلس، أو اللجنة، أو أيًا ما كان، يتلاعب بحسابات ممتلكاتي؟ هل هذه هي المسألة؟

قال هاورد: «هذه نبذة شك».

«أف!»، قال جراهام، «والآن، سجّل كلماتي، سيكون الأمر سيئًا على مَنْ وضعوني هنا. سيكون سيئًا. أنا لا أزال حيًا. لا شك في ذلك، أنا لا أزال حيًا. نبضي يزداد قوة كل يوم، وعقلي يزداد وضوحًا ونشاطًا. لا مزيد من السكون. أنا رجل عُدت إلى الحياة. وأريد أن أعيش...».

- تعيش!

أضاء وجه هاورد بفكرة. اقترب من جراهام وتحدث بنبذة بسيطة توحى بالسرية.

- المجلس يعزلك هنا لمصلحتك. أنت قلق. بطبيعة الحال... أنت رجل نشيط! وتجد الوضع هنا مملاً. لكننا حريصون على توفير كل ما قد ترغب فيه، كل رغبة، أي نوع من الرغبة... ربما هناك شيء. هل رفقة من أي نوع؟

توقف بصورة ذات مغزى.

قال جراهام بتمعن: «نعم، هناك شيء».

- آها! عرفت الآن! لقد أهملنا في معاملتك.

- الحشود في شوارعكم هناك.

قال هاورد: «هذا... أخشى... لكن...».

بدأ جراهام يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. وقف هاورد بالقرب من الباب يرقبه. لم يكن التلميح في اقتراح هاورد واضحاً تماماً لجراهام. رفقة؟ لنفترض أنه قَبْلَ الاقتراح، وطالب برفقة ما؟ هل يمكن أن يوجد أي احتمال أن أجمع من الحديث مع هذا الشخص الإضافي أي معلومات عامة عن النزاع الذي اندلع بشكل واضح لحظة استيقاظه؟ عاد لتأملاته، وتلاشى الاقتراح. استدار نحو هاورد فجأة.

سأله: «ماذا تقصد بالرفقة؟».

رفع هاورد عينيه وهز كتفيه، ثم قال مع ابتسامة فضولية على وجهه الضخم: «أقصد البشر. تتمتع أفكارنا الاجتماعية بقدر معين من الحرية المتزايدة، ربما مقارنة بعصرك. وإذا رغبت رجل في تخفيف مثل هذا الملل، بالاستعانة بالمجتمع الأنثوي مثلاً. ونحن لا نعتقد أنه عيب، فقد أخلينا أذهاننا من هذه الصيغ. توجد في مدينتنا فئة، فئة ضرورية، لم تُعد مُحْتَقَرَةً... ولا سرية».

وقف جراهام دون حراك.

قال هاورد: «ستساعد على تمضية الوقت. هذا شيء ربما كان ينبغي أن أفكر فيه من قبل. لكن، في واقع الأمر، يحدث الكثير...».

وهنا ألمح إلى العالم الخارجي.

تردد جراهام. سيطرت على ذهنه للحظة شخصية امرأة محتملة تتمتع بجاذبية شديدة، ثم اشتعل غضبه.

صاح: «لا!!».

بدأ يذرع الغرفة بسرعة جيئة وذهاباً: «كل ما تقوله، كل ما تفعله، يقنعني... يقنعني بوجود قضية كبيرة تتعلق بي. أنا لا أريد تمضية الوقت، كما أسميت أنت الاقتراح. نعم، أعرف. الرغبة والمتعة هما الحياة، بمعنى من المعاني... والموت! الانقراض! طوال حياتي، وقبل أن تحدث قصة نومي، كنت أفكر في هذه المسألة المثيرة للشفقة. لن أبدأ من جديد. توجد مدينة، وحشود... وفي الوقت نفسه، أنا محبوس هنا مثل أرنب في كيس».

تصاعد غضبه. اختنقت كلماته للحظة، وبدأ يلوح بقبضتيه المشدودتين. ترك نفسه لنوبة غضب، وتفوه بلعنات قديمة، عفا عليها الزمن. كما كانت إيماءاته من ذلك النوع الذي يوحي بتهديدات جسدية. - لا أعرف من هي مجموعتك. أنا في الظلام، وأنت تبقيني في الظلام. لكنني أعرف أنني منعزل هنا دون أي سبب وجيه. دون أي سبب وجيه. وأنا أحذرك، أحذرك من العواقب. وما إن أستعيد قوتي... أدرك جراهام أن التهديد بهذه الطريقة قد يُشكل خطراً على نفسه.

كف عن الكلام، وقف هاورد ينظر إليه بتعبير غريب، ثم قال: «سأنقل هذه الرسالة إلى المجلس».

شعر جراهام بدافع لحظي للقفز على الرجل، أو إسقاطه، أو ضربه. ولا بد أن شعوره ظهر على وجهه. على أي حال، كانت حركة هاورد سريعة. ففي ثانية واحدة كان الباب البعيد عن الضوضاء قد أُغلق مرة أخرى، وأصبح رجل القرن التاسع عشر بمفرده.

وقف جامدًا للحظات، وقبضتا يديه مرفوعتان قليلًا. ثم أنزلهما قائلاً: «يا لي من أحق». تملكه الغضب مرة أخرى، وأخذ يتحرك في الغرفة ضاربًا الأرض بقدميه ومُطلقًا اللعنات... استمر لفترة طويلة في حالة من الجنون، غاضبًا من موقفه، من حماقته، من المخادعين الذين سجنوه. كان الموقف الذي اتخذه يرجع إلى عدم رغبته في التمعن بهدوء في وضعه. تشبث بغضبه؛ لأنه كان خائفًا من الخوف.

وجد نفسه الآن يتحدث مع نفسه. ما من تبرير لهذا السجن. لكن دون شك أن الأطر القانونية - الأطر القانونية الجديدة - لهذا الزمن تبيحه. يجب أن يكون قانونيًا بطبيعة الحال. فقد أمضى هؤلاء الناس مائتي عام في مسيرة الحضارة بعد الجيل الفيكتوري. وليس من المحتمل أن يكونوا أقل إنسانية. ومع ذلك أخلوا عقولهم من الصيغ! هل كانت الإنسانية صيغة وكذلك عفة؟

بدأ خياله يفكر فيما يمكن أن يفعلوه به. كانت محاولات تفكيره للتخلص من هذه التصورات غير مجدية على الإطلاق، على الرغم من أن معظمها صحيح منطقيًا. «لماذا يجب فعل أي شيء لي؟».

وجد نفسه يقول أخيرًا: «إذا حدث ما هو أسوأ من الأسوأ، يمكنني التخلي عما يريدون. لكن، ماذا يريدون؟ ولماذا لا يطلبونه مني بدلًا من حبسي؟».

عاد إلى انشغاله السابق بنوايا المجلس المحتملة. وبدأ يعيد التفكير في تفاصيل سلوك هاورد؛ نظراته الشريرة، وتردده الذي يصعب تفسيره. ثم دارت في ذهنه لفترة فكرة الهروب من هاتين الغرفتين. لكن، إلى أين يمكنه الهرب في هذا العالم الشاسع المزدحم؟ سيكون أسوأ حالًا من يومن^(١٥) ساكسوني الذي وجد نفسه فجأة في لندن القرن التاسع عشر. علاوة على ذلك، كيف يمكن لأي شخص الهروب من هاتين الغرفتين؟ «ماذا يستفيد أي شخص إذا تعرضت لأذى؟».

فكّر في الاضطرابات التي حدثت، والمشكلة الاجتماعية الكبيرة التي كان هو محورها بشكل غير مُبرّر. تبادرت إلى ذهنه آية من الكتاب المقدس، غير ذات صلة تمامًا، لكنها ظلت بإصرار غريب تطفو في الظلام وتصل إلى ذاكرته. وقد قالها المجلس أيضًا: [خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فِدَى الشَّعْبِ].



(١٥) اليومن (Yeoman): تسمية كان تُطلق على التابع، أو الموظف في منازل النبلاء، أو صغار الملاك، أو الفلاحين في مزارع الإقطاعيين في أواخر العصور الوسطى في إنجلترا. «المتروحة».

الفصل الثامن

مساحات الأسطح

عندما تدور المراوح في الفتحة الدائرية للغرفة الداخلية وتتيح رؤية بعض لمحات من الليل، تنجرف الأصوات الخافتة إلى الداخل. وقف جراهام تحت الفتحة، وانتابه ذهول لسماع صوت شخص.

نظر إلى أعلى ورأى بين الدوّارات -خلال دورانها- وجه رجل وكتفيه وسط الظلام والعممة والرجل ينظر إليه. امتدت يد داكنة، لكن إحدى الدوّارات السريعة صدمتها، فتأرجحت وتمكنت من التغلب على تلك الدوّارة بالاستعانة برقعة قماشية بُنية صغيرة على حافة نصلها الرفيع، وبدأ شيء ما يتساقط على الأرض، يقطر بصمت.

نظر جراهام إلى أسفل، ورأى بقع دم عند قدميه. نظر ثانية إلى أعلى في انفعال غريب. لكن الشخص اختفى.

ظل بلا حراك... وكل حواسه مركزة على رقعة الظلام الوامضة. أصبح على بينة من بعض البقع الخافتة البعيدة المظلمة، التي تطفو بخفة عبر الهواء الخارجي. هبطت إليه بشكل دائري متقطع، ومرت خلال دورات المروحة. ومض برق من الضوء، ومضت البقع البيضاء، ثم حل

الظلام مرة أخرى. شعر بدفء وضوءٍ، ورأى الثلج يتساقط على مسافة بضع أقدام منه.

سار جراهام في الغرفة ثم عاد ثانية إلى مروحة التهوية. رأى رأس رجل يمر بالقرب منه. سمع صوت همس، ثم ضربة قوية على مادة معدنية، ثم جهد مبذول، وأصوات أشخاص، ثم توقفت ريشات المروحة. تطايرت عاصفة من رقاقات الثلج في الغرفة، وتلاشت قبل أن تلمس الأرضية. قال صوت: «لا تخف».

وقف جراهام تحت المروحة، وهمس: «مَن أنت؟».

لم يكن هناك أي شيء للحظات سوى تمايل المروحة، ثم دفع رجل رأسه بحذر خلال الفتحة. ظهر وجهه مقلوبًا لجراهام، وكان شعره الداكن مبللًا بذوبان رقائق الثلج عليه. تحركت ذراعه في الظلام وهي ممسكة شيئًا غير مرئي. كان وجهه شاحبًا وعيناه ساطعتين، وعروق جبهته منتفخة. يبدو أنه يبذل قصارى جهده للحفاظ على وضعه.

لعدة ثوانٍ لم يتحدث هو ولا جراهام.

وأخيرًا قال الغريب: «أنت كنت النائم؟».

أجابه جراهام: «نعم، ماذا تريد مني؟».

- أنا جئت من عند أوستروج يا سيدي.

- أوستروج؟

أدار الرجل في المروحة رأسه بحيث أصبح وجهه في اتجاه جراهام. أصغى السمع. وفجأة صدرت صيحة سريعة، وقفز الدخيل في الوقت المناسب إلى الخلف هربًا من اكتساح المروحة التي تحركت. وعندما

نظر جراهام إلى أعلى لم يكن هناك شيء مرئي إلا الثلج المتساقط ببطء.
مرت -ربما- ربع ساعة قبل أن يعود أي شيء إلى مروحة التهوية.
ثم أخيرًا تكرر التدخل المعدني نفسه، وتوقفت الريشات وظهر الوجه مرة
أخرى. ظل جراهام طوال ذلك الوقت في مكانه، يقظًا ومنفعلاً بشدة.
قال: «مَن أنت؟ وماذا تريد؟».

قال الدخيل: «نريد أن نتحدث إليك، يا سيدي. نريد... لا يمكنني
الاحتفاظ بالشيء. كنا نحاول إيجاد طريقة للوصول إليك... طوال هذه
الأيام الثلاثة».

سأله جراهام هامسًا: «هل هي عملية إنقاذ؟ هروب؟».

- نعم، يا سيدي. إذا أردت.

- هل أنت من فريقتي... فريق النائم؟

- نعم، سيدي.

قال جراهام: «ماذا يجب أن أفعل؟».

يبدو أن قتلاً حدث؛ فقد ظهرت ذراع الغريب، وكانت يده تنزف.
وظهرت ركبتاه على حافة القُمع. قال: «قف بعيدًا عني»، ثم قفز بقوة على
يديه وكتف واحدة عند قدمي جراهام. انطلقت المروحة تدور بصخب.
تدحرج الغريب، ونهض بخفة. وقف يلهث ويده على كتفه المصابة
بكدمات، وعيناه اللامعتان على جراهام.

قال: «أنت النائم بالفعل. رأيتك وأنت نائم، عندما كان القانون يسمح
لأي شخص أن يراك».

قال جراهام: «أنا الرجل الذي كان في غيبوبة. لقد سجنوني هنا. أنا
هنا منذ أن استيقظت... ثلاثة أيام على الأقل».

كان الدخيل على وشك الكلام عندما سمع شيئاً. ألقى نظرة سريعة على الباب، وفجأة ابتعد عن جراهام وركض نحو الباب وهو يصيح بكلمات سريعة غير متماسكة. ومض وتد فولاذي لامع في يده، وبدأ يدق ويدق، سلسلة سريعة من الضربات على المفصلات. «انتبه!»، صاح صوت. «أوه!»، جاء الصوت من أعلى.

نظر جراهام إلى أعلى، ورأى باطن قدمين لشخصين منحنيين. سقط أحدهما مصطدماً بكتفه، ودفعه وزنه الثقيل على الأرض. وقع على ركبتيه في اتجاه الأمام، وسقط الوزن فوق رأسه. ركع، ورأى رجلاً ثانياً من أعلى جالساً أمامه.

قال الرجل لاهثاً: «لم أرك يا سيدي». نهض وساعد جراهام على النهوض. قال لاهثاً: «هل تأذيت يا سيدي؟». بدأت سلسلة من الضربات الثقيلة على المروحة. سقط شيء بالقرب من وجه جراهام. تراقصت حافة معدنية بيضاء مرتعشة، وسقطت على الأرض.

«ما هذا؟»، صاح جراهام مرتبكاً وهو ينظر إلى المروحة. «مَن أنت؟ ماذا ستفعل؟ تذكر، أنا لا أفهم شيئاً».

قال الغريب: «تراجع»، وجذبه من تحت المروحة مع سقوط شظية معدنية أخرى بشدة.

«نريدك أن تأتي يا سيدي»، لهث الوافد الجديد. ألقى جراهام نظرة خاطفة على وجهه مرة أخرى، ورأى جرحاً حديثاً على جبهته وقد تغير لونه من الأبيض إلى الأحمر، وتنهمر منه بعض قطرات قليلة من الدماء: «شعبك يدعوك».

- آتي إلى أين؟ شعبي؟

«إلى القاعة حول الأسواق. حياتك هنا في خطر. لدينا جواسيس، وعرفنا في الوقت المناسب. لقد قرر المجلس -اليوم تحديدًا- إما تخديرك وإما قتلك. وكل شيء جاهز. الناس مُدَرَّبون. معنا أيضًا شرطة دَوَّارات الرياح، والمهندسون، ونصف عمَّال الطرق. القاعات مزدحمة... تهتف. المدينة كلها تهتف ضد المجلس. ولدينا أسلحة»، مسح الدماء بيده، «حياتك هنا لا تستحق...».

- لكن، لماذا الأسلحة؟

- لقد نهض الناس لحمايتك يا سيدي. ماذا؟

استدار بسرعة، حيث أصدر أول رجل نزل هسهسة بأسنانه. رأى جراهام هذا الأخير يتراجع، ويومئ لهم كي يخفوا أنفسهم، والتحرك كأنما للاختباء وراء باب الفتحة.

وعندئذٍ ظهر هاورد حاملاً صينية صغيرة في إحدى يديه، ووجهه الضخم حزين. دخل، نظر إلى أعلى، أغلق الباب خلفه بعنف، مالت الصينية جانبًا، وأتته ضربه خلف أذنه من الوند الفولاذي. سقط مثل شجرة مقطوعة، وتمدد وهو يسقط على أرضية الغرفة الخارجية. أسرع الرجل الذي ضربه بالانحناء عليه متفحصًا وجهه للحظة، ثم نهض وعاد إلى عمله عند الباب.

قال صوت في أذن جراهام: «هذا هو السُّم المُجهز لك!».

أصبحوا فجأة في ظلام، حيث أطفأت أضواء الأفريز التي لا تُعد ولا تُحصى. رأى جراهام فتحة مروحة التهوية وثلوجًا شبحية تدور فوقها،

وشخصيات معتمدة تتحرك على عجل. ركع ثلاثة على الريشة. بدأ إنزال شيء داكن -سُلم- من خلال الفتحة، وظهرت يد تحمل ضوءاً أصفر متقطعاً.

تردد للحظة. لكن أسلوب هؤلاء الرجال، وحيويتهم السريعة، وكلماتهم، كانت تتسق تماماً ومخاوفه إزاء المجلس، وفكرته وأمله في الإنقاذ؛ فلم يدم ترده لأكثر من لحظة. كما أن شعبه ينتظره! قال: «أنا لا أفهم، لكنني أثق بكم. أخبروني ماذا أفعل».

أمسك الرجل ذو الحاجب المقطوع بذراع جراهام، وهمس: «تسلق السلم. أسرع. ربما سمعوا...».

مد جراهام يديه ليتحسس السلم، ووضع قدمه على الدرجة السفلى. أدار رأسه، ورأى في مبيض الضوء الأصفر من فوق كتف أقرب رجل، الوافد الأول منفرج الساقين فوق هاورد ولا يزال يعمل عند الباب. التفت جراهام إلى السلم مرة أخرى، ودفعه الرجل لمساعدته، وساعده الأشخاص الموجودون في أعلى. وجد نفسه يقف على شيء صلب وبارد وزلق خارج قمع التهوية.

ارتجف. كان يدرك الاختلاف الكبير في درجة الحرارة. وقفت نصف دزينة من الرجال حوله، مست رقائق الثلج الخفيفة الأيدي والوجوه ثم ذابت. ساد الظلام للحظة، ثم انطلق وميض أبيض بنفسجي مروع، وبعدها غمر الظلام كل شيء مرة أخرى.

رأى أنه خرج على سطح مبنى المدينة الشاسع، الذي حل محل المنازل والشوارع والمساحات المفتوحة المتنوعة في لندن الفيكتورية.

كان المكان الذي وقف عليه مستويًا، مع أحبال أفعوانية ضخمة تمتد في جميع الاتجاهات. لاحت في الأفق العجلات الدائرية لعدد من طواحين الهواء، باهتة وعملاقة، خلال الظلام وتساقط الثلوج، وأصدرت زئيرًا عاليًا يختلف ارتفاعه بارتفاع وانخفاض الرياح المتقطعة. وعلى مسافة بعيدة نوعًا ما، انبعث من أسفل ضوء أبيض متقطع، لامس دوامات الثلج ببريق عابر، وأحدث خلال الليل شبعاً سريع الزوال. وهنا وهناك -على مستوى منخفض- ومضت بشرارات ساطعة بعض الخطوط العريضة المبهمة لآليات تدفعها الرياح.

أدرك ذلك كله جزئيًا، بينما يحيط به الرجال الذين أنقذوه. ألقى شخص عليه عباءة ناعمة سميقة من نسيج يشبه الفراء، وربطها بأشرطة مشدودة عند الخصر والكتفين. قيلت أشياء بإيجاز وحسم. ودفعه شخص إلى الأمام.

وقبل أن يُصَفِّي ذهنه، أمسك شكل داكن بذراعه. «من هذا الطريق»، قالها الشخص وحته على الماضي قُدَمًا. أشار إلى جراهام بالتحرك عبر السطح المستوي في اتجاه ضباب نصف دائري خافت الضوء. أطاعه جراهام.

«خذ حذرك!»، قال صوت عندما تعثر جراهام في حبل. ثم أضاف الصوت: «سر بينهم وليس عبرهم. يجب أن نسرع».

سأله جراهام: «أين الناس؟ الناس الذين قلتهم ينتظرونني؟». الغريب لم يرد. ترك ذراع جراهام مع ضيق الطريق، وقاد المسار بخطوات سريعة. تبعه جراهام بشكل أعمى. وفي غضون دقيقة، وجد

نفسه يركض. سأل لاهثًا: «هل الآخرون قادمون؟»، لكنه لم يتلقَ أي رد. نظر رفيقه إلى الوراء وركض. وصلا إلى مسار من الأشغال المعدنية المفتوحة، في اتجاه مستعرَض بالنسبة للاتجاه الذي جاءوا منه، والتفا جانبًا للمتابعة فيه. نظر جراهام إلى الوراء، لكن العاصفة الثلجية أخفت الآخرين.

«هيا!»، قال مرشده. يركضان الآن، واقتربا من طاحونة هوائية صغيرة تدور عاليًا في الهواء. «هنا منحدر»، قال مرشد جراهام، وتجنبنا مجموعة لا نهاية لها من المراوح التي تدور وتزأر وصولًا إلى أعلى عمود الريشة. «من هذا الطريق!»، وسارا في مزارب كامل من الثلوج الذائبة المنجرفة وصل إلى كواحلهما، بين جدارين معدنيين منخفضين وصل ارتفاعهما الآن إلى خصريهما. قال الدليل: «سأذهب أولاً. لف جراهام عباءته حوله وتبعه. وفجأة ظهرت هاوية ضيقة، دخل بعدها المزارب في ظلام ثلجي على الجانب الآخر. اختلس جراهام نظرة على الجانب، ورأى الهاوية سوداء. شعر بالندم للحظة على رحلته. لم يجرؤ على النظر مرة أخرى، ودار رأسه وهو يخوض في ثلج نصف سائل.

خرجوا من المزارب، تسلقا وأسرعوا على طول مساحة مسطحة واسعة رطبة نتيجة لذوبان الثلوج، نصفها شبه شفاف ثم أضواء تتحرك جيئة وذهابًا في أسفل. تردد تجاه هذه المادة غير مستقرة المظهر، لكن دليله ركض دون حذر. وهكذا وصلا إلى درجات زلقة، تسلقاها إلى حافة قبة زجاجية كبيرة، وسارا حولها. بدا أن عددًا من الناس يرقصون في الأسفل، حيث تسربت الموسيقى خلال القبة... تخيل جراهام أنه سمع صراخًا أثناء العاصفة الثلجية، لكن دليله حثه على الإسراع بدفعة جديدة للتسرع.

تسلقنا لاهتين إلى مساحة من طواحين الهواء الضخمة، كانت إحداها كبيرة جدًا إلى حد أن الحافة السفلية فقط من ريشاتها ظهرت للعيان بسرعة، ثم اندفعت مرة أخرى واختفت في الليل والثلوج. أسرعنا لفترة عبر الزخرفة المعدنية الهائلة لدعاماتها، ووصلنا أخيرًا فوق موضع المنصات المتحركة، مثل الموضع الذي كان جراهام ينظر إليه من الشرفة. زحفا عبر الأرضية الشفافة المنحدرة التي غطت شارع المنصات هذا. زحفا على اليدين والركبتين بسبب الانزلاق الناتج عن تساقط الثلوج.

كان الجزء الأكبر من الزجاج رطبًا، ولم يرَ جراهام إلا ما يوحى بأشكال ضبابية أدناه، لكن الزجاج كان صافيًا بالقرب من أرضية السطح الشفاف، ووجد نفسه ينظر إلى أسفل فقط على كل شيء. وعلى الرغم من إلحاح دليله، استسلم فترة للدوخة ورقد باسطًا ذراعيه ورجليه على الزجاج، مريضًا عاجزًا عن الحركة. وعلى مسافة بعيدة في أسفل بكثير، كان سكان المدينة غير النائمة يتحركون كنقاط وبقع ضئيلة نشطة في نهارهم الدائم، والمنصات المتحركة تمضي في رحلتها المستمرة. وكان المبعوثون والرجال في أعمال غير معروفة يركضون على طول الأحبال المتدلية، كما كانت الجسور الضعيفة مزدحمة بالبشر. كان الأمر أشبه بالنظر إلى خلية نحل زجاجية عملاقة، تقع عموديًا تحته عن طريق مجرد زجاج قوي سُمكه غير معروف ليحميه من السقوط. ظهر الشارع دافئًا ومضاءً، وكان جراهام مبللًا - بما في ذلك بشرته - بسبب ذوبان الثلج، وقدماه مخدرتين بالبرد. ظل لفترة غير قادر على التحرك. «هيا!»، صاح دليله برعب في صوته، «هيا!».

وصل جراهام إلى أرضية السطح بعد جهد.

استدار فوق الجسر، متبعًا لدليله، وانزلق بسرعة كبيرة إلى الخلف أسفل المنحدر المقابل، وسط انهيار ثلجي صغير. فكر خلال انزلاقه في ما يمكن أن يحدث إذا ظهرت فجوة مكسورة في طريقه. تعثر حتى كاحل قدميه بعمق في طين عند الحافة، وشكر السماء على موطئ قدمه المعتم مرة أخرى. أما دليله، فقد تسلق بالفعل أعلى شاشة معدنية إلى مساحة مستوية ممتدة.

من فوق فائض رقاقات الثلج، يلوح في الأفق خط آخر من طواحين الهواء العملاقة، وفجأة صدر صوت يصم الأذان مُخترقًا الضجة الشديدة التي تُصدرها العجلات الدوارة. كان صريرًا آليًا شديدًا بشكل غير عادي، ينطلق من كل نقطة في المنطقة في وقت واحد.

«لقد فقدوا أثرنا بالفعل!»، صاح دليل جراهام بنبرة مرتعبة. وفجأة، بومضة تعمي البصر، أصبح الليل نهارًا.

وفوق الثلوج المندفعة من قمم عجلات الرياح، ظهر عدد من الصواري الهائلة تحمل كرات من الضوء الساطع. ثم تراجعت في آفاق لا نهائية في كل اتجاه وكان وهجها مرئيًا، بقدر ما يمكن لعينه اختراق تساقط الثلوج.

صاح دليل جراهام: «في هذا الاتجاه»، ودفعه إلى الأمام نحو شبكة معدنية طويلة بلا ثلوج، تمتد كشريط بين مساحتين منحدرتين قليلًا من الثلوج. شعرت أقدام جراهام المُخَدَّرَة بالدفع، وتصاعدت منها دوامة بخار خافتة.

«هيا!»، صاح الدليل على مسافة عشر ياردات. ودون انتظار، أسرع

راكضاً عبر الوهج الساطع، نحو الدعامات الحديدية لمجموعة عجلات الرياح التالية. جراهام، بعد أن تعافى من دهشته، أسرع في إثره، مقتنعاً بأسره الوشيك...

أصبحا -في غضون ثوان- داخل زخارف من الظلال المتوهجة والسوداء، تخترقها قضبان متحركة أسفل العجلات الهائلة. ركض دليل جراهام لفترة، ثم اندفع جانباً فجأة واختفى داخل ظل أسود في زاوية سفح دعامه ضخمة. وفي اللحظة التالية، كان جراهام بجانبه.

جثم الاثنان وهما يلهثان ويحدقان.

كان المشهد الذي نظر إليه جراهام قفراً وغريباً للغاية. توقفت الثلوج تقريباً الآن؛ مجرد رقاقة ثلجية متأخرة تمر بين الحين والآخر خلال المشهد. بيد أن الامتداد الواسع للمستوى أمامهم كان أبيض مروعاً، لا تشقه إلا كتل عملاقة وأشكال متحركة وشرائط طويلة من الظلام الذي يتعذر اختراقه، جبابرة الظل البشعة الهائلة. كان كل شيء حولهم عبارة عن هياكل معدنية ضخمة، وعوارض حديدية بدت هائلة على نحو لا إنساني ومتشابكة، وحواف عجلات الرياح -التي بالكاد ما تتحرك في فترة الهدوء المؤقت- وهي تمر في منحنيات برّاقة كبيرة أكثر حدةً وانحداراً ثم ترتفع في ضباب مضيء. وعند انخفاض الضوء المتلائي بالثلوج، كانت العوارض والأحزمة المستمرة التي تعمل بدقة لا تُقهر تتحرك صعوداً وهبوطاً في السواد. ومع كل هذا النشاط الجبار، وشعور كلي بالدافع والعزيمة، بدت هذه الآلات الكثيفة المكسوة بالثلوج خالية من أي وجود بشري باستثنائهم، وكأنها غير مطروقة ومهجورة وغير مألوفة للناس، مثل

حقول الثلج التي يتعذر الوصول إليها في جبال الألب.

صاح الدليل: «سيطاردوننا. نحن بالكاد في منتصف الطريق الآن. وبسبب هذا البرد الشديد، يجب أن نختبئ هنا لفترة؛ على الأقل حتى تتساقط الثلوج ثانية بكثافة أكبر».

اصطكت أسنانه.

سأل جراهام وهو يحرق حوله: «أين الأسواق؟ أين الناس جميعاً؟». لم يجب الآخر.

«انظر!»، همس جراهام، واقترب جاثماً وأصبح ساكناً تماماً.

أصبحت الثلوج فجأة سميكة مرة أخرى. ومع انزلاقها خلال الدوامات الدائرية من الحفرة السوداء في السماء، جاء شيء غامض وكبير وسريع جداً. هبط على منحني حاد وانجرف دائرياً، ثم امتدت أجنحة واسعة وخلفها ذيل من البخار الأبيض المكثف، ارتفع بسرعة هادئة منزلقاً إلى أعلى في الهواء، ثم انجرف أفقياً إلى الأمام في منحني واسع، وتلاشى مرة أخرى في أجزاء الثلج المتطايرة. رأى جراهام -عبر أضلاع جسم هذا الشيء- رجلين صغيرين يتسمان بشدة الضآلة والنشاط، ويبحثان في المناطق الثلجية المحيطة به باستخدام منظارين ميدانيين كما تصور. شاهدهما بوضوح لثانية، ثم على نحو ضبابي عبر دوامة ثلجية كثيفة، ثم أصبحا صغيرين وبعيدين، وبعد دقيقة اختفيا.

صاح رفيقه: «الآن! هيا!».

سحب كُم جراهام، وأخذ الاثنان يركضان بسرعة أسفل ممر الأشغال الحديدية تحت عجلات الرياح. اصطدم جراهام -الذي كان يركض

بشكل أعمى - بدليله، الذي استدار نحوه فجأة. وجد نفسه على بُعد ١٢ ياردة من هوة سوداء، تمتد يمينًا ويسارًا بقدر ما يستطيع أن يرى. وكانت تقطع تقدمهم في أي من الاتجاهين.

همس دليله: «افعل كما أفعل». استلقى وزحف إلى الحافة، ودفع رأسه ولفه حتى يتدلى أحد ساقيه. تحسس شيئًا بقدمه، وجدته، وبدأ ينزلق على الحافة إلى الهاوية. ظهر رأسه مرة أخرى. همس: «إنها حافة. سنمضي في الظلام على طول الطريق. افعل ما فعلت».

تردد جراهام، وانخفض على أربع. زحف إلى الحافة، وأطل إلى السواد المخملي. ظل للحظة بائسة فاقداً الشجاعة، سواء للتقدم أو التراجع، ثم جلس وأنزل ساقه إلى أسفل. شعر بيدي دليله تسحبه. ومع إحساس فظيع بالانزلاق على الحافة إلى هوة غامضة، ورذاذ يتناثر حوله، شعر أنه في مزارب موحل، وظلام يتعذر اختراقه.

«من هذا الطريق»، همس الصوت، وبدأ يزحف على طول المزارب خلال الجليد المتساقط، وهو يضغط نفسه على الجدار. استمر على طول هذا الطريق لبضع دقائق. شعر أنه يمر عبر مائة مرحلة من البؤس، يمر دقيقة بعد دقيقة خلال مائة درجة من البرودة، والرطوبة، والإرهاق. وبعد فترة قصيرة لم يعد يشعر بيديه وقدميه.

كان المزارب ينحدر إلى أسفل. لاحظ أنهما الآن على عمق أقدام عديدة تحت حافة المباني. ارتفعت فوقها صفوف من أشكال بيضاء طيفية مثل أشباح النوافذ المغلقة بستائر. وصلا إلى نهاية حبل مُثبت فوق إحدى هذه النوافذ البيضاء، مرئي وسط العتمة ويسقط في ظلال لا يمكن

اخترقها. اصطدمت يده فجأة بدليله. «ابق ساكنًا!»، همس دليله بهدوء شديد.

نظر إلى أعلى ورأى الأجنحة الضخمة لآلة طائرة تنزلق ببطء وبلا ضوضاء فوق الشريط العريض للسماء الرمادية الزرقاء المرقطة بالثلوج؛ ثم اختفت الآلة ثانية خلال لحظات.

- ابق ساكنًا؛ كانوا يستديرون فقط.

ظلاً بلا حراك لفترة، ثم وقف رفيق جراهام وذهب إلى مشابك الجبل، لكنه تعثر في بكرة لم تكن واضحة.
«ما هذا؟»، سأل جراهام.

الإجابة الوحيدة كانت صرخة خافتة. جثم الرجل بلا حراك. نظر جراهام ورأى وجهه شاحبًا. أخذ يحدق أسفل شريط السماء الطويل. وعندما تابع جراهام عينيه، رأى آلة طيران صغيرة وباهتة وبعيدة. ثم رآها تفرد أجنحتها على الجانبين، وأنها تتجه نحوهما وتبدو أكبر حجمًا كلما زاد اقترابها. كانت تتبع حافة الهوة تجاههما.

أصبحت حركات الرجل متشنجة. دفع قضيبين متقاطعين إلى يد جراهام، لكن جراهام لم يتمكن من رؤيتهما وإنما تأكد من شكلهما بتحسسهما. كانا مُعلقين بالجبل عن طريق أسلاك رفيعة. توجد على الجبل مقابض يدوية من مادة مرنة ناعمة. «ضع القضيبين المتقاطعين بين ساقيك»، همس الدليل بشكل هستيري، «وأمسك الصمامات بإحكام. أمسكها بإحكام. أحكم قبضتك عليها!».

فعل جراهام ما قيل له.

قال الصوت: «اقفز. باسم السماء، اقفز!».

لم يستطع جراهام أن يتكلم لثانية واحدة حرجة. كان سعيداً بعد ذلك أن الظلام أخفى وجهه. لم يقل شيئاً. بدأ يرتجف بعنف. نظر جانباً إلى الظل السريع الذي ابتلع السماء، مندفعاً نحوه.

«اقفز! اقفز... بحق السماء! أو سيمسكون بنا»، صرخ دليل جراهام. وفي عنف انفعاله، دفعه إلى الأمام.

ترنح جراهام متشنجاً، أطلق صيحة منتحبة صدرت رغماً عنه. وعندما اجتاحتها الآلة الطائرة، سقط إلى الأمام في حفرة ذلك الظلام، وجلس على القضيبيين الخشبيين المتقاطعين ممسكاً بالحبال بقبضة الموت. تصدع شيء، ارتطم شيء بالحائط في براعة. سمع بكرة القضيبيين تطن على حبلها. وسمع الطيارين يصيحون. شعر بركبتين تدفعان ظهره... كان يندفع بتهور خلال الهواء ويسقط فيه. كانت قوته كلها بين يديه. كان ليصرخ، لكن احتباس أنفاسه لم يسعفه.

انطلق خلال ضوء يعمي الأبصار، جعل قبضته أكثر إحكاماً. تمكن من تمييز الممر الكبير بطرقاته المختلفة، وأضوائه المعلقة، وعوارضه المتشابكة. اندفعا صاعدين نحوه. انتابه انطباع لحظي بوجود فم مستدير كبير يفتح متائباً لا ابتلاعه.

أصبح في الظلام مرة أخرى، يسقط، يسقط، تزداد قبضة يديه المتألمتين، ويراقب! صوت تصفيق، ضوء شديد مبهر، وجد نفسه في قاعة ساطعة الإضاءة تضم حشدًا هائلاً من الناس تحت قدميه. الناس! شعبه! خشبة مسرح، خشبة مسرح تندفع نحوه، وانجرف الحبل الذي يمسك به

إلى فتحة دائرية على اليمين. شعر أن حركته تتباطأ، وفجأة أصبحت أبطأ كثيراً. سمع هتافات: «أنقذ! السيد. إنه في أمان!». اندفع المسرح نحوه بسرعة متضائلة. ثم...

سمع الرجل المتشبث خلفه يصيح كأنما أصابه رعب مفاجئ، وترددت هذه الصيحة بصيحة من أسفل. شعر أنه لم يعد ينزل على الجبل وإنما يسقط معه. امتلأ المكان بصخب الصرخات والصيحات. شعر بشيء ناعم على يده الممدودة، وذراعه يرتجف من تأثير السقوط غير المكتمل.

أراد أن يظل ساكناً، وكان الناس يرفعونه. اعتقد بعد ذلك أنهم حملوه إلى المسرح وأعطوه شرباً، لكنه لم يتأكد أبداً. لم يلحظ ما حدث لدليله. عندما صفا ذهنه ثانية، كان يحاول الوقوف على قدميه بمساعدة الأيدي المتلهفة. كان في كوة كبيرة، يشغل الموقع الذي كان في خبرته السابقة مكرساً للمقصورات السفلية، إذا كان هذا مسرحاً بالفعل.

اخترقت أذنيه جلبة قوية، هدير صاعق، هتافات عدد لا يُحصى من الجموع: «إنه النائم! النائم معنا!».

- النائم معنا! السيد... المالك! السيد معنا. إنه في أمان.

رأى جراهام مشهداً عاصفاً لقاعة كبيرة مزدحمة بالناس. لم يرَ أي أفراد، بل مجموعة من الوجوه الوردية، ومن التلويع بالأذرع والملابس، وشعر بالتأثير السحري لحشد غفير يتدفق نحوه ويرفعه. رأى شرفات، ودهاليز، ومداخل ذات أسطح منحنية تتيح منظورات أبعد. كما امتلأ المكان كله بالناس، ساحة واسعة من الناس، مكتظة بكثافة ويهتفون.

وعلى مقربة، يتمدد الحبل المنهار كثعبان ضخمة؛ بعد أن قطع رجال الآلة الطائرة نهايته العليا، فسقط متكومًا في القاعة والرجال يسحبونه بعيدًا عن الطريق. على أن التأثير برمته كان غامضًا؛ إذ كانت المباني نفسها تهتز وتقفز مع هدير الأصوات.

وقف مترنحًا، ونظر إلى أولئك المحيطين به. سنده شخص بإحدى ذراعيه. قال باكيًا: «دعني أدخل إلى غرفة صغيرة. غرفة صغيرة»، ولم يستطع أن يتفوه بأكثر من ذلك. تقدم رجل يرتدي ملابس سوداء، وأمسك ذراعه الأخرى. كان مُدرِّكًا وجود رجال شبه رسميين يفتحون بابًا أمامه. أرشده شخص إلى مقعد، فقد كان يترنح. جلس متثاقلاً، وغطى وجهه بيديه. كان يرتجف بعنف، ووصلت سيطرته العصبية إلى نهايتها. لم يكن يرتدي عباءته، ولم يتذكر كيف تخلص منها. أصبح بنطاله الأرجواني - كما رآه - أسود من البلل. كان الناس يركضون حوله وأشياء تحدث، لكنه لم يبتبه إليهم لبعض الوقت.

لقد هرب؛ عرف ذلك من الهاتفات العديدة حوله. أصبح في أمان. هؤلاء هم الأشخاص الذين وقفوا إلى جانبه. أخذ يشهق لفترة كي يتنفس، ثم جلس ساكنًا وهو يغطي وجهه. كان الهواء مليئًا بصيحات عدد لا يُحصى من البشر.



الفصل التاسع

مسيرة الشعب

أصبح على بينة بشخص يقدم له كوبًا يحتوي سائلًا صافيًا ليحثه على الانتباه؛ فنظر إلى أعلى ووجد شابًا أسمر يرتدي ملابس صفراء. أخذ الجرعة على الفور، وتورّد في لحظة. وقف رجل طويل القامة في رداء أسود إلى جانبه، وأشار إلى الباب نصف المفتوح في القاعة. صاح هذا الرجل بالقرب من أذنه، ومع ذلك لم يكن ما قاله واضحًا نتيجة الضجة الهائلة القادمة من القاعة الكبيرة. وقفت وراء الرجل فتاة في رداء رمادي فضي، ورأى جراهام -حتى في ظل هذا الارتباك- أنها جميلة. كانت عيناها -الداكنتان المليئتان بالدهشة والفضول- ثابتتين عليه، كما كانت شفتاها ترتجفان. أتاح الباب المفتوح جزئيًا رؤية لمحة من القاعة المزدحمة، بما أكد اتساع الضجة وتفاوتها؛ دق وتصفيق وصياح، يتلاشى ثم يبدأ مرة أخرى، ويرتفع إلى نغمة صاعقة، وهكذا استمر بشكل متقطع طوال الوقت الذي أمضاه جراهام في الغرفة الصغيرة. شاهد شفتي الرجل في الملابس السوداء، وفهم أنه كان يحاول تفسير الأمر.

ظل للحظات يحرق بغباء في هذه الأشياء، ثم وقف فجأة وأمسك ذراع هذا الشخص الصارخ.

صاح: «قل لي! مَنْ أنا؟ مَنْ أنا؟».

اقترب الآخرون لسماع كلماته: «مَنْ أنا؟»، وبحث عيناه في وجوههم.

صاحت الفتاة: «لم يخبروه شيئاً!».

صرخ جراهام قائلاً: «أخبريني، أخبريني!».

- أنت سيد الأرض. أنت مالك العالم.

لم يصدق أن ما سمعه صحيح. قاوم الإقناع، متظاهراً بأنه لم يفهم ولم يسمع. رفع صوته مرة أخرى قائلاً: «لقد بقيت مستيقظاً ثلاثة أيام، سجيناً ثلاثة أيام. أتصور وجود صراع بين عدد من الناس في هذه المدينة... هل هي لندن؟».

«نعم»، أجاب الشاب.

- وهؤلاء الذين يجتمعون في القاعة الكبرى التي تضم الأطلس الأبيض.. هل الاجتماع بخصوصي؟ أعتقد أنه يتعلق بي بشكل ما. لماذا؟ لا أعرف. هل هي العقاقير؟ يبدو لي أن العالم أصبح مجنوناً أثناء نومي. لقد جُن جنوني... ومَنْ هؤلاء المستشارون تحت الأطلس؟ لماذا حاولوا تخديري؟

قال الرجل في الزي الأصفر: «حتى تظل غافلاً. لمنع تدخلك».

- لكن، لماذا؟

قال الرجل في الزي الأصفر: «لأنك الأطلس يا سيدي. العالم فوق كتفيك. إنهم يحكمون باسمك».

تلاشت الأصوات القادمة من القاعة، وساد صمت ينظمه صوت واحد رتيب. والآن سُحِقت تلك الكلمات الأخيرة فجأة، حيث صدرت جلبة تصم الآذان، هدير ورعد، وهتافات متزاحمة، وأصوات غليظة وحادة، وضرب، وتداخل. ومع استمرارها، لم يُعد الناس في الغرفة الصغيرة قادرين على سماع صياح بعضهم.

وقف جراهام، وذكاؤه يتشبث ضعيفاً بالشيء الذي سمعه للتو. كرر بوضوح: «المجلس»، ثم تذكر اسمًا، فسأل: «ولكن، مَنْ هو أوستروج؟». - إنه المُنظَّم... منظم الثورة. قائدنا... باسمك.

- باسمي؟ وأنت؟ لماذا ليس موجودًا هنا؟

- لقد كلفنا بالمهمة. أنا شقيقه لينكولن، شقيقه غير الشقيق. وهو يريدك أن تظهر لهؤلاء الناس ثم تذهب إليه. لهذا أرسلني. إنه في مكاتب دوارات الرياح، يتولى التوجيه. الناس في مسيرة.

صاح الشاب: «باسمك. لقد حكموا، وسحقوا، وطفخوا. بل وأخيرًا...».

- باسمي! اسمي! السيد؟

وفجأة، مع توقف الرعد الخارجي، أصبح صوت الشاب مسموعًا، ساخطًا وصاخبًا، صوتًا عاليًا يخترق الآذان تحت أنفه الأحمر المعقوف وشاربه الكث. «لم يتوقع أحد أن تستيقظ. لم يتوقع أحد أن تستيقظ. كانوا مكرين. طغاة ملعونون! لكنهم أخذوا على حين غرة. لم يعرفوا ماذا يفعلون معك؛ تخديرك، أم تنويمك مغناطيسيًا، أو قتلك».

سيطرت القاعة مرة أخرى على كل شيء.

- أوستروج في حالة استعداد في مكاتب دوارات الرياح... وهناك شائعة الآن عن بدء القتال.

اقترب منه الرجل الذي قال إن اسمه لينكولن. «لقد تولى أوستروج التخطيط. ثق به. ومنظماتنا جاهزة. سنستولي على منصات الطيران... ربما حتى أنه يقوم بذلك الآن. ثم...».

صاح الرجل ذو الملابس الصفراء: «هذا المسرح العام لا يضم إلا فريقًا واحدًا. لدينا خمسة ملايين رجل مُدرَّب».

«ولدينا أسلحة»، صرخ لينكولن، «وخطط، وقائد. وقد خرجت الشرطة من الشوارع واحتشدت في...» (كلمة غير مسموعة) «إما الآن وإما لن يحدث أبدًا. المجلس يهتز... لا يمكنهم الثقة حتى في رجالهم المُدرَّبين».

- اسمع، الناس ينادون عليك!

كان عقل جراهام مثل ليلة ذات قمر وغيوم سريعة، والآن مُظلمة ويائسة، والآن صافية ومخيفة. كان سيد الأرض، كان رجلًا مبللًا بالثلوج الذائبة. من بين كل انطباعاته المتقلبة، كانت العداوة بمثابة الانطباع المهيمن؛ فمن ناحية هناك المجلس الأبيض، القوي، المنضبط، وقليل العدد، المجلس الأبيض الذي هرب منه للتو؛ ومن ناحية أخرى، هناك حشود هائلة، جماهير من الناس لا يمكن تمييزهم، يهتفون باسمه، ويحيونه سيّدًا. الجانب الأول سجنه وناقش موته. وهذه الآلاف الصارخة وراء المدخل الصغير قد أنقذته. لكنه لم يفهم لماذا الأشياء على هذا النحو.

انفتح الباب، وغاب صوت لينكولن غرقاً، وتبعه اندفاع الناس في أعقاب الاضطراب. تحرك هؤلاء الدخلاء نحوه، ولينكولن يومئ. أصوات عديدة لم تفسرها شفاههم الصامتة، لكن الصيحة الأساسية خلال الضجة كانت: «أرنا النائم، أرنا النائم!». وكان الرجال يصرخون من أجل «النظام! الصمت!».

ألقي جراهام نظرة خاطفة نحو المدخل المفتوح، ورأى خلفه صورة طويلة مستطيلة للقاعة، واختلاط مضطرب متواصل من وجوه مزدحمة صارخة، رجال ونساء، يلوحون بأقمشة زرقاء شاحبة وأيدي ممدودة. كان الكثيرون يقفون. اعتلى رجل هزيل -يرتدي خرقاً بُنية داكنة- مقعداً وأخذ يلوح بقطعة قماش سوداء. التقت عيناه بدهشة وتوقع بعيني الفتاة. ماذا يتوقع منه هؤلاء الناس. أدرك إلى حد ما أن طابع الاضطرابات في الخارج قد تغير، كانت تقوى وتزحف بشكل ما. تغير رأيه أيضاً. ظل لفترة غير مدرك للتأثير الذي يجعله يتغير. لكن لحظة اقترابه من الذعر قد مرت. حاول إجراء استفسارات مسموعة عن المطلوب منه.

كان لينكولن يصرخ في أذنه، لكن جراهام كان يصم آذانه عنه. وكان الآخرون جميعاً -ما عدا المرأة- يشيرون إلى القاعة. أدرك ما حدث للضجة. كانت كتلة الناس بأكملها تهتف معاً. لم تكن مجرد أغنية؛ بل تجمعت الأصوات معاً وحملها سيل من الآلات الموسيقية، موسيقى مثل موسيقى آلة الأورجن، نسيج مغزول من أصوات، مليئة بأبواق، وبلافتات متباهية، ومسيرات، وعظمة بدء الحرب. وكان وقع أقدام الناس يحدد زمن الإيقاع: تراك، تراك.

دُفع نحو الباب، وأطاع تلقائيًا. سيطرت عليه قوة ذلك الهمتاف، حرّكته وشجّعته. فُتحت القاعة له، كتلة شاسعة مختلطة من الألوان المتلاثلة تتمايل مع الموسيقى.

قال لينكولن: «لَوْحٌ بذراعك لهم. لَوْحٌ بذراعك لهم».

قال صوت على الجانب الآخر: «هذا، يجب أن يكون هذا معه». التفت ذراعان حول رقبتة تحتجزه عند المدخل، وتدلّت عباءة سوداء قابلة للطّي بمهارة من كتفيه. حرّر ذراعه وتبع لينكولن. رأى بالقرب منه الفتاة التي ترتدي ملابس رمادية، وجهها مضاء وتلفتت إلى الأمام. وفي لحظة أصبحت بالنسبة له -وهي متوردة ومتحمسة- تجسّدًا للأغنية. ظهر في الكوة مرة أخرى؛ وعندئذ اندلعت موجات متزايدة من الأغنية، وأخذت تومض في انفعال صارخ. سار في مسار ملتوّ، مُسترشدًا بيد لينكولن، خلال وسط المسرح مواجهًا الناس.

كانت القاعة مساحة واسعة ومُرّكة؛ تضم أروقة، وشرفات، ومساحات واسعة لمسرح روماني ومداخل مقوسة. وبعيدًا، على ارتفاع، ظهرت بداية ممر ضخم مليء بالبشر المناضلين. كان الحشد بأكمله يتمايل في ازدحام. برزت شخصيات فردية من وسط الاضطراب، أثارت إعجابه للحظات، ثم غابت وسط الحشود ثانية. تمايلت بالقرب من المنصة امرأة جميلة يحملها ثلاثة رجال، يتطاير شعرها على وجهها، وتلوح بشيء أخضر. وبعد هذه المجموعة، تمكن رجل عجوز في رداء أزرق أن يحتفظ بمكانه وسط هذا الازدحام بصعوبة. وصاح خلفه رأس أصلع بوجهه تجويف كبير عبارة عن فم بلا أسنان. هتف صوت بتلك الكلمة الغامضة: «أوستروج». كانت

جميع انطباعاته ملتبسة، باستثناء العاطفة الهائلة لإيقاع تلك الأغنية. كانت الحشود تحدد الإيقاع بوقع أقدامها: تحدد الإيقاع، تراك، تراك، تراك، وها هي الأسلحة الخضراء تومض وتميل وهم يلوحون بها. ثم رأى القرييين منه على مساحة مستوية أمام المسرح، يسرون أمامه نحو ممر مقوس كبير وهم يهتفون: «إلى المجلس!»، تراك، تراك، تراك، تراك. رفع ذراعه، فتضاعف الهدير. تذكر أنه يجب أن يهتف: «المسيرة!»؛ اتخذت شفتاه شكل كلمات بطولية غير مسموعة. لوح بذراعه مرة أخرى وأشار إلى الممر وهو يصيح «إلى الأمام!». كفوا عن تحديد الإيقاع، كانوا يسرون؛ تراك، تراك، تراك، تراك. كان في هذا الجمع رجال ملتحون، وشيوخ، وشباب، ونساء وفتيات يلوحن بأذرعهن العارية. رجال ونساء العصر الجديد! كانت الملابس التي يبدو عليها الثراء والملابس الرمادية البالية ترفرف معاً في حركتها الدائرية وسط اللون الأزرق المهيمن. شقت راية سوداء رهيبة طريقها إلى اليمين. رأى رجلاً أسود البشرة في زي أزرق، وامرأة واهنة في زي أصفر، ثم اندفع أمامه بطريقة مسرحية مجموعة من الرجال طوال القامة، وبشعر أصفر، ووجوه بيضاء، ويرتدون ملابس زرقاء. لاحظ وجود رجلين صينيين. صعد إلى المنصة شاب شاحب طويل القامة، داكن الشعر ولامع العينين، ويرتدي ملابس بيضاء من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وأخذ يهتف بالولاء، ثم هبط وتراجع وهو ينظر إلى الوراء. كانت الرؤوس والأكتاف والأيدي الممسكة بالأسلحة تتمايل جميعها مع إيقاعات المسيرة.

خرجت وجوه من وسط هذا الاختلاط وهو يقف هناك، والتقت أعينهم بعينه ثم مروا واختفوا. أوماً له رجال، وصاحوا بأشياء شخصية

غير مسموعة. كانت معظم الوجوه متوردة، لكن العديد منها كان أبيض وشاحبًا. حتى المرضى كانوا موجودين، فقد لوحث له العديد من الأيدي الهزيلة والنحيفة. رجال ونساء العصر الجديد! تجمع غريب لا يُصدق! ومع مرور التيار البشري الواسع أمامه ناحية اليمين، كانت ممرات الروافد من المرتفعات البعيدة في القاعة تندفع إلى أسفل في استبدال مستمر للناس؛ تراك، تراك، تراك، تراك. أدت الأصداء الهائلة للممرات المقوسة والمسارات إلى إثراء تناغم الأغنية وتعقيدها. واختلطت صفوف الرجال والنساء؛ تراك، تراك، تراك، تراك. بدا العالم كله في المسيرة. كان عقله يدق؛ تراك، تراك، تراك، تراك. تموجت الثياب في اتجاه الأمام، وتدفقت الوجوه بوفرة أكبر.

تراك، تراك، تراك، تراك؛ استدار إلى الممر المقبب تحت ضغط لينكولن، وسار تلقائيًا وفق هذا الإيقاع، يكاد لا يلحظ حركته تبعًا للحن وما يثيره من نشاط. تحرك الجميع -الحشد، والإيماءات، والأغنية- في ذلك الاتجاه، وتدفق الناس إلى أسفل إلى أن أصبحت الوجوه المقلوبة تحت مستوى قدميه. كان على وعي بوجود مسار أمامه، وحاشية حوله، وحراس ووجهاء، ولينكولن على يمينه. تداخل الحاضرون، وحجبوا مرارًا وتكرارًا مشهد الجموع ناحية اليسار. شاهد أمامه ظهور الحراس الذين يرتدون ملابس سوداء؛ يتحركون ثلاثة، وثلاثة، وثلاثة. سار على طول طريق قصير للسكك الحديدية، وعبر فوق الممر المقوس، يتدفق تحته سيل من تيار البشر الذين يهتفون له. لم يكن يعرف إلى أين يذهب، ولم يرد أن يعرف. ومرة أخرى ألقى نظرة سريعة إلى القاعة الشاسعة المشتعلة. تراك، تراك، تراك، تراك.

الفصل العاشر

معركة الظلام

لم يعد في القاعة؛ بل كان يسير على طول رواق يمتد أعلى أحد الشوارع الكبرى للمنصات المتحركة التي تقطع المدينة. ويسير حراسه أمامه وخلفه. كانت جميع الطرق المنحنية المتحركة أدناه عبارة عن كتلة مزدحمة من الناس تسير، تدب بأقدامها في اتجاه اليسار، وهم يصيحون ويلوحون بأيديهم وأذرعهم خلال تدفقهم عبر مشهد هائل. يصيحون وهم يقتربون، يصرخون عند مرورهم، ويصيحون عند ابتعادهم، إلى أن انحسرت كرات الضوء الكهربائي في المشهد المنظور وأخفت رؤوس المحتشدين التي كانت ظاهرة للعيان. تراك، تراك، تراك، تراك.

وصل هدير الأغنية إلى جراهام الآن. لم تعد الموسيقى تنقلها، بل أصبحت خشنة وصاخبة، وتشابك ديب أقدام السائرين -تراك، تراك، تراك، تراك- مع عدم الانتظام المدوي لوقع أقدام الرعاع غير المنضبطين، الذين تدفقوا على طول الطرق العليا.

لاحظ فجأة تناقضاً. بدت المباني على الجانب الآخر من الطريق مهجورة، كما بدت الأحبال والجسور التي تترابط عبر الممر فارغة

ومعتمدة. تبادر إلى ذهن جراهام أن هذه أيضًا كان ينبغي أن تزدهم بالناس.

شعر بانفعال غريب، خفقان بسرعة كبيرة! توقف ثانية. واصل الحراس الذين كانوا أمامه سيرهم؛ بينما توقف مثله من كانوا حوله. رأى القلق والخوف في وجوههم. كان للخفقان علاقة بالأضواء. نظر هو أيضًا إلى أعلى.

تصور في البداية وجود شيء يؤثر على الأضواء ببساطة؛ أي ظاهرة منفصلة لا تؤثر على الأشياء أدناه. كانت كل كرة ضخمة، من تلك التي تصدر ضوءًا يُعَمِّي الأبصار، مُثَبِّتة بإحكام ومضغوطة في حالة انقباض يعقبه انبساط مؤقت، ثم انقباض مرة أخرى مثل قبضة مشدودة، ظلام، ضوء، ظلام، في تناوب سريع.

أدرك جراهام وجود ارتباط بين سلوك الأضواء الغريب هذا والناس الموجودين أدناه. فقد تغير مظهر المنازل والطرق، كما تغير مظهر الجماهير المكدسة، وأصبح خليطًا من أضواء زاهية وظلال تتقافز. رأى العديد من الظلال وقد تحولت إلى وجود عدواني، يندفع ويتمدد ويتسع وينمو بسرعة مطردة، ثم يقفز فجأة إلى الورا ويعود قويًا. توقفت الأغنية، وتوقف ديبب الأقدام. اكتشف إلقاء القبض على المسيرة الجماعية؛ وهناك دوامات، وتدفق جانبي، وصيحات تنطلق معًا في صوت واحد: «الأضواء! الأضواء!». نظر إلى أسفل. في رقصة الموت هذه التي تمارسها الأضواء، أصبح الشارع فجأة ساحة صراع وحشي. أصبحت الكرات البيضاء الضخمة أرجوانية بيضاء، أرجوانية ذات توهج يميل إلى

الْحُمْرة، تومض، تومض أسرع وأسرع، ترتعش بين الضوء والانطفاء، ثم توقفت عن الوميض وأصبحت مجرد بقع حمراء متوهجة تتلاشى في ظلام شاسع. تلاشت تمامًا في عشر ثوان، ولم يبقَ إلا هذا الظلام الهادر؛ وحشية سوداء ابتلعت فجأة تلك الحشود المتلائة من الرجال.

شعرَ بأشكال خفية حوله، قبضت على ذراعيه. ضرب شيء ما ساقه بشدة. صاح صوت في أذنه: «كل شيء على ما يرام... على ما يرام». تخلص جراهام من شلل دهشته الأولى. اصطدمت جبهته بليנקولن، صاح: «ما هذا الظلام؟».

- قطع المجلس التيارات التي تُضيء المدينة. يجب أن ننتظر... توقف. الناس سيستمرون. وسوف...

غرق صوته وسط الأصوات الصارخة: «أنقذوا النائم. اعتنوا بالنائم». تعثر حارس أمام جراهام، وأصاب يده بضربة غير مقصودة من سلاحه. انطلقت ضجة عارمة حوله، تزايد ارتفاع الأصوات، وتزايدت الكثافة، وازداد الغضب في كل لحظة. توجهت نحوه بعض الأصوات التي يمكن التعرف عليها، لكنها ابتعدت عنه في الوقت الذي كان ذهنه يحاول استيعابها. يبدو أن الأصوات كانت تطلق أوامر متضاربة، وأصوات أخرى تجيب. ثم انطلقت فجأة سلسلة من الصيحات الحادة عن قرب أسفلهم. صاح صوت في أذنه: «الشرطة الحمراء»، وكف فورًا عن أسئلته.

تنامى صوت طقطقة إلى أن أصبح واضحًا تمامًا، تلاه قفزة من ومضات خافتة على طول حافة الطرق الأبعد. رأى جراهام خلال هذا الضوء رؤوسًا وأجسامًا لعدد من الرجال، مُدججين بأسلحة مثل تلك

التي يحملها حراسه، وفي لحظة رؤية معتمة شاهدتهم يقفزون. بدأ صوت الطقطة يشمل المنطقة بأكملها، وبدأت المنطقة تومض في ظل خطوط ضوئية لحظية صغيرة، ثم فجأة عاد الظلام مثل ستارة تُغلق.

أبهر وهج الضوء عينيه، اضطرب عقله لرؤية مساحة شاسعة تغلي بنضال الرجال. وصلت عبر الطرقات صيحة، موجة من الهتاف. نظر إلى أعلى ليرى مصدر الضوء. عن بُعد، تدلى رجل فوق الجزء العلوي من حبل، مُمسِكًا بحبل النجم المُعمي للأبصار الذي أنهى الظلام.

سقطت عينا جراهام على الطرق مرة أخرى. لفت انتباهه كتلة حمراء غير بعيدة تبدو في الأفق على الطريق. رأى أنها كتلة كثيفة من الرجال الذين يرتدون ملابس حمراء ويتزاحمون على الطريق الأعلى. كانت ظهورهم ضد جرف قاسٍ لمبنى، ويحيط بهم حشد كثيف من الخصوم. كانوا يتقاتلون. وَمَضَتْ أسلحة وارتفعت وسقطت، اختفت رؤوس عند حافة النضال وحلت رؤوس أخرى محلها، وأصبحت الومضات الصغيرة للأسلحة الخضراء تدفقات صغيرة من الدخان الرمادي، بينما استمر الضوء.

وفجأة انطفأ التوهج وعاد الظلام الحالك يخيم مرة أخرى على الطرق؛ لغز مضطرب.

شعر جراهام بشيء يصطدم به، ويدفعه على طول الممر. سمع شخصًا يصيح، ربما يصيح في وجهه. ارتبك لسماعه. وجد نفسه مدفوعًا نحو الحائط، وتخبط عدد من الناس أمامه. بدا له أن حراسه يتعاركون مع بعضهم.

ومرة أخرى، ظهر فجأة حامل النجم المعلق بالأحبال، واكتسى المشهد كله بلون أبيض ومبهر. بدت فرقة المعاطف الحمراء أوسع نطاقاً وأقرب، وتقع ذروتها في منتصف الطريق أسفل الطرق المتجهة نحو الممر المركزي. رفع جراهام بصره ورأى ظهور عدد من هؤلاء الرجال الآن أيضاً في الأروقة السفلية المظلمة للمبنى المقابل، ويطلقون النار على رؤوس زملائهم أدناه وسط غليان الناس المضطرب على الطرق السفلية. بدأ يدرك معنى هذه الأشياء؛ تعرضت مسيرة الشعب إلى كمين منذ البداية. وتعرض الآن لهجوم الشرطة الحمراء، في ظل الارتباك الناتج عن إطفاء الأضواء. ثم أدرك أنه يقف بمفرده، وأن حراسه ولينكولن كانوا على طول الرواق في الاتجاه الذي جاء منه قبل حلول الظلام. رآهم يشيرون إليه بقوة، ويركضون عائدين نحوه. صدرت صيحات هائلة من مختلف الطرق. ثم بدا كأن مجمل واجهة المبنى المظلم المقابل كانت مكسوة برجال يرتدون ملابس حمراء. كانوا يشيرون إليه ويهتفون. هتفت العديد من الحناجر: «النائم! أنقذوا النائم!».

اصطدم شيء بالحائط فوق رأسه. نظر إلى موقع الارتطام، ورأى بقعة من معدن فضي على شكل نجمة. رأى لينكولن بالقرب منه، وشعر بذراعه مُمسكاً بها. ثم... طاخ، طاخ؛ لم يُصَب في المرتين. للحظة لم يفهم. عندما نظر كان الشارع قد اختفى، كل شيء اختفى. فقد انطفأ التوهج الثاني.

أمسك لينكولن جراهام من ذراعه، وأخذ يسحبه على طول الممر. صاح: «قبل الضوء التالي!». وكانت سرعته مُعدية. تغلبت غريزة جراهام

للحفاظ على الذات على شلل دهشته الميالة للشك. أصبح لفترة المخلوق الأعمى الذي يخشى الموت. ركض، تعثر بسبب شعوره بعدم اليقين في الظلام، ارتطم بحراسه عندما استداروا للركض معه. كانت السرعة رغبته الوحيدة للهروب من هذا الممر المحفوف بالمخاطر الذي تعرض له. ظهر الوهج الثالث بعد فترة قصيرة من التوهجين السابقين؛ وأدّى إلى صيحات هائلة في الطرق، فضلاً عن الرد عليه بمزيد من الاضطراب. رأى أن المعاطف الحمراء أدناه على وشك الفوز بالممر المركزي. استدارت وجوههم التي لا تُعد ولا تُحصى نحوه، وهم يصيحون. كان التذمر الأبيض المقابل مكتظاً بنقاط حمراء. كل هذه الأشياء العجيبة كانت تثير اهتمامه، ويتحولون نحوه بوصفه الشخص المحوري. هؤلاء هم حراس المجلس، يحاولون اعتقاله ثانية.

ومن حسن حظه أن هذه الطلقات كانت أول طلقات تنطلق بغضب منذ مائة وخمسين عامًا. سمع طلقات نارية فوق رأسه، وشعر بدفقة من معدن منصهر تلسع أذنه، وأدرك دون أن ينظر أن الجانب المقابل كله -وهو كمين مكشوف من الشرطة الحمراء- كان مزدحمًا وصارخًا ويطلق النار عليه.

سقط أمامه أحد حراسه، لكن جراحهم لم يستطع أن يتوقف، فقفز فوق الجسم الذي يتلوى.

وفي الثانية التالية، سقط دون أن يصاب بأذى، في ممر أسود. وتكرر مرور شخص من اتجاه آخر، والارتطام به بعنف. كان يندفع أسفل سلم في ظلام دامس. ترنح وارتطم مرة أخرى، واصطدمت يده بحائط. سحقته

أوزان الأجسام المتصارعة، فاستدار مندفعاً إلى اليمين. وقع عليه ضغط هائل. لم يستطع التنفس، بدت ضلوعه تنسحق. شعر باسترخاء لحظي، ثم جاءت كتلة كاملة من الناس تتحرك معاً وحملته مرة أخرى إلى المسرح الكبير الذي أتى منه مؤخراً. مرت لحظات لم تلمس فيها قدماه الأرض. ثم كان يتمايل ويُدفع. سمع صيحات «إنهم قادمون!»، وصرخة مكتومة بالقرب منه. ارتطم قدمه بشيء ناعم، سمع صوتاً أجشَّ يصرخ تحت الأقدام. سمع هتاف «النائم!»، لكن تشوشه الشديد حال دون أن يتكلم. سمع صوت طقطقة الأسلحة الخضراء. فقد إرادته الفردية لفترة، وأصبح مجرد ذرة ميكانيكية في حالة من الذعر والعمى وعدم التفكير. قام بالدفع والضغط متلوياً، ثم ارتطم الآن في سلم، ووجد نفسه يصعد منحدرًا. وفجأةً قفزت الوجوه المحيطة به من السواد؛ إذ أصبحت مرئية، بيضاء شاحبة ومندهشة، مرعوبة وتتعرق في وهج ساطع. رأى وجه شاب على مقربه منه، على مسافة لا تصل إلى عشرين بوصة. كانت في ذلك الوقت مجرد حادث عابر لا يحمل أي قيمة عاطفية، لكنه عاد إليه لاحقاً في أحلامه. فهذا الشاب، الذي ظل واقفاً بين الحشود لبعض الوقت، قد أُصيب بطلق ناري ومات بالفعل.

لا بد أن الرجل المعلق بالحبل هو مَنْ أضاء النجمة البيضاء الرابعة. جاء ضوءها ساطعاً خلال النوافذ والممرات المقوسة الشاسعة، وأظهرت لجراهم أنه أصبح الآن واحداً من كتلة كثيفة من الشخصيات السوداء الطائرة التي تزاхمت مرة أخرى عند المنطقة السفلى للمسرح الكبير. كان المشهد هذه المرة شاحباً ومُجزأً، تقطعه شرائط وخطوط الظلال السوداء. رأى الحراس الحُمر بالقرب منه يقاتلون لشق طريقهم

خلال الناس. لم يتمكن من معرفة ما إذا كانوا رأوه. بحث عن لينكولن وعن حراسه. شاهد لينكولن بالقرب من خشبة المسرح محاطاً بحشد من الثوار ذوي الشارات السوداء، محمولاً ويحرق في جميع الاتجاهات كأنما يبحث عنه. أدرك جراهام أنه هو نفسه كان قريباً من الحافة المقابلة للحشد، وأن خلفه حاجزاً يفصل مقاعد مدرجات المسرح الشاغرة الآن. تبادرت إلى ذهنه فكرة مفاجئة، وبدأ يشق طريقه نحو الحاجز. وعندما وصل إليه، انطفأ الوهج.

وفي لحظة أزاح العباءة الكبيرة عن كتفيه وألقاها؛ فهي لم تعق حركته فحسب، بل جعلته مميزاً بوضوح. سمع شخصاً يتعثر في طياتها. وفي لحظة أخرى كان يتسلق الحاجز، وسقط في السواد على الجانب الآخر. ثم تحسس طريقه حتى وصل إلى الطرف السفلي من ممر صاعد. في الظلام، توقف صوت إطلاق النار وهدأ هدير الأقدام والأصوات. وصل فجأة إلى درجة سلم غير متوقعة، فتعثر وسقط. وعندئذ قفزت البرك والجُزر وسط الظلام حوله بارزة في الضوء الساطع مرة أخرى، وزاد صوت الضجة ارتفاعاً، وأشرق توهج النجم الأبيض الخامس خلال النوافذ الشاسعة لجدران المسرح.

تدحرج بين بعض المقاعد، سمع صراخاً وطنين حشرجة الأسلحة. بذل جهداً حتى تمكن من النهوض، وتعرض للضربات مرة أخرى. أدرك وجود عدد من الرجال ذوي الشارات السوداء حوله يطلقون النار على الحُمر أدناه. قفز من مقعد إلى مقعد، وربض بين المقاعد ليستجمع نفسه. جثم غريزياً وسط المقاعد، حيث مزقت الطائشة الوسائد الهوائية وقطعت شرائط لامعة على إطاراتها المعدنية الناعمة. تمكن غريزياً من

تميز اتجاه الممرات، وأكثر الطرق معقولة ليهرب بمجرد حلول الظلام مرة أخرى.

جاء شاب يرتدي ملابس زرقاء باهتة قافزاً فوق المقاعد. قال: «أهلاً!»، وقدماه الطائرتان على بُعد ست بوصات من وجه النائم الرابض. نظر مُحدّقاً دون أي علامة تنم على تعرفه على النائم، ثم استدار ليطلق النار. أطلق النار، ثم أخذ يصيح: «المجلس إلى الجحيم!»، وهو على وشك إطلاق النار مرة أخرى. بدا لجراهام أن نصف رقبة هذا الرجل قد اختفت. سقطت قطرة بلل على خد جراهام. توقف السلاح الأخضر نصف مرفوع. وقف الرجل للحظة ساكناً، وفقد وجهه فجأة أي تعبير، ثم بدأ يميل إلى الأمام. انحنت ركبتاه. سقط الرجل وحل الظلام في الوقت نفسه. نهض جراهام عندما سمع صوت سقوطه، وركض للنجاة بحياته، ثم تعثر في إحدى درجات السلم على طريق توجهه نحو الممر. اندفع واقفاً على قدميه، واتجه صاعداً إلى الممر وواصل الركض.

عندما توهج النجم السادس، كان بالفعل على مقربة من فتحة ممر. ولذا ركض بأسرع ما يمكن، دخل الممر الذي تحول أحد أركانه إلى ليلة حالكة الظلام ثانية. ارتطم على طريق جانبي وتدحرج، ثم نهض على قدميه. وجد نفسه واحداً من حشد من هاربين غير مرئيين يتزاحمون في اتجاه واحد. كان تفكيره الوحيد الآن يماثل تفكيرهم أيضاً: الهروب من هذا القتال. دفع وضرب، ترنح، ركض، سُحِقَ بقوة، شعر بدوار، ثم تعافى ثانية.

ظل لبضع دقائق يركض خلال الظلام على طول ممر متعرج، ثم عبر مساحة واسعة ومفتوحة، وقطع منخفضاً طويلاً، حتى هبط أخيراً مجموعة

من الدرجات إلى مكان مستوٍ. كان الكثير من الناس يصيحون: «إنهم قادمون! الحراس قادمون. إنهم يطلقون النار. اخرجوا من القتال. الحراس يطلقون النار. ستجدون الأمان عند الطريق السابع. من هنا مباشرة إلى الطريق السابع!». كان الحشد يضم النساء والأطفال بالإضافة إلى الرجال. تجمهر الحشد عند ممر مقوس، وعبروا ممرًا قصيرًا، وصولاً مرة أخرى إلى مساحة أوسع خافتة الإضاءة. انتشرت الشخصيات السوداء حوله، وركضت على نحو بدا في الشفق سلسلة عملاقة من الدرجات. تبعها. تفرق الناس في اتجاهي اليمين واليسار... أدرك أنه لم يُعد داخل الحشد. توقف بالقرب من أعلى درجة. رأى أمامه على هذا المستوى مجموعات من المقاعد وكشكًا صغيرًا. صعد إليها، ووقف في ظل أفاريزها. نظر حوله لاهثًا.

كان كل شيء ملتبسًا ورماديًا، لكنه أدرك أن هذه السلالم العظيمة كانت سلسلة من منصات «الطرق»، التي كفت ثانية الآن عن الحركة. تميل المنصة على الجانبين، وترتفع خلفها المباني العالية كأشباح معتمة هائلة، وكتابات وإعلاناتها غير واضحة الرؤية، ويمتد خلال العوارض والأحبال شريط متقطع باهت من السماء الشاحبة. يسرع عدد من الناس. توضح صيحاتهم وأصواتهم أنهم يتوجهون مسرعين للانضمام إلى القتال. وهناك شخصيات أخرى أقل ضجيجًا تتأرجح على استحياء بين الظلال.

سمع صوت قتال من بعيد، أسفل الشارع. لكنه أدرك أنه ليس الشارع الذي يفتح عليه المسرح. انقطع فجأة صوت تلك المعركة السابقة، ولم يُعد يسمعه. وكانوا يقاتلون من أجله!

ظل لبعض الوقت مثل رجل توقف عن قراءة كتاب نابض بالحياة، وبدأ فجأة يشك في ما كان يعتبره مُسلماً به. وفي تلك الفترة لم يكن يهتم كثيراً بالتفاصيل؛ وكان الانطباع بأكمله دهشة هائلة. والغريب أنه بينما كان الهروب من سجن المجلس، والحشد الكبير في القاعة، وهجوم الشرطة الحمراء على الجمهور المحتشد حاضراً بجلاء في ذهنه، فقد تكلف جهداً لتجميع الأشياء عند استيقاظه، واستعادة فترة تأمله للغرف الصامتة^(١٦). قفزت هذه الأشياء إلى ذاكرته بداية، وأعادته إلى شلال بتنارجن الذي يرتعش أمام الريح، وكل تلك الروعة الداكنة لساحل كورنيون الذي تضيئه أشعة الشمس. مس التباين كل شيء بعدم واقعية. ثم امتلأت الفجوة، وبدأ يستوعب وضعه.

لم يعد لغزاً على الإطلاق، كما كان في الغرف الصامتة. فلديه الآن على الأقل مخطط عريض غريب. كان بطريقة ما مالك العالم، والأطراف السياسية الكبرى تتقاتل من أجل الاستحواذ عليه. فمن ناحية هناك المجلس بشرطته الحمراء يبدو مصمماً على اغتصاب ممتلكاته وربما قتله؛ ومن ناحية أخرى، هناك الثورة التي حررت في ظل زعيمها الخفي «أوستروج». وكانت هذه المدينة العملاقة تهتز بأكملها نتيجة هذا القتال. يا له من تطور محموم لعالمه! صاح: «لا أفهم. لا أفهم!».

لقد تسلل خلصة خارج الطرفين المتنافسين إلى الحرية في فترة الشفق هذه. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ما الذي يحدث؟ تصور الرجال ذوي

(١٦) الغرفة الصامتة (Silent Room): توجد عادة في بعض أماكن العمل، وتُشيد على أساس الصمت التام، بمعنى حجب الضوضاء تماماً. «المترجمة».

الملابس الحمراء منشغلين بمطاردته، وهم يسوقون أمامهم الثوريين ذوي الشارات السوداء.

وهذا ما منحه، على أي حال، فرصة للتنفس. يمكنه أن يتحرك خلسة دون خلافات مع المارة، ويرقب سير الأمور. تابعت عيناه تعقيد ضخامة المباني القائمة في فترة الشفق، ووجدتها رائعة بلا حدود؛ إذ كانت الشمس تشرق هناك في الأعالي، والعالم مُضاء ومتوهج مع ضوء النهار المألوف القديم. استعاد أنفاسه بعد فترة وجيزة، وجفت عليه ملابسه بالفعل من الثلج.

تجول أميلاً على طول طرق الشفق هذه، لم يتحدث إلى أحد، ولم يبادره أحد بحديث. كان هيئة معتمة بين الشخصيات المعتمة، الرجل المرغوب القادم من الماضي، والمالك غير العمدي الذي لا يُقدر بثمن للعالم. وأينما توجد أضواء أو حشود كثيفة، أو شيء استثنائي مثير، كان يخشى أن يتعرف عليه أحد؛ وعندئذ يراقب ويعود أدراجه، أو يصعد ويهبط من السلالم الوسطى، إلى نظام مُستعرض من الطرق على مستوى أدنى أو أعلى. وعلى الرغم من أنه لم يلتق في طريقه بأي قتال، فقد كانت المدينة بأكملها تعج بالمعارك. اضطر مرة أن يركض لتجنب مسيرة اجتاحت الشارع وتضم العديد من الرجال. بدا أن الجميع في كل مكان يشاركون. كانوا رجالاً في معظم الأحيان، ويحملون ما اعتبره أسلحة. كما بدا كأن القتال يتركز أساساً في حي المدينة الذي جاء منه. كان يصل إلى أذنيه مراراً وتكراراً هدير بعيد، يوحى بقتال على مسافة بعيدة. تنازع حذره وفضوله معاً؛ لكن حذره انتصر، واستمر يتجول بعيداً عن القتال بقدر ما يستطيع. سار خلال الظلام دون مضايقات وشكوك. وبعد فترة

لم يُعدّ يسمع أي صدى - حتى عن بُعد - للمعركة. أخذت أعداد المارة تقل تدريجيًا، حتى أصبحت الشوارع مهجورة أخيرًا. أصبحت واجهات المباني بسيطة وفظة. يبدو أنه وصل إلى منطقة مستودعات شاغرة. تسلل إليه الشعور بالعزلة، وتباطأت وتيرته.

أصبح على بينة من إرهاقه المتزايد. كان ينحرف جانبًا أحيانًا ويجلس على أحد المقاعد العديدة في الطرق العليا. لكن قلقه المحموم، ومعرفة تأثيره الحيوي في هذا الصراع، لن يسمح له بالراحة في أي مكان لفترة طويلة. هل كان الكفاح من أجله فقط؟

ثم في مكان مقفر، حدثت صدمة زلزال؛ هدير ودوي، رياح قوية من الهواء البارد تتدفق عبر المدينة، يتحطم الزجاج، انزلاق وجلجلة سقوط البناء، سلسلة من الاهتزازات العملاقة. سقطت كتلة من الزجاج والحديد من الأسقف النائية في الممر الأوسط، على مسافة تبعد عنه بما يقرب من مائة ياردة، وكان الصراخ والركض مسموعًا على مسافة. أصابه ذهول أيضًا لنشاط بلا هدف؛ ركض بداية في اتجاهه، ثم عاد بلا هدف.

جاء رجل يركض نحوه. استعاد تمالك نفسه. سأله الرجل لاهثًا: «ماذا فجروا؟ كان انفجارًا». أسرع الرجل راكضًا قبل أن يتمكن جراهام من الكلام.

ارتفعت المباني العظيمة باهتة، يحجبها شفق مُحير، على الرغم من أن نُهير السماء في أعلى كان الآن مشرقًا مع النهار. لاحظ العديد من السمات الغريبة، لم يفهم منها أي شيء حينذاك؛ حتى أنه تهجأ العديد من النقوش بحروف صوتية. لكن، وبعد إجهاد مؤلم للعين والعقل، ما

فائدة حل شفرة الخلط بين حروف غريبة المظهر تقول: «هنا إيدامايت»
أو «وزارة العمل-الجانب الصغير»؟ فكرة بشعة، أن كل هذه المنازل التي
تشبه الجرف كانت من ممتلكاته!

وضحت أمامه بجلاء غرابة تجربته. لقد حقق في الواقع الفعلي
قفزة زمنية كان الرومانسيون يتخيلونها مرارًا وتكرارًا. وعندما أدرك هذه
الحقيقة، أصبح على أهبة الاستعداد. انتظر ذهنه مشاهدة عرض. لكن
العرض لم يكشف نفسه، بل انكشف خطر غامض كبير، ظلال غير
ودودة وحجاب من الظلام. في مكان ما -خلال غموض المتاهة- سعى
إليه موته. هل سيقتل قبل أن يرى؟ قد يوجد حتى كمين يدمره في الركن
التالي. ثارت داخله رغبة كبيرة في الرؤية، وتوق كبير إلى المعرفة.

أصبح يخشى الأركان. تصور أن الأمان يكمن في الاختباء. أين يمكن
أن يختبئ كي لا يبدو للعيان عندما تعود الأضواء؟ وفي النهاية جلس على
مقعد في خلوة على أحد أعلى الطرق، وتصور أنه بمفرده هناك.

ضغط عينيه المرهقتين بأطراف أصابعه. لنفترض أنه عندما نظر مرة
أخرى وجد تجويف الطرق المتوازية المظلم وارتفاع المبنى الشاهق قد
اختفى. لنفترض أنه سيكتشف أن مجمل قصة الأيام القليلة الماضية،
والصحوة، والحشود الصاخبة، والظلام والقتال، هي أوهام خيالية؛ حلم
من نوع جديد أكثر حيوية. لا بد أن يكون حلمًا؛ إذ لم يكن متعاقبًا، ويفتقر
إلى المعقولية. لماذا كان الناس يقاتلون من أجله؟ لماذا يعتبره هذا العالم
العاقل سيّدًا ومالكًا؟

جلس يفكر وهو يغطي عينيه، ثم نظر مرة أخرى وهو نصف آمل -على

الرغم مما يسمعه - أن يرى بعض الجوانب المألوفة من حياة القرن التاسع عشر، أن يرى - ربما - ميناء بوسكاسل الصغير، أو منحدرات بنتارجن، أو غرفة نوم منزله. لكن الحقيقة لا تأبه لآمال البشر. أخذ فريق من الرجال يحملون لافتة سوداء يدبون بأقدامهم عبر الظلال القريبة، عازمين على القتال، وارتفع خلفهم جدار الواجهة الدائري، واسعًا ومظلمًا، مع حروف قائمة غير مفهومة تظهر باهتة على وجهه.

قال: «إنه ليس حلمًا، ليس حلمًا». وأحنى وجهه على يديه.



الفصل الحادي عشر

الرجل العجوز الذي يعرف كل شيء

أذهله سماع سعال قريب.
التفت بحدة محدقًا. رأى شخصًا أحذب صغير الحجم، يجلس على
بعد ياردين تحت ظل السياج.
«هل لديك أي أخبار؟»، سأل صوت عالي النبرة يشبه الصغير، وكان
صوت رجل عجوز جدًّا.
تردد جراهام، ثم قال: «لا شيء».
قال الرجل العجوز: «سأبقى هنا حتى تعود الأضواء مرة أخرى.
هؤلاء الأوغاد الذين يرتدون ملابس زرقاء ينتشرون في كل مكان... في
كل مكان».
وكانت إجابة جراهام موافقة غير واضحة. حاول رؤية الرجل
العجوز، لكن الظلام أخفى وجهه. أراد بشدة أن يستجيب، أن يتحدث،
لكنه لم يعرف كيف يبدأ.
«الظلام واللعنة»، قال الرجل العجوز فجأة، «الظلام واللعنة. خرجتُ
من غرفتي وسط كل هذه المخاطر».

تجراً جراحام وقال: «هذا صعب، صعب عليك».

- الظلام. رجل عجوز تائه في الظلام. والعالم كله جُن جنونه. الحرب والقتال. الشرطة انهزمت، والمارقون في الخارج. لماذا لا يجلبون بعض السود لحمايتنا؟ لن أعاود السير في ممرات مظلمة. لقد وقعتُ فوق رجل ميت.

ثم أضاف العجوز: «المرء أكثر أماناً مع الرفقة، إذا كانت رفقة مناسبة». نظر مباشرة نحو جراحام، ثم نهض فجأة وتوجه إليه.

يبدو أن نظرتة المتفحصة أشعرته بالرضى. جلس الرجل العجوز كأنما شعر بالارتياح لأنه لم يُعد بمفرده. قال: «إيبيه! لكنه وقت عصيب! حرب وقتال، والموتى يرقدون هناك: رجال، رجال أقوياء، يموتون في الظلام. الأبناء! لديّ ثلاثة أبناء. لا يعلم إلا الرب أين هم هذه الليلة». توقف الصوت، ثم كرر مرتعشاً: «لا يعلم إلا الرب أين هم هذه الليلة».

وقف جراحام وذهنه يدور حول سؤال يجب ألا يوضح جهله ثانية. على أن صوت الرجل العجوز أنهى التوقف مرة أخرى.

قال: «أوستروج هذا سيفوز. سيفوز. أما كيف سيكون العالم تحت قيادته، ليس بمقدور أحد أن يعرف. أبنائي، أبنائي الثلاثة أسفل دوائر الرياح. كانت إحدى بنات زوجتي عشيقته لفترة. عشيقته! نحن لسنا من عامة الناس. مع ذلك أرسلوني للتجول هذه الليلة وأخذ فرصتي... كنت أعرف ما يحدث. قبل معظم الناس. لكن هذا الظلام! والسقوط على جثة فجأة في الظلام!».

كان يمكن سماع أزيز تنفسه.

«أوستروج!»، قال جراهام.

قال الصوت: «أعظم زعيم شهده العالم على الإطلاق».

فكر جراهام جيداً، وجازف قائلاً: «ليس لدى المجلس إلا عدد قليل من الأصدقاء بين الناس».

-القليل من الأصدقاء. والفقراء. كان لديهم الوقت. إيه! كان عليهم الاحتفاظ بالأذكىاء. لكنهم أجروا الانتخابات مرتين. وأوستروج... والآن تفجرت الأمور ولا يمكن أن يبقى شيء على حاله، لا يمكن أن يبقى شيء على حاله. رفضوا أوستروج مرتين، أوستروج الزعيم. سمعت عن غضبه في ذلك الوقت... كان فظيلاً. لتنقذهم السماء! ما من شيء على وجه الأرض يمكنهم القيام به الآن، فقد أثار هيئات العمل عليهم. لم يكن أحد غيره ليجرؤ على ذلك. كل من يرتدي الزي الكتاني الأزرق يُعتبر مسلحاً وزاحفاً! سيستمر حتى النهاية. سيستمر.

بقي صامتاً لبعض الوقت، ثم قال: «هذا النائم»، وتوقف عن الكلام.

قال جراهام: «نعم، ماذا عنه؟».

غرق صوت الشيخوخة في همس سري، واقترب الوجه المعتم الشاحب قائلاً: «النائم الحقيقي...».

«نعم»، قال جراهام.

- مات منذ سنوات.

«ماذا؟»، قال جراهام بحدة.

- منذ سنوات. مات. منذ سنوات.

قال جراهام: «أنت لا تعني ذلك!».

- أنا أعني ذلك. أعني ما أقول. لقد مات. أما هذا النائم الذي استيقظ... شخص آخر وضعوه مكانه في الليل. مخلوق فقير مُخدّر، لا يدرك. لكنني يجب ألا أخبرك بكل ما أعرفه. يجب ألا أخبرك بكل ما أعرفه.

استمر لفترة قصيرة يتمم بشكل غير مسموع. كان سره كبيرًا جدًا بالنسبة له. «لا أعرف من الذين جعلوه ينام... كان ذلك في زمن غير زمني... لكنني أعرف الرجل الذي حقنه بالمنشطات وأيقظه مرة أخرى. عشرة أمام واحد... أوقظه أو أقتله. أوقظه أو أقتله. أسلوب أوستروج».

كان جراهام شديد الاندهاش من هذه الأشياء التي قالها الرجل لدرجة أنه اضطر إلى مقاطعته، حتى يجعل العجوز يكرر كلماته، وليعيد سؤاله بشكل غير مباشر قبل أن يتأكد من معنى وحماسة ما سمعه. صحوته لم تكن طبيعية! هل هذا خرف رجل عجوز أيضًا، أم به بعض الحقيقة؟ بحث في الزوايا المظلمة لذاكرته، ووجد شيئًا يمكن اعتباره انطباعًا عن بعض هذه التأثيرات المنشطة. تبادر إلى ذهنه أنه محظوظ بهذا اللقاء؛ إذ يمكنه أخيرًا أن يعرف شيئًا عن العصر الجديد. أصدر العجوز أزيزًا لحظيًا وبصق، ثم استأنف حديثه بصوته عالي النبرة:

- رفضوه أول مرة. لقد تابعت كل شيء.

«رفضوا من؟»، سأله جراهام، «النائم؟».

- النائم؟ لا. بل أوستروج. كان فظيعة... فظيعة! وقد وعدوه آنذاك، وعدوه بالتأكيد في المرة القادمة. كانوا حمقى... بالكف عن الخوف منه. والآن المدينة كلها تحت مسؤوليته، ومثلنا عندما نهيل عليها التراب. نهيل

عليها التراب. وإلى أن يبدأ في العمل: قطع العمال رقاب بعضهم، وقتلوا رجلاً صينياً أو أحياناً شرطياً عمالياً، وتركوا بقيتنا في سلام. جثث القتلى! السرقة! الظلام! لم تحدث مثل هذه الأشياء منذ أكثر من ١٢ دزينة من السنوات. إيبه! لكن هذا سيئ على الصغار عندما يسقط الكبار! هذا سيئ.

- هل قلت... لم تحدث مثل هذه الأشياء... ماذا؟ منذ أكثر من ١٢

دزينة من السنوات؟

«هه؟»، قال الرجل العجوز.

قال العجوز شيئاً عن تشذيب كلماته، وجعله يكرر ذلك مرة ثالثة.

قال العجوز: «القتال والذبح، والأسلحة في متناول اليد، والحمقى يهتفون بالحرية وما إلى ذلك. لم يحدث ذلك طوال حياتي. إنها مثل الأيام الخوالي... بالتأكيد... عندما اندلع شعب باريس... قبل إجمالي ثلاث سنوات. هذا ما أعنيه، لم يكن الأمر على هذا النحو. لكنها طريقة العالم. كان يجب أن تعود. أعرف. أعرف ذلك. وطوال هذه السنوات الخمس كان أوستروج يعمل. وكانت توجد مشاكل ومتاعب، جوع وتهديدات، وارتفاع الكلام والأسلحة. ملابس زرقاء وهمهمات. لا أحد آمن. كل شيء ينزلق وينزلق. وها نحن الآن! التمرد والقتال، والمجلس يقترب من نهايته».

قال جراهام: «أنت على دراية جيدة بهذه الأمور».

- أعرف ما أسمعه. وآلة الثروة ليست معي.

«ليست معك»، قال جراهام متسائلاً عما هي آلة الثروة: «وهل أنت على يقين من أن أوستروج هذا... هل أنت متأكد من أن أوستروج هو مَنْ

تولى تنظيم هذا التمرد وترتيب إيقاظ النائم؟ لمجرد فقط فرض نفسه لعدم انتخابه لعضوية المجلس؟».

قال العجوز: «أعتقد أن الجميع يعرفون ذلك، باستثناء... الحمقى فقط. كان مقصده أن يكون سيدًا بطريقة أو بأخرى، سواء داخل المجلس أو خارجه. كل من يعرف أي شيء يعرف ذلك. وها نحن مع جثث ملقاة في الظلام! لماذا، أين كنت إذا لم تكن قد سمعت كل شيء عن المشكلة بين أوستروج وآل فيرني^(١٧)؟ وماذا تعتقد سبب المشاكل؟ النائم؟ هه؟ هل تعتقد أن النائم حقيقي واستيقظ من تلقاء نفسه... هه؟».

قال جراهام: «أنا رجل ممل، وأكبر مما أبدو، وكثير النسيان. حدثت الكثير من الأشياء... خاصة في السنوات الأخيرة... لو كنت أنا النائم، لأخبرتك بالحقيقة، لم أستطع معرفة القليل عنهم».

قال الصوت: «هه! أنت عجوز؟ لا تبدو كبيرًا جدًا! لكن ليس كل شخص يحتفظ بذاكرته إلى هذه الفترة من حياتي... هذا صحيح. لكن هذه الأشياء سيئة السمعة! لكنك لست عجوزًا مثلي... لست في مثل سني. حسنًا! ربما يجب ألا أحكم على الرجال الآخرين بمفردي. أنا شاب... بالنسبة لرجل عجوز. وربما أنت عجوز بالنسبة لسنك الصغير».

قال جراهام: «هذا صحيح. ولديَّ تاريخ غريب. لا أعرف إلا القليل جدًا. أما التاريخ! لا أعرف التاريخ عمليًا. النائم ويوليوس قيصر هما

(١٧) الإشارة هنا إلى رواية The Verneys: A True Story of Love, War, and Madness in Seventeenth-Century England، للكاتب الإنجليزي أدريان تينيسوود (Adrian Tinniswood). «الترجمة».

الشيء نفسه بالنسبة لي. ومن المثير للاهتمام أن أسمعك تتحدث عن هذه الأشياء».

قال العجوز: «أنا أعرف القليل من الأشياء. أعرف شيئاً أو اثنين. لكن... أنصت!».

صمت الرجلان، ليستمعا. حدثت جلبة شديدة، اهتزاز جعل مقعدهما يرتجف. توقف المارة، وهم يصيحون لبعضهم. كان العجوز مليئاً بالأسئلة، فنادى رجلاً يمر بالقرب منهما. تشجع جراهام من سلوك الرجل، فنهض لمخاطبة الآخرين. لا أحد يعرف ماذا حدث.

عاد إلى المقعد، ووجد الرجل العجوز يتمتم بتساؤلات مبهمة بصوت خفيض. لفترة وجيزة لم يقل أحدهما شيئاً للآخر.

الشعور بهذا النضال العملاق -القريب جداً، ومع ذلك البعيد جداً- أرهق خيال جراهام. هل كان العجوز على حق؟ وهل كانت الأخبار التي يتناقلها الناس صحيحة؟ وهل الثوار يفوزون؟ أم أنهم جميعاً على خطأ، والحراس الحمر يقودون الجميع أمامهم؟ قد يتدفق طوفان الحرب في أي وقت إلى هذا الحي الصامت من المدينة، ويستحوذ عليه مرة أخرى. عليه أن يعرف كل ما بوسعه بينما يتوفر وقت. التفت فجأة متوجهاً إلى العجوز بسؤال، لكنه لم يطرحه. على أن حركته أعادت العجوز إلى الكلام مرة أخرى.

قال العجوز: «إيه! لكن الأمور تتشابك معاً! هذا النائم الذي وضع جميع الحمقى ثقتهم فيه! أعرف تاريخ القصة كله... فقد كنت دائماً جيداً في التاريخ. عندما كنت صبيّاً -أنا عجوز الآن- كنت أقرأ الكتب

المطبوعة. ربما لا تتصور ذلك. من المحتمل أنك لم تَرَ شيئاً؛ فالأشياء تتعفن ويعلوها التراب، وتحرقها هيئة الصحة بهدف صنع نوع من أحجار البناء. لكنها كانت مريحة بطريقتها القذرة. لقد تعلم المرء الكثير. آلات الثرثرة الجديدة هذه... ألا تبدو لك جديدة، هه؟ من السهل سماعها، ومن السهل النسيان. لكنني تتبععت من البداية كافة الأشياء المتعلقة بالنائم».

قال جراهام بيطء: «لن تصدقني، فأنا جاهل جداً... كنت شديد الانشغال بشؤوني الخاصة، حيث كانت ظروفني غريبة جداً... لا أعرف شيئاً عن تاريخ هذا النائم. من هو؟».

«إييه!»، قال العجوز، «أعرف، أعرف. كان فقيراً ونكرة، وتعرّف على امرأة لعوب، روح فقيرة! ودخل في غيبوبة. هناك تلك الأشياء القديمة التي كانت بحوزتهم، تلك الأشياء بُنية اللون... الصور الفوتوغرافية الفضية... التي يظهر فيها راقداً، ١٢ دزينة ونصفاً من السنوات... ١٢ دزينة ونصفاً من السنوات».

«تعرّف على امرأة لعوب، روح فقيرة»، قال جراهام بهدوء لنفسه، ثم قال بصوت عالٍ: «نعم... حسناً، استمر».

- يجب أن تعرف أنه كان لديه ابن عم اسمه وورمينج، وهو رجل منعزل وليس لديه أطفال، وتمكن من تحقيق ثروة كبيرة من المضاربة في الطرق... أول طرق من مادة الإيدامايت. لكنك بالتأكيد سمعت عنه؟ لا؟ لماذا؟ لقد اشترى كافة حقوق الامتياز وأنشأ شركة كبيرة. في تلك الأيام كانت هناك إيرادات من الإيرادات - العديد والعديد من دزينات الدزينات - في الأعمال التجارية المنفصلة والشركات التجارية. دزينات الدزينات!

أنهت طرقه على السكك الحديدية -الأشياء القديمة- في عشرين سنة. اشتراها جميعاً وأنشأ مسارات من الإيداميت. ولأنه لم يرغب في تحطيم ممتلكاته العظيمة أو إشراك مساهمين، ترك كل شيء للنائم، ووضع كل شيء تحت إدارة مجلس أمناء اختاره ودربه بنفسه. كان يعلم حينها أن النائم لن يستيقظ، بل سيستمر في النوم، النوم، إلى أن يموت. كان يعرف ذلك جيداً! وفجأة! قام رجل في الولايات المتحدة، فقد ولدين في حادث قارب، بعمل وصية عظيمة أخرى. وجد أمناء أنفسهم أمام عشرات الآلاف من اللايونات، تبلغ قيمتها أو تزيد على قيمة الممتلكات الأولى.

- ماذا كان اسمه؟

- جراهام.

- لا.. أعني الأمريكي.

- إيسبيستر

صاح جراهام: «إيسبيستر! لماذا، أنا لا أعرف حتى الاسم».

«بالطبع لا»، قال العجوز، «بالطبع لا. ففي أيامنا هذه، لا يتعلم الناس الكثير في المدارس. لكنني أعرف كل شيء عنه. كان أمريكياً ثرياً، ترك إنجلترا وترك للنائم أكثر مما تركه له وورمينج. كيف نجح في ذلك؟ هذا ما لا أعرفه. هناك شيء عن الصور بواسطة الآلات. لكنه نجح وترك ثروته، وهكذا بدأ المجلس أعماله. كان مجرد مجلس أمناء في البداية».

- وكيف تطور؟

- إيسبييه! لكنك لا تعرف هذه الأشياء. المال يجذب المال، واثنا عشر عقلاً أفضل من عقل واحد. لقد لعبوها بذكاء. كانوا يعملون في

السياسة بالمال، واستمروا في إضافة الأموال من خلال العمل في مجال العملة والتعريفات الجمركية. لقد كبروا... كبروا. ظل الأمناء الاثنا عشر يخفون لسنوات نمو ممتلكات النائب تحت أسماء مزدوجة وأسماء شركات وكل تلك الأشياء. تمدد المجلس عن طريق سند الملكية، الرهن العقاري، الحصّة، كل حزب سياسي وكل صحيفة اشتروها. إذا استمعت إلى القصص القديمة، سترى المجلس ينمو وينمو. مليارات ومليارات من الليونات أخيراً... ممتلكات النائب. وكل ذلك نما من رغبة... من إرادة وورمينج هذا، وحادث أبناء إيسبستر.

ثم واصل العجوز قائلاً: «الرجال غريبون. الشيء الغريب بالنسبة لي، هو كيف ظل أعضاء المجلس يعملون معاً لفترة طويلة؟ حوالي اثنتي عشرة سنة. لكنهم عملوا في مجموعات منذ البداية، ثم تراجعوا. في أيام شبابي كان الحديث عن المجلس مثل رجل جاهل يتحدث عن الرب. لم نعتقد أنهم يمكن أن يرتكبوا أخطاء. لم نعرف أي شيء عن نسايتهم وحياتهم! وإلا لأصبحت أكثر حكمة».

قال العجوز: «الرجال غريبون. ها أنت ذا، شاب وجاهل؛ وأنا... البالغ من العمر سبعين سنة، وربما قبل أن أنهض أكون قد قدمت لك شرحاً معقولاً... يوضح لك كل شيء باختصار ووضوح».

قال: «سبعون. سبعون، وأسمع وأرى... أسمع أفضل مما أرى. وأفكر بوضوح، وأحافظ على اطلاعي على جميع مجريات الأمور. سبعون!».

أضاف العجوز: «الحياة غريبة. كنت في العشرين قبل أن يكون

أوستروج رضيعًا. أتذكره منذ فترة طويلة، قبل أن يشق طريقه إلى رئاسة التحكم في دوارات الرياح. لقد رأيت العديد من التغييرات. إيبه! لقد ارتديت الزي الأزرق. وفي النهاية، أرى هذا الانهيار، والظلام، والاضطراب، والرجال الموتى يُحمَلون ويُضَعون في أكوام على الطرق. وكل ما يفعله! كل ما يفعله!».

تلاشى صوته وهو بالكاد ما يمدح أوستروج بوضوح. فكر جراهام، ثم قال: «دعني أرى إن كنت قد فهمت على نحو صحيح».

مد يده وأخذ يعد على أصابعه. «كان النائم نائمًا...». قال العجوز: «تم استبداله».

-ربما. وفي غضون ذاك تعاظمت ممتلكات النائم على أيدي اثني عشر من الأمناء، حتى ابتلعت ما يقرب من ملكية العالم الكبيرة كلها. وبحكم هذه الملكية، أصبح الأمناء الاثنا عشر سادة العالم. ولأنهم القوة التي تدفع الثمن... مثلما كان البرلمان الإنجليزي القديم...

قال العجوز: «إيبه! هذا صحيح... إنها مقارنة جيدة. أنت لست...».

-والآن، أحدث أوستروج هذا ثورة مفاجئة في العالم من خلال إيقاظ النائم، الذي لم يكن أحد يحلم سوى عامة الناس المؤمنين بالخرافات أنه سيستيقظ مرة أخرى؛ أيقظه لمطالبة المجلس بممتلكاته بعد كل هذه السنوات.

أيد الرجل العجوز هذا الكلام وهو يسعل. قال: «من الغريب أن أقابل رجلًا يتعرف على هذه الأشياء الليلة للمرة الأولى».

قال جراهام: «نعم، هذا غريب».

قال العجوز: «هل كنت في مدينة المتعة؟ كنت أتوق إليها طوال حياتي». ثم أضاف ضاحكاً: «حتى الآن يمكنني الاستمتاع ببعض المرح. على أي حال، أنا أستمتع برؤية الأشياء». تمتم بعبارة لم يفهمها جراهام. سأله جراهام فجأة: «النائم... متى استيقظ؟».

- قبل ثلاثة أيام.

- وأين هو؟

- هو عند أوستروج. لقد هرب من المجلس منذ أربع ساعات. سيدي العزيز، أين كنت في ذلك الوقت؟ كان في قاعة الأسواق، حيث يدور القتال. كانت المدينة كلها تصرخ حوله. جميع آلات الثروة. كان الصياح في كل مكان. حتى الحمقى الذين يتكلمون باسم المجلس يعترفون بذلك. كان الجميع يهرع لرؤيته... ويحصلون على السلاح. هل كنت ثملاً أم نائماً؟ حتى حينذاك! لكنك تمزح! أنت تتظاهر بالتأكيد. ولوقف صراخ آلات الثروة ومنع الناس من التجمع، قطعوا الكهرباء... وغمرونا بهذا الظلام اللعين. هل تقصد أن تقول...؟

قال جراهام: «لقد سمعت بإنقاذ النائم. لكن... أود العودة لما قلته من دقيقة. هل أنت متأكد من أنه مع أوستروج؟».

قال العجوز: «لن يدعه يذهب».

- والنائم. هل أنت متأكد أنه ليس الحقيقي؟ لم أسمع قط...

- هذا ما يعتقد كل الحمقى. هذا ما يعتقدونه. كأنما لا يوجد ألف شيء لم نسمع به من قبل. ولذلك أنا أعرف أوستروج جيداً. هل أخبرتك؟

لديّ نوع من العلاقة مع أوستروج. علاقة من نوع ما. من خلال زوجة ابني.
- أعتقد...

- ماذا؟

- أعتقد لا توجد فرصة لهذا النائم كي يُثبت نفسه. أتصور أنه سيصبح
دمية بالتأكيد... في يد أوستروج أو في يد المجلس، بمجرد انتهاء الصراع.
- في يد أوستروج... بالتأكيد. لماذا لا يصبح دمية؟ انظر إلى وضعه.
لقد فعل كل شيء من أجله، كل متعة ممكنة. لماذا يرغب في إثبات نفسه؟
سأله جراهام فجأة: «ما هي مدن المتعة هذه؟».

طلب منه العجوز تكرار السؤال. وعندما تأكد أخيرًا من كلمات
جراهام، دفعه بعنف وقال: «هذا كثير. أنت تسخر من رجل عجوز. كنت
أشك أنك تعرف أكثر مما تتظاهر به».

قال جراهام: «ربما. ولكن لا، لماذا أواصل التمثيل؟ كلا، أنا لا أعرف
ما هي مدينة المتعة».

ضحك الرجل العجوز بحميمية.

- الأكثر من ذلك أنني لا أعرف كيفية قراءة حروفكم، ولا أعرف
العملة النقدية التي تستخدمونها، ولا أعرف ما الدول الأجنبية الموجودة.
لا أعرف أين أنا. لا أستطيع العد. لا أعرف من أين أحصل على طعام، أو
شراب، أو مأوى.

قال العجوز: «تعال، تعال. إذا كان لديك كوب من الشراب الآن، هل
ستضعه في أذنك أو في عينيك؟».

- أريدك أن تخبرني بكل هذه الأشياء.

«ها، ها! حسنًا، يجب أن يستمتع السادة الذين يرتدون الحرير»،
داعبت يد ذابلة ذراع جراهام للحظة، «الحرير. حسنًا، حسنًا! لكنني، مع
ذلك، أتمنى لو كنت الرجل الذي وضعوه باعتباره النائب. سيستمتع بوقت
جيد. كل الأبهة والمتعة. مظهر وجهه غريب. عندما اعتادوا السماح للناس
برؤيته، حصلت على تذاكر وذهبت. كان هذا البديل يشبه تمامًا الرجل
الحقيقي، كما تظهره الصور. أصفر. لكنه سيضجر. إنه عالم غريب. فكر
في حظه... حظه. أتوقع أنهم سيرسلونه إلى كابري، فهي أفضل متعة
لرؤية أكثر الأماكن اخضرًا».

أدركه السعال مرة أخرى. ثم بدأ يتمتم بحسد عن الملذات والمسرات
الغريبة: «إنه الحظ، الحظ! لقد أمضيت حياتي في لندن، بأمل الحصول
على فرصتي».

وفجأة قال جراهام: «لكنك لا تعرف أن النائب مات».
طلب منه العجوز تكرار كلماته.

ثم قال: «لا يعيش الرجال أكثر من عشر دزينات من السنوات. هذا
ليس من طبيعة نظام الأشياء. أنا لست أحمق. الحمقى قد يصدقون ذلك،
لكنني لست أحمق».

غضب جراهام من تأكيدات الرجل العجوز، فقال: «سواء كنت
أحمق أو لم تكن، لكنك مخطئ فيما يتعلق بالنائم».
- هه؟

- أنت مخطئ فيما يتعلق بالنائم. لم أخبرك من قبل، لكنني سأخبرك
الآن. أنت مخطئ بشأن النائب.

- وكيف تعرف؟ تصورت أنك لا تعرف أي شيء، ولا حتى عن مدن المتعة.

صمت جراهام.

قال العجوز: «أنت لا تعرف، كيف لك أن تعرف؟ قليلون جدًا من الرجال...».

- أنا النائم.

كان عليه أن يكرر ذلك.

سادت فترة صمت قصيرة، ثم قال العجوز: «ما تقوله سخيف يا سيدي، إذا سمحت لي. قد توقع نفسك في ورطة في وقت مثل هذا».

كرر جراهام تأكيده على نحو متقطع قليلًا.

- كنت أقول إنني النائم. قبل سنوات وسنوات، نمت بالفعل في قرية صغيرة مبنية بالحجارة، في الأيام التي كانت توجد فيها أسوار، وقرى، ونُزل، وكان الريف كله مُقسَّمًا إلى قطع صغيرة، حقول صغيرة. أُلْمَ تسمع عن تلك الأيام من قبل؟ وأنا، أنا من يتحدث إليك، هو الشخص الذي لم يستيقظ مرة أخرى منذ ذلك الحين إلا من أربعة أيام.

- أربعة أيام!... النائم! لكن النائم لديهم. النائم لديهم ولن يتركوه يذهب. هذا هراء! لقد كنت تتحدث بعقلانية حتى الآن. أستطيع أن أرى الوضع كما لو كنت هناك. سيوجد لينكولن كحارس خلفه مباشرة. لن يتركوه يذهب بمفرده. ثق بهم. أنت زميل غريب. أحد لاعبي البوكر المرحين. أرى الآن لماذا كانت كلماتك متقطعة بشكل غريب جدًا، ولكن...

توقف فجأة، ورأى جراهام إيماءته.

- كما لو أن أوستروج يمكن أن يدع النائمت يتحرك بمفرده! لا، أنت تقول ذلك للرجل الخطأ تمامًا. إيبه! كأنني يجب أن أصدق. ما لعبتك؟ وإلى جانب ذلك، كنا نتحدث عن النائمت.

وقف جراهام وقال: «اسمع.. أنا النائمت».

قال العجوز: «أنت رجل غريب. أن تجلس هنا في الظلام، وتحدث بشكل متقطع، وتقول كذبة من هذا النوع. لكن...».

تحول غضب جراهام إلى ضحك. صاح: «هذا منافٍ للعقل. منافٍ للعقل. يجب أن ينتهي الحلم. لكنه يزداد غرابة. ها أنا ذا، في هذا الشفق الملعون، لم أعرف حلمًا في الشفق من قبل، يا لها من مفارقة تاريخية، شيء حدث قبل مائتي عام وأحاول إقناع أحقق عجوز بأنني نفسي، وفي الوقت نفسه... أف!».

تحرك وهو في حالة غضب شديد بخطى واسعة. في لحظة كان الرجل العجوز يلاحقه. صاح: «إيبه! لا تذهب! أعرف أنني عجوز أحقق. لا تذهب. لا تتركني في كل هذا الظلام».

تردد جراهام، توقف. وَمَضَتْ في ذهنه فجأة حماقة الإفشاء بسرّه.

قال الرجل العجوز الذي اقترب: «لم أقصد الإساءة إليك بعدم تصديقك. ليس هناك أي ضرر. سَمَّ نفسك النائمت إذا كان هذا يرضيك. إنها خدعة حمقاء...».

تردد جراهام، ثم استدار فجأة وذهب في طريقه.

ظل لفترة يسمع الرجل العجوز يتعثر في مطارده، ثم أخذ أزيز صيحاته يتلاشى. لكن الظلام ابتلعه أخيرًا، ولم يعد جراهام يراه.

الفصل الثاني عشر

أوستروج

أصبح جراهام الآن قادرًا على فهم وضعه بصورة أوضح. ظل يتجول لفترة طويلة. وبعد حديثه مع الرجل العجوز، أصبح العثور على أوستروج هذا مسألة واضحة في ذهنه كقرار نهائي لا مفر منه. أدرك أن مَنْ كانوا في مقر الثورة قد نجحوا بشكل مثير للإعجاب في إخفاء حقيقة اختفائه. لكنه كان يتوقع في كل لحظة أن يسمع تقرير وفاته، أو إلقاء القبض عليه من جانب المجلس.

توقف أمامه رجل الآن وسأله: «هل سمعت؟».

أجاب جراهام: «كلا!».

قال الرجل: «حوالي دوزاند! دوزاند^(١٨) من الرجال!»، ثم مضى مسرعًا. مر عدد من الرجال وفتاة في الظلام، وهم يحركون رؤوسهم ويصيحون: «استسلموا! استسلموا!»، «دوزاند من الرجال»، «دوزاندان من الرجال». «أوستروج، مرحى! أوستروج، مرحى!». ثم بدأت هذه الهتافات تبتعد، حتى تلاشت.

(١٨) الدوزاند: هو دزينة الاثنتي عشرة دزينة، كما أوضح الكاتب في فصل سابق. «المرجمة».

تبعهم رجال آخرون يهتفون. انشغل انتباهه لفترة فيما سمعه من أجزاء الكلام. كان لديه شك فيما إذا كان الجميع يتحدثون الإنجليزية. وصل إلى سمعه بعض كلمات؛ كلمات إنجليزية هجينة، مثل الكلمة العامة «سود البشرة» (Negro)، غير واضحة ومشوهة. لم يجرؤ على الاقتراب من أحد ليسأله. كان الانطباع الذي استقاه من الناس يتناقض تمامًا مع مفاهيمه المسبقة عن النضال وتؤكد إيمان الرجل العجوز بأوستروج. ولم يتمكن إلا ببطء أن يجعل نفسه يعتقد أن كل هؤلاء الناس يبنهجون لهزيمة المجلس، وأن المجلس الذي لاحقه بهذه القوة والنشاط هو في نهاية المطاف أضعف طرفي الصراع. وإذا كان الأمر كذلك، كيف يؤثر عليه؟ تردد مرات عديدة وهو على وشك توجيه أسئلة أساسية. استدار مرة وسار لفترة طويلة وراء رجل بدين ضئيل الحجم ليسأله عن بعض الخطوط العريضة، لكنه لم يتمكن من التحلي بالثقة لمخاطبته.

توصل بتدريج بطيء أن يسأل عن «مكاتب دوارات الرياح»، مهما كانت. أسفر سؤاله الأول ببساطة عن اتجاه يأخذه إلى وستمنستر. وأسفر الثاني عن اكتشاف طريق مختصر، سرعان ما تاه فيه. قيل له أن يترك الطرق التي حصر نفسه فيها حتى الآن -دون أن يعرف أي وسيلة أخرى للمرور- وأن ينزل أحد السلالم الوسطى إلى ظلام طريق متقاطع. وهنا واجه مغامرات عديمة الأهمية؛ وعلى رأسها لقاء غامض مع مخلوق غير مرئي خشن الصوت، يتحدث بلهجة غريبة بدت في البداية لغة غريبة، تدفق كثيف للكلام مع بقايا منجرفة من الكلمات الإنجليزية، لهجة هذا العصر الحقيقرة. ثم اقترب صوت آخر، صوت فتاة تغني «ترالالا، ترالالا». تحدثت مع جراهام بلغة إنجليزية من النوعية نفسها. قالت إنها

فقدت شقيقتها، وأخطأت في حقه دون داع - كما تصور - وأمسكت به وضحكت. لكن كلمة احتجاجه المبهمة أرسلتها إلى الظلام مرة أخرى. تزايدت الأصوات حوله. مر به أناس يتمايلون، ويتحدثون بحماس. «لقد استسلموا!»، «المجلس! بالتأكيد ليس المجلس!»، «يقولون ذلك في مختلف الطرق». بدا الممر أكثر اتساعًا. وفجأة سقط الجدار. كان في مكان واسع، والناس يتحركون عن بعد. استفسر عن طريقه من شخصية غير واضحة. «واصل مباشرة»، قال صوت امرأة. ترك الجدار الذي يوجهه، وتعثر بعد لحظة على طاولة صغيرة عليها أوعية زجاجية. اعتادت عينا جراهام على الظلام الآن، رأى مشهدًا طويلًا توجد موائد على جانبيه. توجه إليه. عند مائدة أو مائدتين، سمع قعقة الزجاج وصوت أكل. هناك إذن أشخاص لطفاء يتناولون الطعام، أو لديهم من الجراءة ما يكفي لسرقة وجبة على الرغم من الاضطرابات الاجتماعية والظلام. رأى الآن - عن بُعد وعلى ارتفاع - ضوءًا باهتًا على شكل شبه دائري. وعندما اقترب منه، ظهرت حافة سوداء وأخفته. تعثر على السلالم ووجد نفسه في دهليز. سمع بكاء، ووجد فتاتين صغيرتين خائفتين جاثمتين بجانب الدرايزين. صمتت الطفلتان عند سماعهما صوت اقتراب قدمين. حاول مواساتهما، لكنهما بقيتا ساكنتين إلى أن تركهما. وعندما ابتعد عنهما، سمع نحييهما مرة أخرى.

وجد نفسه الآن أسفل سلم وبالقرب من فتحة واسعة. رأى شفقًا خافتًا في أعلى، صعد من السواد إلى أحد شوارع الطرق المتحركة مرة أخرى. كان يسير على طول هذا الشارع حشد غير منظم من الناس الذين يصبحون. كانوا يغنون مقتطفات من أغنية الثورة، ومعظمهم يخرج عن

اللحن. توهجت المشاعل هنا وهناك، مما خلق ظلالاً هستيرية قصيرة. سأل عن الطريق الذي يريده، وكان في حيرة مرتين من نفس اللهجة الثقيلة. فازت محاولته الثالثة بجواب تمكن من فهمه. كان على مسافة ميلين من مكاتب دوارات الرياح في وستمنستر، والطريق يسهل اتباعه.

اقترب أخيراً من حي مكاتب دوارات الرياح. شاهد مواكب الهتاف التي تسير على طول الطرق، وصخب الابتهاج، وأخيراً استعادة إضاءة المدينة؛ فتصور أن الإطاحة بالمجلس لا بد أنها تحققت بالفعل. ومع ذلك، لم يصل إلى سماعه حتى الآن أي أخبار عن غيابه.

جاءت إعادة إضاءة المدينة على نحو مفاجئ مذهل. وقف فجأة وعيناه ترمشان، وحوله في كل مكان توقف الرجال مبهورين. كان العالم متوهجاً. وجده الضوء بالفعل على مشارف الحشود المتحمسة التي خنقت الطرق بالقرب من مكاتب دوارات الرياح. أدى الشعور بالرؤية والكشف الذي جلبه الضوء إلى تحول نيته الفاترة للوصول إلى أوستروج إلى تلهف شديد.

ظل لفترة يتعرض للتزاحم والعرقلة، والخطر من جانب رجال أفظاظ، أتعبهم الهتاف باسمه، وبعضهم مُغطى بالضمادات والدماء بسبب قضيته التي يدافع عنها. كانت واجهة مكاتب دوارات الرياح مضاءة بصورة متحركة، لكنه لم يتمكن من رؤيتها؛ فقد حالت كثافة الحشد دون اقترابه منها، على الرغم من محاولاته المضنية. فهم مما سمعه من كلمات متناثرة أن الصورة تنقل أخبار القتال عند مقر المجلس. قاده الجهل والتردد إلى بطء حركته وعدم فاعليتها. ظل لفترة لا يعرف كيف يمكنه الدخول إلى

واجهه هذا المكان غير المحطمة. شق طريقه ببطء إلى وسط هذه الكتلة من الناس، حتى أدرك أن السلم التنازلي للطريق المركزي يؤدي إلى داخل المباني. وهو ما جعله يحدد هدفًا، لكن الازدحام في المسار المركزي كان شديد الكثافة لدرجة أنه استغرق وقتًا طويلاً قبل أن يصل إليه. وحتى عندما وصل، واجه عقبات كؤودًا؛ فقد استمر لساعة في جدل حاد أولاً في غرفة الحرس، ثم ساعة أخرى قبل أن يتمكن من الحصول على مذكرة تؤخذ إلى الرجل الوحيد الذي يحرص على رؤيته من بين جميع الرجال. نالت قصته الضحك وتعرضت للسخرية في أحد الأماكن. وعندما وصل أخيرًا إلى السلم الثاني، تحلى بالحكمة وأعلن ببساطة أن لديه أخبارًا فائقة الأهمية لأوستروج، ولن يستطيع الإفصاح عنها. وعندئذ، أرسلوا مذكرته على مضض. انتظر لفترة طويلة في غرفة صغيرة عند المصعد. وأخيرًا جاء لينكولن متلهفًا، ومعتذرًا، ومندهشًا. توقف في المدخل يتفحص جراحاهم بدقة، ثم اندفع إلى الأمام مبتهجًا.

صاح: «نعم. إنه أنت، ولست ميتًا!».

قدم جراحاهم تفسيرًا موجزًا.

أوضح لينكولن: «شقيقي ينتظرك. إنه بمفرده في مكاتب دوارات الرياح. كنا نخشى أن تكون قد قُتلت في المسرح. لقد تشكك، وإلا لجاء إليك؛ فالأمور لا تزال عصيبة للغاية، على الرغم مما نقوله لهم هناك».

ارتفع بهما المصعد. مرا على طول مسار ضيق، وعبرا قاعة كبيرة فارغة إلا من اثنين من حاملي الرسائل المستعجلين، ثم دخلا غرفة صغيرة نسبيًا، كانت قطع الأثاث الوحيدة التي تضمها هي كنبه طويلة، وأسطوانة

بيضاوية كبيرة من اللون الرمادي الغائم والمتغير، معلقة بواسطة أحبال في الجدار. وهنا ترك لينكولن جراهام لفترة. بقي جراهام وحده دون فهم الأشكال الدخانية التي تتحرك ببطء من هذه الأسطوانة.

أثار انتباهه صوت بدأ فجأة. كان هتافاً، هتافاً محمومًا يصدر عن حشد كبير لكنه بعيد جدًا. ابتهاج صاخب. انتهى بحدة كما بدأ، مثل صوت تسمعه بين فتح باب وإغلاقه. صدر من الغرفة الخارجية ضجيج خطوات متسارعة وخشخشة منتظمة، كأنها لسلسلة فضفاضة تدور على أسنان عجلة.

ثم سمع صوت امرأة، حفيف ملابس غير مرئية. سمعها تقول: «إنه أوستروج!». رن جرس صغير بشكل متقطع، ثم خيم السكون مرة أخرى على كل شيء.

سمع الآن بعض أصوات وخطوات حركة في الخارج. خطوات شخص منفصلة عن الأصوات الأخرى، واقتربت خطوات ثابتة على مسافات متساوية. ارتفع الستار ببطء. ظهر رجل طويل القامة، شعره أبيض، ويرتدي ملابس من الحرير باللون الكريمي، ينظر إلى جراهام من تحت ذراعه المرفوعة.

ظل الرجل ذو الهيئة البيضاء ممسكًا بالستارة للحظة، ثم أسقطها ووقف أمامها. كان أول انطباع تبادر إلى ذهن جراهام هو جبهة الرجل الواسعة، وعينه الزرقاوان الشاحبتان اللتان تغرقان أسفل حاجبين أبيضين، فضلًا عن أنف معقوف وفم حازم سميك. كانت ثنايا اللحم على العينين وتدلي زوايا الفم تعارض مع وقفته المستقيمة، وتشير إلى أن الرجل كبير

في السن. نهض جراهام واقفاً على نحو غريزي. وقف الرجلان في صمت للحظات، ينظر كل منهما إلى الآخر.

قال جراهام: «أنت أوستروج؟».

- أنا أوستروج.

- القائد؟

- هذا ما أدعى به.

شعر جراهام بإزعاج الصمت. وبادر قائلاً: «يجب أن أشكر بك بشكل أساسي - كما فهمت - على سلامتي».

قال أوستروج: «كنا نخشى من قتلك، أو تنويمك مرة أخرى... إلى الأبد. كنا نفعل كل ما في وسعنا للحفاظ على سرنا... سر اختفائك. أين كنت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟».

أخبره جراهام بإيجاز.

استمع أوستروج في صمت.

ابتسم برفق. قال: «هل تعرف ماذا كنت أفعل عندما جاؤوا ليخبروني أنك أتيت؟».

- كيف يمكنني التخمين؟

- إعداد بديل.

- بديلي؟ لدي بديل؟

- رجل يشبهك بقدر الإمكان. كنا سننومه مغناطيسيًا لننقذه من صعوبة التمثيل. كان ذلك ضروريًا. تعتمد هذه الثورة كلها على فكرة أنك استيقظت، وأنت على قيد الحياة، ومعنا. وحتى الآن يتجمع حشد كبير

من الناس في المسرح ويصيحون مطالبين برؤيتك. إنهم لا يثقون... أنت تعرف بالطبع شيئاً عن وضعك؟
قال جراهام: «القليل جداً».

«سأوضح لك». سار أوستروج خطوة أو خطوتين في الغرفة ثم استدار. قال: «أنت المالك المطلق للعالم. أنت مالك الأرض. سلطاتك محدودة بطرق عديدة مُعقدة، لكنك الشخصية الرئيسة والرمز الشعبي للحكومة. هذا المجلس الأبيض، مجلس الأمناء كما يُسمى...»
- سمعت الخطوط العريضة المبهمة لهذه الأمور.

- أستغرب!

- قابلت رجلاً عجوزاً ثرثاراً.

«فهمت... جماهيرنا - والكلمة تأتي من عصرك - تعرف بالطبع أنه لا يزال لدينا جماهير... ويعتبرونك حاكمنا الفعلي. تمامًا كما كان عدد كبير من الناس في أيامك ينظرون إلى التاج باعتباره الحاكم. إنهم مستأوون... الجماهير في جميع أنحاء الأرض مستاءة من حكم أمنائك. وهذا الاستياء في معظم الأحيان هو السخط القديم، والمشاجرة القديمة بين الرجل العادي والشأن العام: يؤس العمل والانضباط، وعدم اللياقة. لكن حكم أمنائك كان سيئاً. افتقروا إلى الحكمة في بعض الأمور، كإدارة شركات العمل على سبيل المثال. وقد نالوا فرصاً لا نهاية لها. أما نحن - الطرف الشعبي - فقد كنا نحرض على الإصلاحات.. عندما حدث استيقاظك. حدث! لو كان مُدبّرًا ما كان حدث في توقيت أكثر ملاءمة»، ابتسم، «العقل العام، الذي لا يلتمس العذر للسنوات التي أمضيته في غيبوبة، قد توصل بالفعل إلى فكرة إيقاظك ومناشدتك، و... فجأة!».

أشار بإيماءة إلى اندلاع الثورة، وحرك جراهام رأسه لإظهار أنه فهم.
-اضطرب المجلس... وتشاجر. يفعلون ذلك دائماً. لم يستطيعوا
اتخاذ قرار بشأن ماذا يفعلون بك. هل تعرف كيف سجنوك؟

- فهمت. فهمت. والآن.. نحن نفوز؟

- نفوز. نحن نفوز بالفعل. الليلة، خلال خمس ساعات سريعة. لقد
وجهنا ضرباتنا فجأة في كل مكان. العاملون في دوارات الرياح، شركة
العمل وملايينها، فجروا الروابط. حصلنا على قوة سحب الطائرات.
«نعم»، قال جراهام.

- كان ذلك ضرورياً بالطبع، وإلا لتمكنوا من الهرب. لقد هبّت
المدينة كلها، شارك تقريباً كل رجل من بين ثلاثة رجال! شارك جميع
أصحاب الملابس الزرقاء، وجميع أفراد الخدمات العامة، باستثناء عدد
قليل فقط من الطيارين وحوالي نصف الشرطة الحمراء. لقد أنقذناك،
ونجحنا في تفكيك شرطتهم الخاصة بالطرق أو نزع سلاحها أو قتلها؛
ولم يعد بإمكانهم حشد نصفها عند مقر المجلس. لندن كلها لنا الآن.
لم يبق سوى مقر المجلس. نصف الذين بقوا لهم من الشرطة الحمراء،
انتهت حياتهم في تلك المحاولة الحمقاء لاستعادتك. فقدوا رؤوسهم
عندما فقدوك. لقد ألقوا بكل ما لديهم في المسرح. وهناك، قطعنا كل
صلة لهم بمقر المجلس. كانت الليلة بحق هي ليلة النصر. تألق نجمك
في كل مكان. قبل يوم واحد كان المجلس الأبيض يحكم كما حكم لأكثر
من مائة سنة، لقرن ونصف، ثم قمنا بعد ذلك، وبقليل من الهمس، بتسليح
سري هنا وهناك، وفجأة... حدث ما حدث!

قال جراهام: «أنا جاهل للغاية. أعتقد أنني لا أفهم بوضوح ظروف هذا القتال. لو أمكنك أن توضح لي. أين المجلس؟ أين القتال؟».

خطا أوستروج عبر الغرفة، ونقر على شيء. وفجأة ساد الظلام، باستثناء توهج بيضاوي. شعر جراهام بالحيرة للحظة.

ثم رأى أن الأسطوانة الرمادية الغائمة قد اتخذت عمقاً ولوناً، كما اتخذت شكل نافذة بيضاوية تطل على مشهد غريب غير مألوف.

لم يتمكن للوهلة الأولى من تخمين المشهد. كان مشهدَ نهارٍ، نهار يوم شتوي، رمادي ورائق. وعبر الصورة، وفي منتصف الطريق تقريباً بينه وبين أبعد جزء في المشهد، امتد عمودياً حبل قوي من الأسلاك البيضاء الملتوية. ثم أدرك أن صفوف عجلات الرياح الكبيرة التي رآها، والفواصل الزمنية الواسعة، وهوات الظلام المتباعدة، كانت تشبه تلك التي هرب من خلالها من مقر المجلس. تمكن من تمييز طابور منظم لشخصيات ترتدي ملابس حمراء وتسير عبر مساحة مفتوحة بين طوابير من رجال يرتدون ملابس سوداء. وأدرك قبل أن يتحدث أوستروج أنه كان ينظر إلى أسفل، إلى السطح العلوي للندن في اليوم الأخير. اختفت الثلوج بين عشية وضحاها. ذهب إلى أن هذه المرأة كانت بديلاً حديثاً للحجرة المظلمة في الكاميرا، لكن أحداً لم يشرح له هذه المسألة. رأى أنه على الرغم من أن طابور الشخصيات ذات الملابس الحمراء كان يركض من اليسار إلى اليمين، فقد كانوا يخرجون من المشهد في اتجاه اليسار. تعجب للحظات، ثم رأى أن الصورة تتحرك ببطء، على نمط البانوراما، عبر النافذة البيضاوية.

قال أوستروج: «سترى القتال بعد لحظة. لاحظ أن الزملاء الذين يرتدون ملابس حمراء هم السجناء. هذا هو سقف لندن، جميع المنازل الآن تتواصل عملياً. والشوارع والساحات العامة مغطاة. اختفت الفجوات والصدوع التي كانت موجودة في عصرك».

طمس شيء خارج البؤرة نصف الصورة. شكله يوحي بأنه رجل. كان هناك بريق معدني، ومضة، شيء اكتسح النافذة البيضاء، كجفن طائر يكتسح عينه، ثم اتضحت الصورة مرة أخرى. والآن يرى جراهام رجالاً يركضون بين عجلات الرياح، مشيرين بالأسلحة التي تنبعث منها ومضات دخانية صغيرة. زاد اندفاعهم كثافة إلى اليمين، وهم يلوحون. ربما يصرخون، لكن الصورة لم تقل شيئاً. تحرك مشهدهم وعجلات الرياح ببطء وثبات خلال مجال المرأة.

«والآن»، قال أوستروج، «يأتي مقر المجلس». تسللت ببطء حافة سوداء إلى المشهد، ولفتت انتباه جراهام. وسرعان ما لم تعد حافة وإنما تجويفاً، مساحة سوداء ضخمة وسط الصروح المتجمعة، ومن هناك ارتفعت أبراج رقيقة من الدخان إلى سماء الشتاء الباهتة. ارتفعت بكآبة من هذا الظلام الكهفي كتل مُدمّرة هزيلة للمبنى، وجسور وعوارض جبارة مبتورة. وعلى بقايا هذا المكان الرائع، كان عدد لا يحصى من الرجال صغار الحجم يتسلقون، ويقفزون، ويحتشدون.

قال أوستروج: «هذا مقر المجلس. معقلهم الأخير. أهدر الحمقى ما يكفي من الذخيرة للصمود لمدة شهر في تفجير المباني حولهم... لوقف هجومنا. هل سمعت صوت التحطيم؟ لقد تحطم نصف الزجاج الهش في المدينة».

وبينما كان يتحدث، رأى جراهام أن وراء هذه المنطقة من الأنقاض تبرز منها كتلة مهشمة من مبنى أبيض، ترتفع ارتفاعاً كبير. وقد انعزلت هذه الكتلة بسبب الدمار الوحشي الذي لحق بمحيطها. وكانت الفجوات السوداء هي التي ميزت المسارات التي حطمتها الكارثة؛ انفتحت القاعات الكبيرة وظهرت زخارفها الداخلية بشكل مفرع في الفجر الشتوي، وتدلّت على الجدران الخشنة مجموعات من أحبال منقسمة ونهايات ملتوية من شرائط وقضبان معدنية. ووسط كل التفاصيل الهائلة، تحركت نقاط حمراء صغيرة تمثل المدافعين ذوي الملابس الحمراء الذين يدافعون عن المجلس. وبين الحين والآخر، كانت ومضات خافتة تضئ الظلال القاتمة. للوهلة الأولى بدا لجراهام أن الهجوم على هذا المبنى الأبيض المعزول يحقق تقدماً، لكنه أدرك بعد ذلك أن حزب الثورة لم يكن يتقدم، بل يحتمي وسط الحطام الهائل الذي يحيط بهذا المعقل الأخير المُتهَم والرجال ذوي الملابس الحمراء يواصلون إطلاق النار على نحو متقطع.

ولم يكن قد مر عشر ساعات عندما وقف تحت مراوح التهوية في غرفة صغيرة داخل ذلك المبنى البعيد متسائلاً عما يحدث في العالم!

نظر باهتمام أكبر إلى هذه الواقعة التي تشبه الحرب، وهي تتحرك بصمت وسط المرأة. رأى جراهام المبنى الأبيض محاطاً من كل جانب بالأنقاض، وبدأ أوستروج يصف في عبارات موجزة كيف سعى المدافعون عنه إلى عزل أنفسهم عن العاصفة خلال هذا الدمار. تحدث بنبرة لا مبالية عن فقدان رجال نتيجة هذا السقوط الهائل. وأشار إلى موضع ارتجالي للموتى بين الحطام، وسيارات الإسعاف تتجمع مثل سوس الجبن على طول أخذود مُدَمَّر كان في السابق شارعاً من شوارع الطرق المتحركة.

وكان أكثر اهتمامًا بالإشارة إلى أجزاء مقر المجلس، وتوزيع المحاصرين. وبعد فترة وجيزة، لم يعد الصراع المدني الذي زلزل لندن لغزاً لجراهام. لم يكن ما وقع الليلة تمرّدًا عنيفًا أو حربًا متساوية، وإنما انقلابًا منظمًا بشكل رائع. كان فهم أوستروج للتفاصيل مذهلاً؛ فقد ظهرت معرفته بالموضوع كاملاً، حتى أصغر نقطة من البقع السوداء والحمراء التي زحفت وسط هذه الأماكن.

مد ذراعه السوداء الضخمة إلى الصورة المضيئة، وأظهر الغرفة التي هرب منها جراهام، وحركته بعد هروبه خلال الفجوات بين الأنقاض. تعرّف جراهام على الهاوية التي يمر خلالها المزراب، وعلى عجلات الرياح حيث جثم ليختبئ من الآلة الطائرة. أما بقية مساره، فقد أجهز عليه الانفجار. نظر مرة أخرى إلى مقر المجلس، وكان نصفه مخفيًا بالفعل. وعلى اليمين، كان يظهر في المشهد منحدر تل مع مجموعة من القباب والأبراج، ضبابية وقاتمة وبعيدة.

سأل: «وهل أطيع بالمجلس فعلاً؟».

أجاب أوستروج: «أطيع به».

- وأنا... هل صحيح بالفعل أنني...؟

- أنت سيد العالم.

- لكن، ذلك العلم الأبيض...

- هذا علم المجلس، علم حُكم العالم. سيسقط. المعركة انتهت.

هجومهم على المسرح كان صراعهم المحموم الأخير. ليس لديهم إلا ألف رجل أو نحو ذلك، وستجد أن بعض هؤلاء الرجال خونة. ذخيرتهم قليلة. ونحن نقوم بإحياء الفنون القديمة. نحن نُصّب البنادق.

- لكن... العون. هل هذه المدينة هي العالم؟

- هي عملياً كل ما تبقى لهم من إمبراطوريتهم. أما المدن في الخارج،
فإما ثارت معنا وإما تنتظر ما يسفر عنه الأمر. استيقاظك أثار حيرتهم
وأصابهم بالشلل.

- لكن المجلس يمتلك آلات الطيران؟ لماذا لا يستخدمها في القتال؟
- استخدموها. لكن الجزء الأكبر من الطيارين شارك معنا في
الثورة؛ لا يخاطرون بالقتال إلى جانبنا، لكنهم لا يتحركون ضدنا. كان
علينا أن نجذب الطيارين. كان نصفهم معنا، والآخرين يعرفون ذلك.
عرفوا مباشرة أنك هربت، وسقط الذين يبحثون عنك. لقد قتلنا الرجل
الذي أطلق عليك النار... منذ ساعة. قمنا بداية باحتلال منصات الطيران
في كل مدينة استطعنا فيها تحقيق ذلك، وبالتالي أوقفنا الطائرات الأكبر
واستولينا عليها. أما بالنسبة للآلات الطائرة الصغيرة التي أقلعت - كما
فعل بعضهم - فقد واصلنا إطلاق النار عليها على التوالي وبثبات لتقترب
من مقر المجلس. إذا هبطت، لن تتمكن من الارتفاع مرة أخرى، حيث لا
توجد مساحة واضحة لهم هناك للارتفاع. لقد نجحنا في تحطيم العديد
منها، وهبط العديد واستسلموا، وتوجه الباقون إلى القارة في محاولة
للعثور على مدينة ودية قبل نفاد وقودهم. كان معظم هؤلاء الرجال سعداء
لمجرد أخذهم أسرى وإبقائهم بعيداً عن الأذى. القلق في آلة الطيران ليس
فرصة جذابة. وبهذه الطريقة، لا توجد فرصة للمجلس. لقد انتهت أيامه.
ضحك وتوجه إلى الانعكاس البيضاوي ثانية، ليوضح لجراهام ما
كان يعنيه بمنصات الطيران. ومع ذلك، حتى الأربع منصات الأقرب كانت

بعيدة وحجبها ضباب صباحي رقيق. لكن جراهام أدرك أنها هياكل شديدة الاتساع، وقد توصل إلى ذلك من خلال مقاييس الأشياء المحيطة بها.

ومع مرور هذه الأشكال المعتمدة إلى اليسار، جاء مرة أخرى مشهد الامتداد الواسع الذي يسير خلاله الرجال المجردون من السلاح ويرتدون ملابس حمراء. والآن مشهد الأطلال السوداء، ثم مرة أخرى مشهد قلاع المجلس البيضاء المُحصّرة. لم يُعد يبدو كومة شبحية، وإنما بدا كالكهرمان المتوهج في ضوء الشمس، حيث مر ظل سحابة. ولا يزال النضال مُعلّقًا بأمل يبعث على التشويق، لكنّ المدافعين ذوي الملابس الحمراء كفوا الآن عن إطلاق النار.

وهكذا -في هذا السكون المعتم- رأى الرجل القادم من القرن التاسع عشر المشهد الختامي للثورة العظيمة؛ التأسيس القسري لحُكمه. وتبادر إلى ذهنه اكتشاف مذهل: أن هذا هو عالمه، وليس العالم الآخر الذي تركه وراءه؛ وأن هذا ليس مشهدًا يتصاعد لذروته ثم يتوقف؛ وأن في هذا العالم تكمن أي حياة كانت لا تزال أمامه، وتكمن جميع واجباته ومخاطره ومسؤولياته. استدار موجهًا أسئلة جديدة. بدأ أوستروج بالرد عليها، ثم توقف فجأة: «لكن هذه الأمور يجب أن أوضحها بشكل أكثر اكتمالًا لاحقًا؛ أما الآن... فهناك واجبات. الناس يأتون من خلال الطرق المتحركة نحو هذا الجناح من كل جزء في المدينة... الأسواق والمسارح مزدحمة بكثافة. أنت أتيت إليهم في الوقت المناسب، وهم يطالبون برؤيتك. وفي الخارج يريدون رؤيتك: باريس، ونيويورك، وشيكاجو، ودنفر، وكابري... آلاف المدن في حالة من الاضطراب، لم تقرر بعد،

وتطالب برؤيتك. لقد طالبوا منذ سنوات بضرورة إيقاظك، لكنهم الآن -بعد أن استيقظت- بالكاد ما سيصدقون».

- لكنني بالتأكيد لا أستطيع الذهاب...

أجاب أوستروج من الجانب الآخر للغرفة، وبهتت الصورة على القرص البيضاوي، واختفت مع ارتعاش عودة الضوء مرة أخرى. قال: «توجد صور حركية مُقربة، فعندما تنحني أمام الناس هنا، سترأى أيضًا أعداد لا تُحصى من الناس في أنحاء العالم أجمع، وهم مكتظون وهادئون في قاعات مظلمة. بالأبيض والأسود، بالطبع، ليس مثل ما رأيته. وستسمع صيحاتهم تعزز الهاتف في القاعة».

وأضاف أوستروج: «وسنستخدم ابتكارًا بصريًا، يستخدمه أحيانًا المتحدثون وكذلك بعض الراقصات. ربما هو جديد بالنسبة لك: أنت تقف في ضوء ساطع جدًا، ولا يراك الآخرون وإنما يرون صورة مُكبّرة لك على شاشة... حتى أبعد رجل في أبعد ممر يمكنه -إن أراد- أن يحسب عدد رموشك».

تشبث جراهام يائسًا بأحد الأسئلة التي تدور في ذهنه: «ما عدد سكان لندن؟».

- ثمانية وعشرون ألف مليون.

- ثمانية وماذا؟!

- أكثر من ثلاثة وثلاثين مليونًا.

تجاوزت هذه الأرقام خيال جراهام.

قال أوستروج: «من المتوقع منك أن تقول شيئًا. ليس ما اعتدتم

تسميته خطاباً، وإنما ما يسميه شعبنا كلمة... مجرد عبارة واحدة، ست أو سبع كلمات. شيء رسمي. وإذا كان لي أن أقترح: (لقد استيقظت، وقلبي معكم). هذا هو نوع الأشياء التي يريدونها».

سأله جراهام: «ماذا اقترحت؟».

«(لقد استيقظت، وقلبي معكم)، ثم تنحني... تنحني بطريقة ملكية. لكن علينا أولاً أن نأتي لك بثياب سوداء؛ فالأسود هو لونك. هل تمانع؟ وبعدها سيتفرون إلى منازلهم».

تردد جراهام، ثم قال: «أنا بين يديك».

كان أوستروج مع هذا الرأي بوضوح. فكر للحظة، استدار ناحية الستارة وألقى توجيهات موجزة لبعض المرافقين وراءها. أحضروا على الفور رداءً أسود، يشبه تمامًا ذلك الرداء الأسود الذي ارتداه جراهام في المسرح. وبينما كان يلقيه حول كتفيه، صدر من الغرفة الخارجية رنين جرس عالي النبرة. استدار أوستروج ليوجه سؤالاً إلى المرافق، ثم غير رأيه فجأة، وسحبت الستارة جانباً واختفى.

وقف جراهام للحظة مع المرافق المُجامل، يستمع إلى خطوات أوستروج المنسحبة. سمع صوت سؤال وجواب على عجل، وأصوات الرجال يركضون. سُحِبَت الستار مرة أخرى وظهر أوستروج ثانية ووجهه الضخم متوهج بالإنارة. عبر الغرفة في خطوة، أغلق الضوء وساد الظلام في الغرفة. أمسك ذراع جراهام وأشار إلى المرأة.

قال: «حتى عندما ابتعدنا».

رأى جراهام سبابته، السوداء الضخمة، تشير إلى صورة مقر المجلس المنعكسة. للحظة لم يفهم، ثم أدرك أن سارية العلم الأبيض كانت شاغرة. بدأ يسأل: «هل تعني؟».

- لقد استسلم المجلس. انتهى حكمه إلى الأبد.

أضاف: «انظر!»، وأشار أوستروج إلى لفة سوداء ترحف مهتزة قليلاً أعلى السارية الشاغرة، وتفتح خلال ارتفاعها.

بهتت الصورة البضاوية عندما سحب لينكولن الستارة جانباً ودخل. قال: «إنهم صاخبون».

حافظ أوستروج على قبضته على ذراع جراهام.

قال: «لقد أثّرنا الناس، وأعطيناهم أسلحة. يجب أن تكون رغباتهم قانوناً، اليوم على الأقل».

أبقى لينكولن الستارة مفتوحة حتى يمر جراهام وأوستروج.

في طريقه إلى الأسواق، ألقى جراهام لمحة عابرة على غرفة طويلة ضيقة ذات جدران بيضاء، حيث يحمل رجال يرتدون الزي الأزرق السائد أشياء مغطاة تشبه النعوش، وحولهم رجال في الملابس الطبية الأرجوانية يتحركون بسرعة جيئة وذهاباً. صدرت تأوهات ونحيب من هذه الغرفة. تكوّن لديه انطباع عن أريكة فارغة ملطخة بالدماء، ورجال على الأرائك الأخرى تغطيهم الضمادات والدماء. كانت مجرد لمحة من ممشى محاط بحواجز، ثم أخفت دعامة المكان، أثناء توجيههم نحو الأسواق.

أصبح هدير الجموع قريباً الآن؛ ارتفع إلى رعد. لفت انتباهه رفرفة الرايات السوداء، والتلوّح بقماش أزرق وخرق بُنية. كما ظهر على ممر

طويل الازدحام الهائل عند المسرح بالقرب من الأسواق العامة. اتسعت الصورة. أدرك أنهم يدخلون المسرح العظيم الذي شهد أول ظهور له، وهو المسرح العظيم الذي رآه آخر مرة كرقعة شطرنج من السطوع والسواد خلال هروبه من الشرطة الحمراء. أما هذه المرة، فقد دخل على طول ممر على مستوى عالٍ فوق خشبة المسرح. المكان الآن مضاء ببراعة مرة أخرى. بحثت عيناه عن الممر الجانبي الذي فر منه، لكنه لم يستطع تحديده بين العشرات من الممرات المماثلة؛ كما لم يستطع -بسبب كثافة الحشد- رؤية المقاعد المحطمة، والوسائل المُخرَبة، وغيرها من آثار المعركة. وباستثناء خشبة المسرح، اكتظ المكان بأكمله بالناس متلاصقين. وبالنظر إلى أسفل، كان التأثير هو مساحة واسعة من اللون الوردي المنقوش، وكل نقطة عبارة عن وجه مقلوب يتطلع نحوه. عند ظهوره مع أوستروج، تلاشى الهتاف وتلاشى الغناء وأسكتت المصلحة المشتركة الاضطراب ووحدت الناس. بدا الأمر كأنما كل فرد من هذه الحشود يراقبه.



الفصل الثالث عشر

نهاية النظام القديم

لم يتمكن جراهام من تكوين تصور إلا قرب منتصف النهار، عندما سقطت راية المجلس البيضاء. كان لا بد من انقضاء بعض الساعات قبل أن يصبح تنفيذ الاستسلام الرسمي للمجلس ممكناً. ولذا -وبعد أن ألقى الكلمة- توجه إلى شققه الجديدة في مكاتب دوارات الرياح. لقد تركته الإثارة المستمرة خلال الاثنتي عشرة ساعة الماضية مرهقاً بإفراط، حتى فضوله كان مستنفداً. جلس لبعض الوقت خاملاً وسلبياً بعينين مفتوحتين، ثم نام لفترة. أيقظه طبيبان مرافقان، حضرا ومعهما المنشطات اللازمة لتعزيز قوته استعداداً للمناسبة التالية. بعد أن تناول الأدوية واستحم بماء بارد وفقاً لنصيحتهما، شعر باستعادة سريعة للاهتمام والطاقة. أصبح قادراً الآن وراغباً في مرافقة أوستروج للسير عدة أميال -كما يبدو- من المسارات والمصاعد والزلاّقات وصولاً إلى المشهد الختامي لحُكم المجلس الأبيض.

امتد الطريق ملتوياً خلال متاهة من المباني. وصلاً أخيراً إلى مسار منحني، ثم اتسعت أمامه فتحة مستطيلة ذات غيوم ساخنة مع غروب الشمس، وظهر المشهد الخرب لمقر المجلس المُدمّر. وصل إلى أذنيه

صخب من الصيحات. وفي اللحظة التالية صعدا إلى حافة منحدر المباني المدمّرة التي تطل على الحطام. تكشّفت المنطقة الشاسعة أمام عيني جراهام، ولم تكن أقل غرابة وروعة من مشهدها عن بُعد الذي رآه في المرأة البيضاء.

تبدو الآن هذه المساحة المُدرّجة بفضاظة أفضل جزء على امتداد ميل إلى حافته الخارجية. كان الضوء ذهبياً على اليد اليسرى، ملتقطاً أشعة الشمس؛ بينما كان في الظل صافياً وبارداً في أسفل وإلى اليمين. فوق مقر المجلس الرمادي الظليل الذي وقف في وسطه، لا تزال راية استسلام المجلس السوداء العظيمة مُعلقة في طيات واهنة في مواجهة غروب الشمس الحارق. كانت فجوات غريبة تفصل بين العديد من الغرف والقاعات والممرات، وكتل معدنية مكسورة تبرز بكآبة من مجموعة الحطام، وكتل هائلة من الأحبال تساقطت مثل أعشاب بحرية متشابكة، ومن قاعدتها ارتفع صخب من أصوات لا تُعد ولا تُحصى، واهتزاز عنيف، وصوت أبواق. كل شيء حول هذه الكومة البيضاء الكبيرة كان حلبة خراب: الكتل المحطمة السوداء، والأساسات الهزيلة، وأخشاب البناء التي تحطمت بأوامر من المجلس، وهياكل العوارض، وكتل ضخمة من الجدار، ومجموعات الأعمدة القوية. ووسط الحطام الكثيب في الأسفل، كانت المياه الجارية تومض وتتألق. أما بعيداً عبر مسافة، ووسط كتلة واسعة مبهمة من المباني، اندفعت النهاية الملتوية لمصدر المياه الرئيس لمائتي قدم في الهواء، ويتدفق منها شلال مدو لامع. وتوجد في كل مكان حشود هائلة من الناس.

كان الناس يحتشدون أينما وُجد مكان وموطئ قدم. يبدون صغار الحجم، لكنهم ظاهرون بوضوح دقيق، إلا عندما يلمسهم غروب الشمس فيتحولون إلى لون ذهبي يصعب تمييزه. يتسلقون الجدران المتداعية، ويتعلقون بالأحبال المُرزنة المتدلية، ويتجمعون حول الأعمدة الشاهقة، ويتزاحمون حول حواف حلبة الأنقاض. امتلأ الهواء بصيحاتهم، وهم يسارعون متمايلين نحو المساحة المركزية.

بدأت الطوابق العليا من مقر المجلس مهجورة، لا يوجد إنسان مرئي، تتدلى فقط في مواجهة الضوء الراهبة الدالة على الاستسلام. كان الموتى داخل مقر المجلس، أو أخفاهم الناس المحتشدون، أو نُقلوا بعيداً. لم يرَ جراحهم إلا عدداً قليلاً من الجثث المُهملة في فجوات وزوايا الأنقاض، ووسط المياه المتدفقة.

قال أوستروج: «هل تسمح لهم برؤيتك يا سيدي؟ إنهم متلهفون جداً لرؤيتك».

تردد جراحهم، ثم سار إلى الأمام، إلى حيث سقطت حافة الجدار المكسورة. وقف ينظر إلى أسفل، شخص وحيد وطويل وأسود في مواجهة السماء.

بدأت الحشود خلف الأطلال تعي وجوده تدريجياً. وعندئذ ظهرت عن بُعد فرق صغيرة من الرجال ذوي الزي الأسود، تندفع خلال الحشود نحو مقر المجلس. رأى رؤوساً سوداء صغيرة تتحول إلى اللون الوردي، تنظر إليه؛ ورأى موجة من التقدير تجتاح المكان. تبادر إلى ذهنه أن عليه تحيتهم. رفع ذراعه، ثم أشار إلى مقر المجلس وأنزل يده. أصبحت

الأصوات أدناه جماعية وزادت ارتفاعاً، ووصلت إليه كموجات عديدة من الهتاف.

كانت السماء الغربية ذات لون أخضر مزرق شاحب، وتألّق كوكب المُشتري عاليًا في الجنوب، قبل إنجاز الاستسلام. وكان هناك تغيير بطيء غير محسوس في الأعلى: حلول ليلة هادئة وجميلة. أما في الأسفل، فهناك سرعة، وإثارة، وأوامر متضاربة، وتوقفات، وتطورات متقطعة في التنظيم، وتصاعد الصخب والارتباك على نطاق واسع. وقبل أن يخرج المجلس، قام العاملون الكادحون -وبتوجيه من صراع الصيحات- بنقل المئات ممّن لقوا حتفهم في الصراع المباشر داخل تلك الممرات والغرف الطويلة...

اصطف حراس يرتدون ملابس سوداء على طول الطريق الذي سيأتي منه المجلس. وبقدر ما يمكن للعين أن تصل إلى الشفق الأزرق الضبابي للأنقاض، يحتشد الآن عند كل نقطة ممكنة في مقر المجلس الذي تم الاستيلاء عليه وعلى طول المنحدر المُحطَّم للمباني المحيطة به، عدد لا يُعد ولا يُحصى من الناس؛ وكانت أصواتهم -حتى عندما لا يهتفون- تشبه نخر البحر على شاطئ من الحصى. اختار أوستروج كومة ضخمة من البناء المسحوق والمُحطَّم، وبُني فوقها على عجل منصة من الخشب والعوارض المعدنية. اكتملت أجزاؤها الأساسية، لكن الآلات الطنانة والصاخبة لا تزال تتوهج بشكل متقطع في الظلال تحت هذا الصرح المؤقت.

كان بالمنصة جزء صغير أعلى وقف عليه جراهام، وبالقرب منه

أوستروج ولينكولن، أمام مجموعة من الضباط الأدنى مرتبة. أحاطت منصة أدنى أوسع بهذا السطح، وقف عليها حراس الثورة وهم يرددون الزى الأسود مسلحين بالأسلحة الخضراء الصغيرة التي لا يزال جراهام لا يعرفها. أدرك الواقفون حوله أن عينيه تنتقلان على الدوام من الناس المحتشدين عند الأنقاض في الشفق، إلى كتلة مظلمة من المقر الأبيض للمجلس، حيث سيأتي الأمناء الآن، ثم إلى المنحدرات الهزيلة من الخراب حوله، وتعود مرة أخرى إلى الناس. تضخمت أصوات الحشد إلى اضطراب يصم الآذان.

رأى بداية أعضاء المجلس عن بُعد في وهج أحد الأضواء المؤقتة التي حددت طريقهم: مجموعة صغيرة من الشخصيات البيضاء تسير في ممر مقوس أسود؛ ثم أصبحوا في الظلام عند وصولهم إلى مقر المجلس. شاهدتهم يقتربون؛ يقتربون أولاً من هذا النجم الكهربائي المتوهج ثم الذي يليه. صاحبهم على طول الطريق تهديد هدير الحشد، الذي استمروا يحكمونه مائة وخمسين عاماً. ومع زيادة اقترابهم، ظهرت وجوههم مرهقة، وشاحبة، وقلقة. رآهم خلال الوهج حوله وحول أوستروج وهم يرمشون. قارن بين مظهرهم البارد الغريب في قاعة الأطلس... أصبح بمقدوره الآن التعرف على العديد منهم؛ الرجل الذي خبط الطاولة أمام هاورد، رجل قوي البنية ذو لحية حمراء، ورجل قصير عابس الوجه ودقيق الملامح، وجمجمته طويلة بشكل غريب. لاحظ تهامس اثنين ونظراتهما إلى أوستروج ورائه. ظهر بعد ذلك رجل وسيم طويل القامة وعابس الوجه، يسير خافض العينين؛ وفجأة رفع بصره إلى أعلى ولمست عيناه جراهام للحظة، ثم تجاوزته إلى أوستروج. كان المسار المُخطَّط لهم

مُدْبِرًا؛ بحيث يسرون لمسافة يلتفون قبل أن يصلوا إلى المسار المنحدر للألواح الخشبية التي تصعد بهم إلى المنصة التي كان من المقرر أن يتم فيها استسلامهم.

«السيد، السيد! الإله والسيد»، صاح الناس، «فليذهب المجلس إلى الجحيم!». نظر جراهام إلى الجماهير الغفيرة، التي يستحيل تحديد أعدادها، التي امتدت إلى ضباب صارخ، ثم نظر إلى أوستروج بجانبه، أبيض وثابت وهادئ. توجهت عينه مرة أخرى إلى تلك المجموعة الصغيرة من أعضاء المجلس في ملابسهم البيضاء. ثم نظر إلى النجوم الهادئة المألوفة في أعلى. وفجأة أصبح العنصر الإعجازي في مصيره واضحًا. هل هذه هي حياته بالفعل؛ تلك الحياة القصيرة في ذاكرته التي عاشها منذ مائتي عام... وهذه أيضًا؟



الفصل الرابع عشر

من موقع المراقبة

وهكذا، وبعد تأجيل غريب، وخلال مسار من الريبة والقتال، وصل أخيراً رجل القرن التاسع عشر إلى موقعه على رأس ذلك العالم المُعقّد. عندما نهض في البداية من نومه العميق الطويل الذي أعقب إنقاذه واستسلام المجلس، لم يتعرف على ما يحيط به. نشط ذهنه بعد جهد، واسترجع كل ما حدث له؛ استرجعه بدايةً بنوع من عدم التصديق، كقصة سمعها أو شيء قرأه في كتاب. وحتى قبل أن تتضح ذكرياته بجلاء، استعاد ذهنه فرحة هروبه وأعجوبة شهرته. كان مالك العالم؛ سيد الأرض. هذا العصر العظيم الجديد، بأكمله معانيه، هو ملكه. لم يعد يأمل في اكتشاف ما إذا كانت تجاربه حلماً، بل أصبح حريصاً الآن على إقناع نفسه أنها كانت حقيقة.

ساعده خادم متملق على ارتداء ملابسه تحت إشراف كبير مرافقيه المحترم، وهو رجل قصير ويوضح وجهه أنه ياباني، على الرغم من أنه يتحدث الإنجليزية كرجل إنجليزي. عرف منه جراهام بعض الأشياء عن ظروف الحالة الراهنة. كانت الثورة بالفعل حقيقة مقبولة؛ كما كان

استئناف العمل يجري بالفعل في جميع أنحاء المدينة. وقد استقبل أغلب من هم خارج المدينة سقوط المجلس بسعادة. لم يكن المجلس يتمتع بشعبية في أي مكان؛ وكانت الألف مدينة في أمريكا الغربية -التي لا تزال تشعر بالغيرة من نيويورك ولندن والشرق بعد مائتي عام- قد هبت جميعها تقريباً قبل يومين عندما وصلتها أنباء سجن جراهام. وفي باريس، كان القتال دائراً داخلها. وظل بقية العالم في حالة ترقب.

وبينما يتناول إفطاره، انطلق صوت رنين هاتف من أحد الأركان، ولفت كبير مرافقيه انتباهه إلى صوت أوستروج وهو يتوجه باستفسارات مهذبة. قطع جراهام تناول مرطباته كي يرد. وصل لينكولن بعد فترة وجيزة، وأعرب جراهام على الفور عن رغبته الشديدة للتحدث إلى الناس وأن يتعرف على المزيد من الحياة الجديدة التي تفتح أمامه. أبلغه لينكولن أن اجتماعاً تمثيلاً سيُعقد في غضون ثلاث ساعات للمسؤولين وزوجاتهم في الشقق الحكومية لرئيس دوائر الرياح. كانت رغبة جراهام في اجتياز طرق المدينة مستحيلة في الوقت الحاضر، بسبب انفعال الناس الهائل. ومع ذلك، كان بإمكانه أن يلقي نظرة شاملة على المدينة من موقع المراقبة في أعلى صاري المراقبة الذي يجلس فيه حارس دوائر الرياح. وقد اصطحبه مرافقه إلى هناك. على أن لينكولن، بعد توجيهه بمعاملة رقيقة إلى المرافق، اعتذر عن عدم مرافقتهم بسبب ضغوط العمل الإداري حالياً.

كانت عجلات الرياح -التي تحمل موقع المراقبة- أعلى من أكبر عجلة عملاقة؛ إذ بلغ ارتفاعها ألف قدم أعلى من الأسطح، وهي عبارة عن بقعة صغيرة على شكل قرص محمول على رمح من خيوط معدنية ومُعلق بحبل غليظ. اصطحب المرافق جراهام إلى القمة عن طريق سلة

شبكة صغيرة مُعلقة بأسلاك. في منتصف الطريق أسفل الحاجز الذي يبدو ضعيفاً، يوجد دهليز ضوئي تتدلى من حوله مجموعة من الأنابيب -تبدو دقيقة لأنه ينظر من أعلى- تدور ببطء على حلقة قضبانها الخارجية. كانت هذه هي المناظير المرتبطة بمرايا حارس دَوَّارة الرياح، والتي أظهر له أوستروج خلال إحداها مجيء حكمه. صعد مرافقه الياباني قبله، وأمضيا معاً حوالي ساعة في أسئلة وإجابات.

كان يوماً واعداً بالخير وجودة الربيع. أصبحت لمسة الرياح دافئة. السماء شديدة الزرقة، وأشرق امتداد لندن الشاسع متألقاً تحت شمس الصباح. كان الهواء خالياً من الدخان والضباب، ولطيفاً مثل هواء وادي جبل.

باستثناء الانقراض البيضاوية غير المنتظمة التي تنتشر حول مقر المجلس، والعلم الأسود الذي يرفرف دالاً على الاستسلام، أظهرت المدينة الجبارة التي يشاهدها من أعلى علامات قليلة على الثورة السريعة التي تمكنت في يوم وليلة -كما تصور خياله- من تغيير مصائر العالم. لا تزال أعداد كبيرة من الناس تحتشد فوق هذه الأنقاض. كما أن المنصات الزخرفية الضخمة عن بُعد، التي بدأت منها في أوقات السلام خدمة الطائرات إلى مختلف المدن العظيمة في أورباً وأميركا، ظهرت أيضاً سوداء مع احتشاد المنتصرين. سار في طريق ضيق من الألواح الخشبية المرفوعة على ركائز للعبور فوق الأنقاض، انشغلت مجموعة من العمال في استعادة الاتصال بين أحبال وأسلاك مقر المجلس وبقيّة المدينة، تمهيداً لنقل مقر أوستروج من مباني دَوَّارات الرياح إلى هناك.

لم يكن الامتداد المضيء مضطرباً بالنسبة لباقي المناطق. كان هدوء تلك المناطق شديداً مقارنة بمناطق الاضطراب، لدرجة أن جراهام عندما اتجه بصره الآن إلى ما وراءها، كاد أن ينسى آلاف الرجال الذين يرقدون بعيداً عن الأنظار في الوهج الاصطناعي داخل متاهة تقع تحت الأرض، إما موتى وإما في حالة احتضار من جروح نتجت بين ليلة وضحاها؛ وكاد أن ينسى العنابر المرتجلة التي تضم كثرة شديدة الانشغال من الجرحاين وأطقم التمريض والحمالين؛ وكاد أن ينسى بالفعل كل عجب وذعر وبدع تحت الأضواء الكهربائية. كان يعرف أن الثورة انتصرت هناك؛ في الطرقات الخفية بين الركام، وأن اللون الأسود يشق طريقه في كل مكان، هدايا سوداء، لافتات سوداء، أكاليل سوداء في الشوارع. وهنا -تحت أشعة الشمس المنعشة، وراء آثار المعركة- كأن شيئاً لم يحدث للأرض، كانت غابة دوائر الرياح -التي نمت من واحدة أو اثنتين خلال حكم المجلس- تهدر بسلام وهي تمارس مهمتها المتواصلة.

وارتفعت على مسافة بعيدة تلال ساري^(١٩) زرقاء وضعيفة، ارتفعت شائكة ومهترزة ومتعرجة بفعل دوائر الرياح. وفي اتجاه الشمال وأقرب، كانت ملامح هايجيت^(٢٠) وموسويل هيل^(٢١) متعرجة بالمثل. وفي أنحاء الريف كافة، كما كان يعرف، فوق كل قمة وتلة، حيث تداخلت أسيجة الشجيرات ذات مرة، واحتضنت بين أشجارها الأكواخ والكنائس والنزل والبيوت الريفية، كانت عجلات رياح مماثلة لتلك التي رآها وتحمل مثلها

(١٩) ساري (Surrey): مقاطعة إنجليزية تقع في الجنوب الشرقي من إنجلترا. «الترجمة».

(٢٠) هايجيت (Highgate): منطقة في شمال لندن. «الترجمة».

(٢١) موسويل هيل (Muswell Hill): إحدى الضواحي في شمال لندن. «الترجمة».

إعلانات كبيرة ورموز هزيلة ومميّزة للعصر الجديد، تلقي بظلالها الدوّارة وتعمل باستمرار على تخزين الطاقة التي تتدفق دومًا خلال جميع شرايين المدينة. وكانت تتجول أسراب وقطعان لا تُعد ولا تُحصى تابعة لصندوق الغذاء البريطاني الذي يملكه مع القائمين عليهم وحراسهم.

لم يقطع أي خط مألوف مجموعة الأشكال العملاقة أدناه في أي مكان. يعرف أن كاتدرائية سان بول^(٢٢) قائمة، وأن العديد من المباني القديمة في وستمنستر الموجودة وإن كانت غير مرئية، مغطاة بين النماء العملاق في هذا العصر العظيم. ونهر التايمز أيضًا، لم يصدر منه أي بصيص من الفضة ليكسر الطابع البري للمدينة؛ فقد شربت أنابيب المياه الرئيسة العطشى كل قطرة من مياهه قبل أن تصل إلى الأسوار. أما قاع النهر ومصبه، بعد أن جف وغرق، فقد أصبح الآن قناة لمياه البحر، وتسابق قائدو السفن التجارية الشرسون لجلب المواد الثقيلة للتجارة من حوض السفن، وبالتالي إلى تحت أقدام العمال. وفي الشرق، تجمّعت صواري سفن الشحن الضخمة، مُعلقة بين الأرض والسماء، في حوض السفن. وعلى الرغم من ازدحام حركة المرور، حيث لا توجد حاجة إلى التسرع، وصلت سفن شراعية عملاقة من أقاصي الأرض، فضلًا عن وصول سفن ميكانيكية من نوع أسرع أصغر تحمل بضائع ثقيلة مطلوبة بالبحاح.

وفوق التلال في الجنوب، توجد قنوات واسعة من مياه البحر مخصصة للصرف الصحي، وتجري خطوط شاحبة في ثلاثة اتجاهات

(٢٢) كاتدرائية القديس بولس (St Paul's Cathedral): وهي كاتدرائية كنيسة لندن.

«الترجمة».

منفصلة: أولاً الطرق، ومليئة بنقاط رمادية متحركة، وكان مصمماً على الخروج ورؤية هذه الطرق عندما تسنح أول فرصة؛ وبعد ذلك السفينة الطائرة التي سيحاول تجربتها الآن، وقد وصفها الضابط المرافق له بأنها زوج من الأسطح المنحنية قليلاً بعرض مائة ياردة، وكل منها لحركة السير في أحد الاتجاهين، ومصنوعة من مادة تُسمَّى إيدامايت؛ وهي مادة اصطناعية، بقدر ما تمكن من الفهم، تشبه الزجاج المُقَوَّى. وطوال هذه التجربة، كانت حركة مروورية غريبة من المركبات ذات العجلات المطاطية الضيقة، وذات العجلة الواحدة الكبيرة، والمركبات ذات العجلتين والأربع عجلات، تتحرك بسرعات تتراوح بين ميل وستة أميال في الدقيقة. وقد اختفت السكك الحديدية؛ لم يبقَ إلا عدد قليل من جسورها كحصون متناثرة هنا وهناك غطاها الصدأ، بينما شكّل القليل منها أساس الطرق المصنوعة من الإيدامايت.

ومن بين أول الأشياء التي لفتت انتباهه تلك الأساطيل الكبيرة من بالونات الإعلان والطائرات الورقية التي تتحرك في آفاق غير منتظمة شمالاً وجنوباً على غرار رحلات الطائرات. لم يَرَ أي طائرات كبيرة. لقد أوقفت ممراتهم، وحلّقت طائرة صغيرة واحدة فقط أحادية السطح في المسافة الزرقاء فوق تلال ساري، وهي بقعة مرتفعة غير مؤثرة.

الشيء الذي عرفه جراهام بالفعل ووجد صعوبة بالغة في تخيله، هو اختفاء جميع المدن والقرى تقريباً في البلد. تناثر هنا وهناك فقط - كما أدرك - أكثر من صرح عملاق يشبه الفندق وسط أميال مربعة من نوع واحد من الزراعة، ويستهدف الحفاظ على اسم البلدة: مثل بورنموث،

أو ويرهام، أو سواناج. على أن الموظف سرعان ما أقنعه بحتمية مثل هذا التغيير. فقد نثر النظام القديم بيوت المزارعين في أنحاء البلد، بحيث يوجد كل ميلين أو ثلاثة عقارات المالك الحاكم، ومكان لفندق صغير، وإسكافي، ومتجر للبقالة، والكنيسة؛ أي القرية. أما البلدة؛ فهي تقع على مسافة كل ثمانية أميال أو نحو ذلك؛ حيث يقطن المحامي، وتاجر الذرة، وتاجر الصوف، وصانع السروج، والجراح البيطري، والطبيب، وتاجر الأقمشة، وصانع القبعات، وغير ذلك. كانت الأميال الثمانية -ببساطة لأن الرحلة التسويقية ثمانية أميال، أربعة للذهاب وأربعة للعودة- مُريحة للمزارع. لكن السكك الحديدية الثقيلة دخلت حيز التنفيذ مباشرة، وبعدها السكك الحديدية الخفيفة، ثم جميع السيارات الجديدة السريعة التي حلت محل عربات النقل والخيول. وبمجرد أن بدأت الطرق الرئيسة تُصنع من الخشب والمطاط والإيدامات وجميع أنواع المواد المُعمّرة المرنة، اختفت ضرورة الوجود المتكرر لتلك المدن التجارية المتكررة. ولذا نمت البلدات الكبيرة، واجتذبت العمال بقوة جاذبية توفر العمل على نحو بدا بلا نهاية، فضلاً عن أصحاب الأعمال وتصوراتهم عن محيط لا نهائي من الأعمال.

ومع ارتفاع مستوى الراحة وتزايد تعقيد آلية المعيشة، أصبحت الحياة في البلد أكثر تكلفة، أو ضيقة ومستحيلة. كما أن اختفاء الكاهن والقاضي، وانقراض الطبيب العام نتيجة وجود أخصائي المدينة، قد سلب القرية من لمستها الثقافية الأخيرة. وبعد أن حل الهاتف والسينماتوجراف والفونوجراف محل الصحيفة والكتاب والمُعَلِّم والرسالة، أصبح العيش

خارج نطاق الكابلات الكهربائية يعني العيش في وحشية معزولة. لم يكن في البلد وسيلة للملابس ولا للتغذية (وفقاً للمفاهيم الدقيقة في ذلك الوقت)، ولا أطباء أكفاء لحالات الطوارئ، ولا شركات، ولا حرف.

علاوة على ذلك، أدت الأجهزة الميكانيكية في الزراعة إلى أن أصبح المهندس الواحد يعادل ثلاثين عاملاً. ولذا، ومع تغيير أوضاع كاتب المدينة في الأيام التي شهدت ندرة السكن في لندن بسبب تلوث الهواء بالفحم، أصبح العمال الآن يأتون إلى المدينة وحياتها ومسراتها في الليل ليتروها مرة أخرى في الصباح. لقد ابتلعت المدينة البشرية؛ ودخل الإنسان مرحلة جديدة في تطوره. في البداية جاء البدو، والصيادون، ثم المزارعون في الدولة الزراعية، التي كانت بلداتها ومدنها وموانئها مجرد مقار الريف وأسواقه. والآن، نتيجة منطقية لعصر الاختراع، ظهر هذا التجمع الجديد الضخم من الرجال.

أرهقت مثل هذه الأشياء خيال جراهام وقدرته على تصورهما، على الرغم من أنها تبدو للرجال المعاصرين مجرد معلومات بسيطة عن الواقع. وخذله خياله تماماً عندما نظر بعيداً هناك، إلى الأشياء الغريبة التي كانت موجودة في القارة.

لديه رؤية للمدينة تتجاوز المدينة: مدن في السهول الكبرى، ومدن بجانب الأنهار العظيمة، ومدن شاسعة على طول حافة البحر، ومدن مُحاطة بجبال ثلجية. كانت اللغة الإنجليزية هي لغة الحديث على جزء كبير من الأرض؛ وإذا أخذناها مع لهجاتها الإسبانية الأمريكية،

والهندوسية، ولهجات السود، والهجين، يمكن القول إنها كانت اللغة اليومية لثلثي البشرية. في القارة، وباستثناء السكان البعيدين والغريبين، سادت ثلاث لغات أخرى فقط: الألمانية التي وصلت إلى أنطاكية وجنوة؛ واحتشاد الإسبانية- الإنجليزية في قادس؛ والروسية المتفرنسة التي التقت بالإنجليزية الهندية في بلاد فارس وكردستان، والإنجليزية «الهجين» في بيكين، ولا تزال الفرنسية واضحة ورائعة، لغة النقاء، التي يتقاسمها البحر الأبيض المتوسط مع الإنجليزية الهندية والألمانية، ووصلت من خلال لهجة السود إلى الكونجو.

وفي كل مكان الآن من الأرض التي تقع في المدينة، باستثناء مناطق «الحزام الأسود» الخاضعة للحكم في المناطق المدارية، يسود التنظيم الاجتماعي العالمي نفسه، وتمتد ممتلكاته ومسؤولياته في كل مكان من القطب إلى خط الاستواء. كان العالم كله متحضراً؛ ويسكن كله في المدن؛ والعالم كله ملكه...

ومن الجنوب الغربي المُعتم، لمعت مدن المتعة -متألقة وغريبة، جامعة وبشكل ما مرعبة- التي تحدث عنها الفونوجراف السينماتوجرافي والرجل العجوز الذي قابله في الشارع. أماكن غريبة تثير في الذاكرة سيباريس الأسطوري^(٢٣)، ومدن الفن والجمال، وفن المرتزقة وجمال المرتزقة، والمدن المجذبة الرائعة من الحركة والموسيقى، حيثما أصلحت جميع المستفيدين من النضال الاقتصادي، الشرس والشائن، الذي استمر في المتاهة الغاضبة أدناه.

(٢٣) وحش أسطوري عملاق سكن الكهوف في اليونان والتهم الماشية والبشر. «المرتجمة».

كان يعرف أنه كفاح شرس. كيف يمكنه أن يحكم على مدى
الشراسة، مع إشارة هؤلاء الناس في الأيام الأخيرة إلى إنجلترا القرن
التاسع عشر باعتبارها الرمز لحياة شاعرية رغدة. أدار عينيه مرة أخرى إلى
المشهد الذي يقع أمامه مباشرة، في محاولة لتصوير المصانع الكبيرة في
تلك المتاهة المعقدة...



الفصل الخامس عشر

شخصيات بارزة^{١٨}

كانت الشقق الحكومية لمسؤول دوائر الرياح يمكن أن تشير دهشة جراهام إذا دخلها من منظور حياته في القرن التاسع عشر، لكنه بدأ يعتاد بالفعل على مقياس العصر الجديد. خرج من أحد الألواح المنزلقة التي يألّفها الآن فوق منصة هبوط على قمة رحلة من سلالم واسعة ومعتدلة، حيث يرتدي الرجال والنساء الصاعدون والهابطون ملابس أكثر إشراقاً بكثير من أي ملابس شاهدها حتى الآن. نظر من هذا الموقع إلى أسفل. رأى مشهداً من الزخارف الدقيقة المتنوعة بألوان بيضاء وبنفسجية وأرجوانية غير لامعة، تمتد عبر جسر بدت مصنوعة من الخزف والأسلاك المتشابكة، وتنتهي بعيداً في لغز غامض من الشاشات المثقوبة.

ألقي نظرة خاطفة إلى أعلى، رأى طبقة فوق طبقة من الممرات الصاعدة، ووجوهاً تنظر إليه. كان الهواء مليئاً بثرثرة أصوات لا حصر لها وموسيقى تهبط من أعلى؛ موسيقى مرحة ومبهجة، لكنه لم يكتشف مصدرها.

كان الممر المركزي مكتظًا بالناس، لكن الازدحام لم يكن مزعجًا بأي حال؛ لا بد أن عدد هذا التجمع يصل إلى آلاف عديدة. كانت ملابسهم رائعة وجميلة، والرجال أيضًا مثلهم مثل النساء؛ ذلك أن التأثير الواقعي لمفهوم الكرامة البيوريتاني للملابس الذكورية قد انتهى منذ فترة طويلة. شعر الرجال أيضًا -على الرغم من ندرة بقائه طويلًا- شاعت تموجاته على نحو يوحى بضرورة اللجوء إلى الحلاق، واختفى الصِّلَع من الأرض. كثرت الجماهير ذات الشعر المتموج التي كانت تستسحر روزيتي^(٢٤)، وها هو رجل لُفِتَ نظر جراهام إليه بصفة غريبة أنه «مُحب النساء»، صفف شعره بتقسيمه إلى جزئين أصبحا ضفائر لا مارجريت. كانت الضفيرة دليلًا؛ ربما لم يعد المواطنون من أصل صيني يخجلون من عرقهم. عدم توحيد الأزياء واضح في أشكال الملابس التي يرتدونها. أظهر الرجال الأكثر وسامة تناسق ارتدائهم بناطيل قصيرة، وهنا رداء منتفخ ومشقوق، وهناك عباءة، وهناك ثوب. ربما كان تأثير أزياء أيام ليو العاشر هو السائد، لكن مفاهيم الشرق الأقصى الجمالية كانت أيضًا بادية للعيان. أما امتلاء جسد الرجل، الذي كان ليتعرض في العصر الفيكتوري لمخاطر التزيين بأزرار والمبالغة القاسية في ضيق ملابس السهرة على الأرجل والأذرع، فلم تعد تشكل الآن إلا أساس ثروة من المنزل والملبس الفضفاض. كثرت أيضًا النحافة الرشيقة. بالنسبة إلى جراهام، وهو رجل نمطي قاسٍ قادم من عصر قاسٍ نمطيٍّ، لم يكن هؤلاء يتَّسمون بالرشاقة من حيث أشخاصهم فحسب، وإنما كانت وجوههم المشرقة أيضًا تُعبر

(٢٤) دانتي جابرييل روزيتي (Dante Gabriel Rossetti): شاعر ورسام ومترجم إنجليزي

(١٨٢٨ - ١٨٨٢). «المترجمة».

عن ذلك بوضوح. كانوا يلوحون، ويعربون عن دهشتهم واهتمامهم ومرحهم، ويُعربون قبل كل شيء وبصراحة مذهلة عن المشاعر التي أثارها في أذهانهم السيدات من حولهم. وكان واضحًا - حتى من الوهلة الأولى - أن النساء يشكلن أغلبية كبيرة.

اتخذت السيدات نفس أسلوب وسلوك الرجال المرافقين لهن، وكانت ملابسهن أقل بروزًا وأكثر تعقيدًا. تأثرت بعضهن بالبساطة الكلاسيكية للملابس ودقة طيها، اتباعًا لأزياء الإمبراطورية الفرنسية الأولى، وتألفت أذرعهن وأكتافهن مرفوعة بانتصار عند مرور جراهام. وارتدت أخريات فساتين ضيقة دون فاصل أو حزام عند الخصر، وأحيانًا بطيات طويلة تسقط من الكتفين. لم تقلص بهجة فساتين المساء بعد قرنين من الزمان.

بدأت حركات الجميع رشيقة. قال جراهام لينكولن أنه رأى رجالًا يشبهون رسوم رافائيل^(٢٥) تسير، وأخبره لينكولن أن اكتساب مجموعة مناسبة من الإيماءات يُعد جزءًا من تعليم الأغنياء. قُوبل دخول السيد بتصفيق حادٍّ، بينما أظهر هؤلاء الناس أخلاقهم المتميزة بعدم مزاحمته أو إزعاجه بأي إطالة نظر متفحصة وهو ينزل السلم متجهًا نحو أرضية الممر. عرف من لينكولن أن هؤلاء هم قادة مجتمع لندن الحالي؛ فكل شخص تقريبًا هناك في تلك الليلة هو إما مسؤول قوي وإما على صلة مباشرة بمسؤول قوي. وقد عاد الكثيرون من مدن المتعة الأوروبية خصيصًا

(٢٥) رسوم رافائيل هي سبعة رسوم كبيرة صممها رسام عصر النهضة رافائيل (١٤٨٣-١٥٢٠)، وتُظهر مشاهد من الأناجيل وأعمال الرسل. وهي الرسوم الوحيدة الباقية من عشرة رسوم. «الترجمة».

للترحيب به. وكانت سلطات الطيران -التي لعب انشقاقها دورًا في الإطاحة بالمجلس بعد جراهام- بارزة للغاية؛ وكذلك كانت هيئة دَوَّارات الرياح. ومن بين آخرين، حضر عدد من أبرز موظفي إدارة الأغذية. وكان وجه المشرف على حظائر الخنازير الأوربية حزينًا بشكل خاص ومثيرًا للاهتمام ويتمتع بأسلوب لطيف. شاهد جراهام أسقفًا في كامل ملابسه الكنسية يتحدث مع رجل يرتدي تمامًا مثل زي تشوسر^(٢٦) التقليدي، بما في ذلك حتى إكليل الغار.

«مَن هذا؟»، سأَل بشكل تلقائي تقريبًا.

أجاب لينكولن: «أسقف لندن».

- لا.. أعني الرجل الآخر.

- شاعر البلاط.

- هل لا تزال...؟

- إنه لا يكتب الشعر بالطبع. هو ابن عم وُوتون... أحد أعضاء

المجلس. لكنه أحد المالكين في «ريد روز رويالتيز»؛ وهو نادٍ مبهج، ويحافظ أفراده على تلك التقاليد.

- أخبرني أسانو أن هناك ملكًا.

- الملك لا ينتمي. كان عليهم طرده. إنه دم ستيوارت، على ما أعتقد.

وإنما بالفعل...

- أكثر من اللازم؟

(٢٦) جيفري تشوسر (Geoffrey Chaucer): من أبرز الشعراء الإنجليز في العصور الوسطى

(١٣٤٣-١٤٠٠). «المتروحة».

- أكثر من اللازم بكثير.

لم يتتبع جراهام تمامًا كل هذا، لكنه اعتبره جزءًا من التغيير العام في العصر الجديد. انحنى متعطفًا عند تقديمه للمرة الأولى. كان واضحًا أن التمايزات الطبقيّة الدقيقة سادت حتى في هذا التجمع؛ بحيث لم يقدمه لينكولن إلا إلى نسبة صغيرة فقط من الضيوف، إلى مجموعة داخلية، رأى من المناسب تقديمه إليهم. كان أول تقديم إلى الطيار الرئيس، الرجل الذي يتناقض وجهه الذي لفحته الشمس تناقضًا غريبًا مع بشرته الحساسة. وفي الوقت الحاضر فقط، جعله انشقاؤه الحاسم عن المجلس شخصًا مهمًا للغاية بالفعل.

تناقضت طريقته بشكل إيجابي للغاية، وفقًا لأفكار جراهام، مع الاتجاه العام. فقد طرح بعض الملاحظات الشائعة، وضمائم الولاء، والاستفسارات الصريحة حول صحة السيد. كان أسلوبه مرحًا، وافترقت لكنته إلى التقطع اليسير للغة الإنجليزية الحديثة. وأوضح لجراهام - بشكل مثير للإعجاب - أنه كان «كلبًا جويًا» مخادعًا - استخدم هذه العبارة - ولا يوجد أي هراء عنه، وأنه كان زميلًا يتمتع بصفات رجل بحق وعتيق الطراز حينذاك، وأنه لم يعلن أنه يعرف الكثير، وأن ما لم يكن يعرفه لا يستحق المعرفة. انحنى على نحو مقتضب، خاليًا بتباهٍ من الخضوع، ثم مضى.

قال جراهام: «يسعدني رؤية هذا النمط مستمرًا».

«الفونوجراف والسينماتوجراف»، قال لينكولن لبعض الحقد، «لقد علمته الحياة». نظر جراهام إلى الحجم الضخم مرة أخرى. أثار ذكرياته بشكل غريب.

قال لينكولن: «نحن اشتريناه، في واقع الأمر. جزئياً. وجزئياً كان خائفاً من أوستروج. فكل شيء كان في يده».

استدار بحدة لتقديم المفتش العام للمدارس العامة. كان هذا الشخص ممشوق القوام، يرتدي الرداء الأكاديمي الرمادي المائل إلى الزرقة، ابتسم وهو ينظر إلى جراهام من خلال نظارته الأنفية ذات النمط الفيكتوري، وأوضح ملاحظاته بإشارات من يد مُشدبة بشكل جميل. اهتم جراهام على الفور بوظائف هذا الرجل، وسأله عددًا من الأسئلة المباشرة غير المتوقعة. بدا المشرف العام مستمتعًا بهدوء بصراحة السيد الأساسية. كان غامضًا بعض الشيء فيما يتعلق باحتكار التعليم الذي تمتلكه شركته؛ وهو ما حدث عن طريق التعاقد مع الهيئة التي تدير العديد من بلديات لندن، لكنه أثار حماسه بشأن التقدم التعليمي الذي تحقق منذ العصر الفيكتوري. قال: «لقد انتصرنا على (كرام)^(٢٧)، انتصرنا على (كرام) تمامًا. لا يوجد أي امتحان في العالم. ألسنت سعيدًا؟».

سأله جراهام: «كيف تنجز العمل؟».

– نجعله جذابًا... جذابًا قدر الإمكان. وإذا لم يجذب، نتركه. نحن نغطي مجالًا هائلًا.

بدأ يتحدث في التفاصيل، ودار بينهما حديث طويل. عرف جراهام أن الامتداد الجامعي لا يزال موجودًا في شكل معدل. توسع المشرف العام شاعرًا بأهميته: «هناك نوع معين من الفتيات – على سبيل المثال –

(٢٧) الإشارة هنا إلى مدارس كرام (Cram school)، وهي مدارس متخصصة لتدريب الطلاب على اجتياز امتحانات القبول في المدارس الثانوية أو الجامعات. «الترجمة».

يتمتعن بشغف مثالي للدراسات الجادة.. عندما لا تتسم بصعوبة شديدة، كما تعرف. نحن نخدمهم بالآلاف». ثم أضاف بلمسة نابليونية: «لدينا حاليًا ما يقرب من خمسمائة فونوجراف يقدمون محاضرات في مناطق مختلفة من لندن حول تأثير أفلاطون وسويفت^(٢٨) على علاقات الحب عند شيلي^(٢٩)، وهازلت^(٣٠)، وبيرنز^(٣١). وبعد ذلك يكتبون مقالات عن المحاضرات، وتوضع الأسماء وفقًا للجدارية في أماكن بارزة. أترى كيف نمت بذرتك الصغيرة؟ لقد انتهت تمامًا الطبقة المتوسطة الأمية التي كانت موجودة أيامك».

سأله جراهام: «وهل تشرف على المدارس الابتدائية العامة؟». أجاب المشرف العام: «بالكامل». كان اهتمام جراهام قد اتجه في أيامه الديمقراطية الأخيرة، إلى هذه الأمور، وتسارعت الآن تساؤلاته. استرجع ذهنه بعض العبارات العرضية التي تساقطت من الرجل العجوز الذي تحدث معه في الظلام. وفي الواقع، أيد المشرف العام كلمات الرجل العجوز. قال: «نحاول أن نجعل المدارس الابتدائية ممتعة جدًا للأطفال الصغار. عليهم العمل بسرعة. مجرد بعض المبادئ البسيطة... الطاعة... الصناعة».

-أنت تعلمهم القليل جدًا؟

(٢٨) جوناثان سويفت (Jonathan Swift): كاتب وسياسي إنجليزي (١٦٦٧-١٧٤٥). «الترجمة».

(٢٩) الشاعر الإنجليزي الرومانسي بيرسي بيش شيلي (Percy Bysshe Shelley): (١٧٩٢-١٨٢٢). «الترجمة».

(٣٠) وليام هازلت (William Hazlitt): كاتب وناقد إنجليزي (١٧٧٨-١٨٣٠). «الترجمة».

(٣١) روبرت برنز (Robert Burns): شاعر أسكتلندي (١٧٥٩-١٧٩٦). «الترجمة».

لماذا يجب تعليمهم الكثير؟ هذا لا يؤدي إلا إلى المتاعب والسخط.
نحن نجعلهم يستمتعون. ومع ذلك.. توجد متاعب.. عمليات تحريض.
من أين يحصل العمال على الأفكار؟ لا يمكن للمرء أن يعرف. إنهم
يخبرون بعضهم. هناك أحلام اشتراكية... وحتى فوضى! سيعمل
المحرضون بينهم. أعتقد - كنت دائمًا أعتقد - أن واجبي الأول هو محاربة
السخط الشعبي. لماذا نجعل الناس تعساء؟

قال جراهام بتمعن: «هذا عجيب. هناك الكثير من الأشياء التي أود
معرفتها».

تدخل لينكولن، الذي وقف يراقب وجه جراهام طوال المحادثة. قال
بصوت خفيض: «هناك آخرون».

تحرك المشرف العام للمدارس بعيدًا. قال لينكولن، مقاطعًا في لمحة
عارضة: «ربما ترغب في معرفة بعض هؤلاء السيدات».

كانت ابنة مدير حظائر الخنازير فتاة صغيرة ساحرة بشكل خاص،
ذات شعر أحمر وعينين زرقاوين مفعمة بالحيوية. تركه لينكولن لحظة
للتحدث معها، وقد أبدت حمسها لـ «الأيام الخوالي العزيزة» كما
أسمتها، التي شهدت بداية دخوله في الكومة. ابتسمت وهي تتحدث،
وابتسمت عيناها بطريقة تطلب المعاملة بالمثل.

قالت: «لقد حاولت مرات لا تُحصى أن أتخيل تلك الأيام الرومانسية
القديمة. لكنها ذكريات بالنسبة لك. لا بد أن العالم يبدو لك غريبًا
ومزدحمًا! لقد رأيت صورًا ولوحات للماضي: المنازل المعزولة الصغيرة
المبنية من طوب مصنوع من طين محترق وكل شيء لونه أسود من دخان

الحرائق، وجسور السكك الحديدية، والإعلانات البسيطة، ورجال النزعة
البيوريتانية المتمزتين المتوحشين في معارفهم السوداء الغريبة وقبعاتهم
الطويلة، وقطارات السكك الحديدية فوق جسور حديدية علوية، والخيول
والماشية، وحتى الكلاب التي تركض نصف متوحشة في الشوارع. وفجأة،
أتيت أنت إلى هذا!«.

قل جراهام: «إلى هذا».

- من حياتك.. من كل ما كان مألوفاً لديك.

قال جراهام: «لم تكن الحياة القديمة سعيدة. أنا لست نادماً على
ذلك».

نظرت إليه بسرعة. ساد صمت قصير. تنهدت بشكل مُشجعة: «لا
تندم؟».

قال جراهام: «لا. كانت حياة قصيرة.. وبلا معنى. ولكن هذا.. كنا
نظن أن العالم مُعقد ومزدحم ومتحضر بما يكفي. ومع ذلك -وعلى الرغم
من أن عمري في هذا العالم يبلغ بالكاد أربعة أيام- فإنني عندما أنظر إلى
الوراء.. إلى العصر الذي عشت فيه، أجده عصرًا غريبًا وبربريًا.. مجرد
بداية لهذا النظام الجديد. مجرد بداية هذا النظام الجديد. ستجدين صعوبة
في فهم مدى ضلالة ما أعرفه».

قالت وهي تبتسم له: «يمكنك أن تسألني ما تريد».

- أخبريني إذن، من هم هؤلاء الناس. لا أزال لا أعرفهم. إنه أمر يشير
الحيرة. هل هناك جنرالات؟

- الرجال الذين يرتدون قبعات وريشاً؟

- كلا بالطبع. لا. أعتقد أنهم الرجال الذين يسيطرون على الأعمال التجارية العامة الكبرى. مَنْ ذلك الرجل ذو المظهر المُميّز؟

- هذا؟ إنه أهم مسؤول. إنه موردن، وهو المدير الإداري لقسم الحبوب المضادة لمرض الصفراء. وقد سمعت أن عماله ينتجون أحياناً مئات الآلاف من تلك الحبوب في اليوم، في الأربع والعشرين ساعة. تخيل مئات الآلاف!

قال جراهام: «مئات الآلاف. لا عجب أنه يبدو فخوراً. دواء! يا له من عصر مدهش! وذلك الرجل في الملابس أرجوانية اللون؟».

«إنه ليس من الدائرة الداخلية تمامًا، أنت تعرف. لكننا نحبه؛ فهو ذكي جداً ومُمتع حقاً. إنه أحد رؤساء كلية الطب في جامعة لندن. وجميع رجال الطب - كما تعرف - يرتدون اللون الأرجواني. ولكن -بطبيعة الحال- الناس الذين يتقاضون رسومًا مقابل القيام بشيء ما...»، ابتسمت بما يشير إلى الادعاءات الاجتماعية لمثل هؤلاء الناس جميعاً.

- هل يوجد هنا أحد من الفنانين أو المؤلفين العظماء؟

- لا يوجد مؤلفون. وهم في أغلبهم شخصيات غريبة... ومنشغلون جداً بأنفسهم. كما أنهم يتشاجرون بشكل مخيف! يتقاتل بعضهم من أجل الأسبقية على السلم! شيء مروّع، أليس كذلك؟ لكنني أعتقد أن رايسبري، فنان الحلاقة الحديث هنا. إنه من كابري.

قال جراهام: «الحلاق. آه! أتذكر. فنان! لم لا؟».

قالت معتذرة: «علينا تشجيعه»، ثم أضافت مبتسمة، «رؤوسنا بين يديه».

تردد جراهام في قول الإطراء المطلوب، لكن نظرتَه كانت مُعبِرة. سأل: «هل نمت الفنون مع بقية الأشياء المتحضرة؟ مَنْ هم الرسامون العظماء لديكم؟».

نظرت نحوه بريية، ثم ضحكت. قالت: «تصورت للحظة، تصورت أنك تعني...»، ضحكت مرة أخرى، «تقصد، بالطبع، أولئك الرجال الطيبين الذين تفكر فيهم كثيرًا؛ لأنهم يستطيعون تغطية مساحات كبيرة من القماش بألوان زيتية؟ قطع مستطيلة كبيرة. واعتاد الناس وضع الأشياء في إطارات مُذهبة وتعليقها في صفوف في غرفهم المربعة. لا توجد لدينا أي منها، فقد سئم الناس هذا النوع من الأشياء».

- ولكن... ماذا تصورين أنني قصدت؟

وضعت أصبعًا بشكل ملحوظ على خده الذي توهج بوضوح. ابتسمت وبدت جميلة جدًا وجذابة. ثم أشارت إلى جفنها قائلة: «وهنا». كان أمام جراهام لحظة للمغامرة. ثم ومضت في ذهنه ذكرى بشعة لصورة شاهدها في مكان للعم توبي والأرملة^(٣٢). شعر بخجل قديم. أصبح يدرك تمامًا أن عددًا كبيرًا من الشخصيات المهمة تراه بوضوح. قال دون تحديد: «فهمت». استدار بشكل مُحرج لينأى عن أسلوبها الخلاب. نظر حوله والتقى عددًا من الأعين التي شغلت نفسها على الفور بأشياء أخرى. ربما توردت بشرته قليلًا. سأل، متجنبًا عينها: «مَنْ ذلك الرجل الذي يتحدث مع السيدة التي ترتدي ثيابًا باللون الأصفر البرتقالي؟».

(٣٢) لوحة «العم توبي والأرملة وادمان» (Uncle Toby and the Widow Wadman) التي رسمها في عام ١٨٣١ الكاتب والرسام الأمريكي تشارلز روبرت ليزلي (Charles Robert Leslie)، وُلد ومات في لندن (١٧٩٤-١٨٥٩). «الترجمة».

عرف أن الشخص المعني كان أحد كبار منظمي المسارح الأمريكية، وانتهى مؤخرًا من إنتاج عملاق في المكسيك. أثار وجهه لدى جراهام ذكرى تمثال نصفي لكاليجولا. لفت نظره رجل آخر، هو رئيس العمال السود. لم تترك العبارة أي انطباع عميق حينذاك، لكنها تكررت بعد ذلك... رئيس العمال السود؟ أشارت السيدة الصغيرة -دون أدنى شعور بالحرص- إلى امرأة صغيرة ساحرة باعتبارها إحدى الزوجات الفرعيات لأسقف الكنيسة الإنجيلية في لندن. وأضافت كلمات تمتدح الشجاعة الأسقفية... كانت قاعدة الزواج الأحادي للكهنة سارية... «وهذه حالة غير طبيعية ولا مناسبة للأشياء. لماذا يجب تقليص تطور العواطف الطبيعي وتقييده لأن الرجل كاهن؟».

«وبالمناسبة»، أضافت: «هل أنت أنجليكاني؟». كان جراهام على وشك الاستفسار مترددًا عن وضع «الزوجة الفرعية»، وهي على ما يبدو عبارة ملطفة، عندما قطعت عودة لينكولن هذه المحادثة الموحية والمثيرة للاهتمام. عبر الممر إلى حيث ينتظرهما في حياء رجل طويل القامة في زي قرمزي، وشخصان ساحران في زي بدا له أنه من بورما. انتقل من مجاملاتهم إلى آخرين.

بعد فترة وجيزة، بدأت انطباعاته المتعددة تنتظم في توجه عام. أثار بريق التجمع في البداية شعور جراهام الديموقراطي؛ إذ شعر بالعداء والسخرية. ومع ذلك، ليس من الطبيعة البشرية مقاومة جو الكياسة اللطيف. وسرعان ما بدأ عزف الموسيقى، والضوء، واللعب بالألوان، ولمعان الذراعين والكتفين حوله، ولمسات الأيدي، واهتمام الوجوه

المبتسمة العابر، وبراعة الأصوات المتغيرة بمهارة، وجو المجاملة والاهتمام والاحترام؛ وكل هذا معًا في نسيج من المتعة منقطعة النظير. نسي جراهام لفترة قراراته الهائلة. لقد أفسح الطريق إلى نشوة المنصب الذي مُنح له. أصبح أسلوبه مَلَكِيًّا بشكل أكثر إقناعًا، وأصبحت خطوات أقدامه أكثر ثقة، وتدلّت العباءة السوداء بطيات أكثر جرأة، وعزز الفخر صوته. قبل كل شيء، كان هذا عالمًا رائعًا ومثيرًا للاهتمام.

نظر إلى أعلى ورأى وجهًا يعبرُ جسرًا من الخزف ويتطلع نحوه. اختفى الوجه على الفور، وكان وجه الفتاة التي رآها بين عشية وضحاها في الغرفة الصغيرة وراء المسرح بعد هروبه من المجلس. كانت تراقبه. لم يتذكر في هذه اللحظة متى رآها، ثم جاءته ذكرى مبهمة عن مشاعر لقائهما الأول المثير. لكن شبكة الألحان الراقصة حوله أبقت أجواء أغنية تلك المسيرة العظيمة بعيدة عن ذاكرته.

كررت السيدة التي تحدث إليها ملاحظتها، وذكّر جراهام نفسه بالمغازلة شبه الملكية التي كان طرفًا فيها.

ومع ذلك -ولأسباب مجهولة- سرى في ذهنه تملّمل غامض، نما إلى شعور بعدم الرضى. كان مضطربًا كما لو أن واجبًا نصف منسي أو شعورًا بالأشياء المهمة يضيع منه وسط هذا الضوء والتألق. توقف الانجذاب الذي بدأت السيدات -اللاتي احتشدن حوله- ممارسته. لم يعد يقدم ردودًا غامضة وخرقاء على العروض الغرامية الخفية، التي تأكدت له الآن، وتجولت عيناه متجهتين نحو مشهد آخر... مشهد فتاة أول تمرد.

أين رآها على وجه التحديد؟

كان جراهام في إحدى الممرات العليا يتحدث مع سيدة لامعة العينين حول موضوع الإيدامايت، وكان الموضوع من اختياره لا اختيارها. قاطع تأكيداتنا الحارة بتفانيها الشخصي في إجراء تحقيق عن واقع الأمر. وجد قدر معرفتها أقل من جاذبيتها وسحرها، كما وجد بالفعل العديد من نساء ذلك العصر في تلك الليلة. وفجأة، وهو يكافح ضد انجرافه المستمر للحن أقرب، سمع أغنية الثورة، الأغنية العظيمة التي سمعها في القاعة، وصلت إلى سمعه بصوت أجش وساحق.

آه! الآن تذكر!

نظر إلى أعلى مذهولاً، شاهد فوقه عين ثور تصدر منها هذه الأغنية؛ وتقع خلفها مسارات الأحبال العلوية، وضباب أزرق، والبنية المعلقة لأضواء الطرق العامة. سمع الأغنية تتحول إلى صخب من الأصوات وتتوقف. أدرك بوضوح تام أزيز المنصات المتحركة واضطرابها، وهممة العديد من الناس. كان لديه اعتقاد غامض لم يتمكن من تفسيره، نوع من الشعور الغريزي، وهو وجود حشد ضخم في الخارج لا بد أنه يراقب هذا المكان الذي يستمتع فيه سيدهم.

وعلى الرغم من توقف الأغنية فجأة، وعلى الرغم من أن الموسيقى الخاصة لهذا التجمع أكدت نفسها مجدداً، ظلت فكرة أغنية المسيرة في ذهنه بمجرد أن بدأت.

كانت السيدة ذات العينين اللامعتين لا تزال تجتهد في شق طريقها خلال ألغاز الإيدامايت، عندما شاهد مرة أخرى الفتاة التي رآها في المسرح. كانت تسير الآن على طول الممر في اتجاهه. رآها أولاً قبل أن

تراه. كانت ملابسها رمادية خافتة اللّمعان، وشعرها الداكن حول حاجبيها مثل سحابة. وعندما رآها، سقط الضوء البارد من الفتحة الطريق الدائرية على وجهها الحزين.

رأت السيدة المتورطة في الإيدامات التغيير الذي حدث في تعبيره، واغتنمت الفرصة للهرب من الموضوع. سألته بجرأة: «هل يهملك أن تعرف تلك الفتاة، يا سيدي؟ إنها هيلين وُوتون، ابنة أخت أوستروج. وهي تعرف الكثير من الأشياء الخطيرة. إنها واحدة من أخطر الأشخاص الناشطين. وأنا على يقين أنها ستروقك».

وفي لحظة أخرى كان جراهام يتحدث إلى الفتاة، وأسّرت السيدة ذات العينين اللامعتين مبتعدة.

قال جراهام: «أذكرك جيداً. كنت في تلك الغرفة الصغيرة. عندما كان الناس جميعاً يغنون ويضبطون الإيقاع، قبل أن أعبّر القاعة». تجاوزت إحراجها اللحظي. نظرت إليه، وكان وجهها ثابتاً. قالت: «كان رائعاً». ترددت، ثم تحدثت فجأة بجهد: «كان كل هؤلاء الناس على استعداد للموت من أجلك يا سيدي. ومات عدد لا يُحصى من أجلك في تلك الليلة».

توهج وجهها. نظرت جانباً بسرعة، لتتأكد من عدم سماع أي شخص آخر لكلماتها.

ظهر لينكولن عن بُعد في الممر، وهو يشق طريقه خلال الزحام نحوهما. رآته، والتفتت إلى جراهام بتلهف غريب، مع تغيير سريع في أسلوبها ينم عن الثقة والحميمية. قالت بسرعة: «يا سيدي، لا أستطيع

أن أخبرك الآن وهنا. لكن عامة الناس غير سعداء على الإطلاق؛ إنهم مضطهدون... ويُحكَمون بشكل سيئ. لا تنسَ الناس الذين واجهوا الموت.. واجهوا الموت كي تعيش».

قال جراهام: «أنا لا أعرف شيئاً».

- لا أستطيع إخبارك الآن.

ظهر وجه لينكولن بالقرب منهما. انحنى اعتذاراً للفتاة.

«هل تجد العالم الجديد ممتعاً يا سيدي؟»، سأل لينكولن مبتسماً باحترام وهو يشير بلفتة واحدة شاملة إلى مكان التجمع وروعته، «على أي حال، تجده قد تغير».

«نعم»، أجاب جراهام: «تغير. ومع ذلك، لم يتغير كثيراً».

قال لينكولن: «انتظر حتى تصبح في الجو. انخفضت الرياح، والآن تنتظرك طائفة».

أوضح سلوك الفتاة أنها تنتظر أن تنصرف.

نظر جراهام إلى وجهها، وكان على وشك طرح سؤال، لكنه وجد تحذيراً في تعبيرها، فانحنى لها واستدار لمرافقة لينكولن.



الفصل السادس عشر

الطائرة أحادية السطح

تجمعت منصات الطيران في لندن على شكل هلال غير منتظم عند الجانب الجنوبي من النهر، وشكلت ثلاث مجموعات تضم كل منها اثنتين، مع الاحتفاظ بأسماء تلال أو قرى الضواحي القديمة. والأسماء بالترتيب هي: روهامبتون، ويمبلدون بارك، ستريتم، نوروود، بلاكهيث، شوترز هيل. كانت هياكل متماثلة ترتفع عاليًا فوق الأسطح العامة. بلغ طول كل منها حوالي أربعة آلاف ياردة وبلغ عرضها ألفًا، وشيدت من مُركَّب يضم الألومنيوم والحديد، الذي حل محل الحديد في الهندسة المعمارية. شكَّلت مستوياتهم العليا زخارف مفتوحة من العوارض، ترتفع خلالها المصاعد والسلالم. أما السطح العلوي، فكان عبارة عن مساحة منتظمة، مع أجزاء -حوامل البدء- يمكن رفعها بحيث تتمكن من التحرك على قضبان مائلة قليلًا إلى نهاية البنية.

سلك جراهام الطرق العامة متوجِّهاً إلى منصات الطيران، وبصحبه مرافقه الياباني أسانو. جاء استدعاء إلى لينكولن من أوستروج، الذي كان مشغولاً بمهامه الإدارية. كان حراس أشداء من شرطة دَوَّارات الرياح في

انتظار السيد خارج مكاتب دوائر الرياح، وتولوا إخلاء مساحة له على المنصة المتحركة العليا. كان مساره إلى منصات الطيران غير متوقع، ومع ذلك تجمع حشد كبير وتبعوه إلى وجهته. سمع خلال سيره هتافات الناس باسمه، ورأى عددًا لا يُحصى من الرجال والنساء والأطفال في ملابس زرقاء يتجمعون على سلالم المسار المركزي، وهم يلوحون ويصيحون. لم يتمكن من سماع ما يصيحون به. أذهله مرة أخرى ذلك الوجود الواضح للهجة مبتذلة بين فقراء المدينة. وعندما نزل أخيرًا، أحاط به على الفور حشد كثيف متحمس من حراسه. خطر له بعد ذلك أن بعضهم حاول الوصول إليه بعرائض. أخلى حراسه ممرًا له بصعوبة.

وجد طائرة أحادية تحت مسؤولية طيار ينتظره على المنصة غربًا. لم تعد هذه الآلية صغيرة عند رؤيتها عن قرب. تقع الطائرة فوق حامل إطلاقها على مساحة واسعة من منصة الطيران، وهيكلها الألومنيوم كبير مثل هيكل يخت يزن عشرين طنًا. تُبَتَّت أشرعتها الجانبية الداعمة خلال أوتار معدنية تشبه تقريبًا أوتار جناح النحلة، ومصنوعة من نوع من الغشاء الاصطناعي الزجاجي، وتلقي ظلالها على مئات الياقوتات المربعة. يتدلى مقعد المهندس والراكب بحرية، للتأرجح عن طريق بكرة مُعَقَّدة، داخل الأضلاع المخصصة لحماية الإطار، وخلف المنتصف تمامًا. كان مقعد الراكب محميًا بحاجز للرياح، ومحروسًا بقضبان معدنية تحمل وسائل هوائية. ويمكن إغلاقه تمامًا بناء على رغبة الراكب، لكن جراهام كان متلهفًا لخوض تجارب جديدة، وأراد تركه مفتوحًا. جلس الطيار خلف زجاج لحماية وجهه. ويمكن للراكب تأمين نفسه بقوة في مقعده، وهذه مسألة لا مفر منها عند الهبوط؛ أو يمكنه التحرك على طول قضيب صغير

إلى خزانة في الماكينة، حيث توضع أمتعته الشخصية وأغطيته، والأدوية المُنشطة؛ كما تُعدُّ أيضًا مع المقاعد بمثابة ثقل على أجزاء المحرك المركزي التي توجد عند المروحة في المؤخرة.

منصة الطيران حوله خالية، باستثناء أسانو ومجموعة المرافقين. جلس في مقعده بتوجيه من الطيار. تحرك أسانو مبتعدًا عن هيكل الطائرة، ووقف على المنصة ملوِّحًا بيده. بدا كأنه ينزلق على طول المنصة يمينًا ويخفني.

يطن المحرك بصوت عال، والمروحة تدور. وفي لحظة كانت المنصة والمباني خلفها تنزلق بسرعة أفقيًا أمام عيني جراهام؛ ثم بدت تلك الأشياء تميل فجأة. وعلى نحو غريزي أمسك القضبان الصغيرة على جانبيه. شعر أنه يتحرك إلى أعلى، وسمع صفير الهواء فوق الجزء العلوي من الحاجز الزجاجي. تحرك مسمار المروحة اللولبي دائريًا مع إصدار نبضات إيقاعية قوية - واحد، اثنان، ثلاثة، وقفة؛ واحد، اثنان، ثلاثة - سيطر المهندس عليها بدقة شديدة. بدأت الآلة اهتزازًا مرتعشًا استمر طوال الرحلة، وبدأ أن مناطق السطح تتحرك يمينًا بسرعة كبيرة، وتصبح أصغر. ومن خلال وجه المهندس نظر إلى أضلاع الآلة. نظر إلى الجانب، ولم يرَ أي شيء مدهل؛ ربما كانت السكك الحديدية الجبلية السريعة لتعطي نفس الأحاسيس. استطاع أن يتعرف على مقر المجلس وهايجيت ريدج. ثم نظر مباشرة بين قدميه.

استحوذت عليه للحظة حالة رعب جسدي، شعور انفعالي بعدم الأمان. تمسك بشدة. لم يتمكن -لثانية أو نحو ذلك- من رفع عينيه. في

الأسفل -بحوالي مائة قدم أو أكثر- تقع إحدى دَوَّارات الرياح الكبيرة في جنوب غرب لندن؛ وخلفها تزدهم منصة الطيران في أقصى الجنوب بنقاط سوداء صغيرة. ثم بدت هذه الأشياء تتراجع عنه. وللحظة شَعَرَ بدافع لمتابعة الأرض. حزم أمره، ورفع عينيه بجهد عضلي، ومرت لحظة الذعر. بقي فترة متماسكًا وعيناه تحدقان في السماء. نبضة، نبضة، نبضة -دقة؛ استمر المحرك؛ نبضة، نبضة، نبضة- دقة. أحكم قبضته على القضبان، ثم ألقى نظرة على الطَّيَّار، ورأى ابتسامة على وجهه الذي لفحته الشمس. ابتسم في المقابل، ربما بشكل مصطنع قليلًا. صاح قبل أن يتذكر مهابته: «هذا غريب بعض الشيء، في البداية». لكنه لم يجرؤ لبعض الوقت على النظر إلى أسفل. حدَّق من فوق رأس الطيار، إلى حيث تسلت حافة من الأفق الأزرق الغامض إلى السماء. ظل لفترة قصيرة عاجزًا عن إبعاد فكرة الحوادث المحتملة عن ذهنه. نبضة، نبضة، نبضة- دقة؛ لنفترض أن صامولة لولبية تافهة تحركت بشكل خاطئ في هذا المحرك الداعم! لنفترض! بذل جهدًا كبيرًا للتخلص من كل هذه الافتراضات. وبعد فترة تخلت تلك الافتراضات عن موقعها على الأقل في صدارة أفكاره. ثم بدأ يرتفع تدريجيًّا، أعلى وأعلى في الهواء النقي.

وبمجرد أن انتهت الصدمة العقلية المرتبطة بالتحرك دون دعم في الهواء، كفت مشاعره عن الانزعاج، وسرعان ما أصبح الأمر ممتعًا. لقد حذروه من الإصابة بدوار الهواء. لكنه وجد أن الحركة النابضة للطائرة أحادية السطح -خلال ارتفاعها في النسيم الجنوبي الغربي الخفيف- تزيد قليلًا على ميل مقدمة قارب على بكرات واسعة في عاصفة معتدلة، وقد كان في الأساس بحارًا جيدًا. كما أدَّى اندفاع الهواء المُخلخل الذي

صعدوا إليه إلى شعور بالخفة والبهجة. نظر إلى أعلى ورأى السماء الزرقاء تقطعها سحب رقيقة. انتقل بصره بحذر إلى أسفل، شاهد من خلال الأضلاع والقضبان تحليق طيور بيضاء في السماء السفلى. استمر يراقبها لبعض الوقت. ثم انخفض بصره أكثر وبتخوف أقل، رأى الشكل النحيل لموقع رقابة حارس دوارات الرياح، رآه متألقاً بلون ذهبي تحت ضوء الشمس، ويزداد حجمه صغراً في كل لحظة. وعندما نظر بمزيد من الثقة الآن، شاهد خطأً أزرق من التلال، ثم شاهد لندن، في اتجاه الريح بالفعل، مساحة متشابكة من الأسطح. ظهرت حافتها القريبة حادة وواضحة، وأبعدت مخاوفه الأخيرة في صدمة مفاجئة. فقد كانت حدود لندن مثل جدار، مثل جرف، هبوط حاد لثلاثمائة قدم أو أربعمائة، واجهة لا تقطعها سوى شرفات تتناثر هنا وهناك، واجهات زخرفية متشابكة.

لم يعد هذا المسار التدريجي -من الريف إلى المدينة خلال كتلة واسعة من الضواحي- موجوداً، وهو ما كان سمة مميزة للمدن الكبرى في القرن التاسع عشر. لم يبقَ منه شيء هنا إلا امتداد من الأطلال؛ أطلال متنوعة وكثيفة بغابات من أنواع غير متجانسة من النماء الذي كان يزين ذات يوم حدائق هذه المنطقة، وتدخلها رقع بُنية مستوية من الأراضي المزروعة، وامتدادات خضراء من نباتات الشتاء. وتناثرت حتى تلك النباتات بين بقايا المنازل. وباستثناء الجزء الأكبر من الأكمام وخرائب الأنقاض، كان حطام فيلات الضواحي يتناثر بين الشوارع والطرق كجزر غريبة وسط مساحات مستوية باللونين الأخضر والبني، وقد هجرها سُكَّانها بالفعل منذ سنوات، لكنها ضخمة جداً بحيث تصعب إزالتها من الطريق باستخدام آليات البستنة المنتشرة في ذلك الوقت.

تموّج الغطاء النباتي لهذه النفايات وتشعّب وسط قطع لا تُعد ولا تُحصى من جدران المنازل المتداعية، وامتد على طول سفح سور المدينة في أمواج من نباتات العليق، والبهشية شائكة الأطراف، والبلابل، والممشقيات، والأعشاب الطويلة. ارتفعت هنا وهناك قصور مبهجة مبهرجة وسط بقايا ضئيلة من العصر الفيكتوري، مع ميل طرق الأحبال نحوهم من المدينة. بدت مهجورة في ذلك اليوم المطير. كما كانت الحداثق الاصطناعية مهجورة أيضًا بين الانقراض. أما حدود المدينة، فكانت مرسومة في الواقع بشكل حاد مثل الأيام القديمة، عندما كانت البوابات تُغلق عند حلول الظلام ويطوف العدو السارق خلصة حول الأسوار. تتدفق حركة مرور نشطة من ممر شبه دائري إلى طريق إيداميت باث. وهكذا ظهرت أمام جراهام أول لمحة سريعة لمشهد العالم خارج المدينة، ثم بدأ يتضاءل. وعندما استطاع أخيرًا أن ينظر عموديًا إلى أسفل مرة أخرى، رأى أسفله حقول الخضروات في وادي نهر التايمز؛ مستطيلات دقيقة لا تُعد ولا تُحصى باللون البني المائل إلى الحمرة، تقطعها خيوط لامعة وأنابيب الصرف الصحي.

زاد ابتهاجه بسرعة، وأصبح نوعًا من النشوة. وجد نفسه يستنشق أنفاسًا عميقة من الهواء، ويضحك بصوت عالٍ، ويرغب في الصباح. أصبحت تلك الرغبة قوية جدًا بعد فترة، فصرخ. مالت الطائرة نحو الجنوب، مع انحراف قليل في اتجاه الرياح وتعاقب بطيء للحركة؛ صعود قصير وحاد أولًا، ثم انزلاق طويل سريع وممتع إلى أسفل. لم تكن المروحة نشطة على الإطلاق خلال عمليات الهبوط الانزلاقي تلك. منح الصعود جراهام إحساسًا رائعًا بالجهد الناجح، على أن الهبوط عبر الهواء المخلخل كان

يتجاوز جميع التجارب. أراد عدم مغادرة الهواء العلوي أبداً مرة أخرى. ظل يركز لفترة على المناظر الطبيعية التي تبدو بسرعة تحته في اتجاه الشمال. أسعدته كثيراً تفاصيلها الدقيقة الواضحة. تأثر من مشاهدة أنقاض المنازل التي ملأت البلد ذات يوم، والمساحة الشاسعة التي خلت من الأشجار في بلد اختفت منه جميع المزارع والقرى، ولم يبقَ إلا أنقاض متداية. كان يعرف ذلك، لكن المشاهدة كانت مسألة مختلفة تماماً. حاول تحديد أماكن مألوفة داخل الحوض المجوف لهذا العالم أدناه؛ لكنه لم يتمكن في البداية من تمييز أي شيء الآن بعد أن تركت الطائرة وادي نهر التايمز وراءها. على أن الطائرة سرعان ما حلقت فوق تلة طباشيرية حادة، عرف أنها هوجز باك في جيلدفورد. وقد تمكن من التعرف عليها بسبب الخطوط العريضة المألوفة للمضيق الذي يقع في نهاية التلة شرقاً، وبسبب أنقاض المدينة التي ارتفعت بشكل حاد على جانبي هذا المضيق. ومن هنا تمكن من التعرف على مواضع أخرى، مثل ليث هيل، الامتدادات الرملية في ألدرشوت، وهلم جرا. وباستثناء طريق إيداميت بورتثماوث الواسع -الذي تسرع عليه بكثافة أشكال متنوعة، ومسار السكك الحديدية القديمة- كانت الغابات تخنق طريق المضيق.

وبقدر ما أتاح له الضباب الرمادي الرؤية، تمكن من تحديد امتداد جرف داونز بأكمله، مع عجالات الرياح التي كان أكبرها في المدينة بمثابة شقيق أصغر. تحركت الطائرة ببطء أمام الرياح الجنوبية الغربية. تناثرت هنا وهناك قطع ترعى فوقها أغنام تابعة لصندوق الغذاء البريطاني، وأقام الراعي الممتطي فرساً بقعاً سوداء متفرقة. ثم اندفعت عند مؤخرة الطائرة في أسفل مرتفعات ويلدون، وخط يضم هيندهيد، وبيتش هيل، وليث

هيل؛ بالإضافة إلى صف ثانٍ من عجلات الرياح، التي بدت تسعى جاهدة لسرقة حصّة دوامات الأراضي المنخفضة من النسيم. كانت بذور صفراء تتناثر على نبات الخلنج الأرجواني، وعلى الجانب الآخر، كانت مجموعة من الثيران السوداء تسير أمام اثنين من الرجال الممتطين أحصنة. وسرعان ما تباعدت هذه الأشياء، وتضاءلت وفقدت لونها، وأصبحت مجرد بقع متحركة ابتلعها الضباب.

وعندما تلاشت هذه الأشياء مع ابتعاد المسافة، سمع جراهام نحيب هدهد قريب. عرف أنهم يحلقون الآن فوق ساوث داوونز. وعندما حلق من فوق كتفه، شاهد أسوار منصة الهبوط في بورتسموث، على ارتفاع شاهق فوق قمة بورتسداون هيل. وشاهد في لحظة أخرى انتشار السفن كأنها مدن عائمة، ثم تضاؤل المنحدرات البيضاء الصغيرة المُشمسة في نيدلز، ومياه البحر الضيق الرمادية المتألقة. يبدو أنهم قفزوا من فوق مضيق سولنت في لحظة؛ وعبروا فوق جزيرة وايت في بضع ثوان؛ ثم امتد في أسفل بحر واسع النطاق، هنا لونه أرجواني في ظل سحابة، وهنا رمادي، وهنا كالمرآة المصقولة، وهنا ينتشر اللون الأزرق المخضر الغائم. أخذت جزيرة وايت تتضاءل. وبعد بضع دقائق أخرى، فصل شريط من الضباب الرمادي نفسه عن الشرائط الأخرى التي كانت غيومًا، وهبط من السماء وأصبح خط ساحل مضاء بأشعة الشمس وممتعًا، ساحل شمال فرنسا. لقد ارتفع، واتخذ لونًا، وأصبح مُحددًا ومفصلاً؛ وكان نظير داوونلاند في إنجلترا يسرع أدناه.

ظهرت باريس في الأفق بعد وقت صغير، ظلت معلقة هناك لفترة ثم غرقت ثانية بعيدًا عن الأنظار عندما دارت الطائرة في اتجاه الشمال. لكنه

رأى برج إيفل لا يزال قائماً، وبجانبه قبة ضخمة يعلوها عملاق ضخمة. رأى أيضاً دخاناً ينجرف مائلاً؛ لكنه لم يفهم ذلك حينذاك. قال الطيار شيئاً عن «المتاعب في الطرق السفلية»، ولم يهتم جراهام. لكنه حدد المنارات والأبراج والكتل النحيلة التي اندفعت إلى السماء فوق دوارات الرياح في المدينة، وعرف أنها ميزة على الأقل استمرار وجود باريس أمام منافسها الأكبر. وعندما نظر، رأى شكلاً بلون أزرق شاحب يصعد بسرعة كبيرة من المدينة، مثل ورقة شجر ميتة تتحرك أمام عاصفة. انحنى دائرياً وارتفعت في اتجاههم، وسرعان ما أخذت تبدو أكبر وأكبر. كان الطيار يقول شيئاً. «ماذا؟»، سأله جراهام دون أن يبعد عينيه عما يشاهده. أشار الطيار صائحاً: «طائرة لندن يا سيدي».

ومع اقترابها، ارتفعوا ومالوا نحو الشمال. كلما اقتربت، بدت أكبر. أما إيقاع الطائرة أحادية السطح، نبضة، نبضة، نبضة - دقة، الذي كان قوياً وسريعاً، فقد بدا فجأةً بطيئاً مقارنةً بهذا الاندفاع الهائل. ما أعظم الوحش، يا لسرعته وثباته! حلفت أسفلهم عن قرب، وواصلت رحلتها بصمت، امتداد واسع من الأجحة الشفافة ذات نسيج شبكي من الأسلاك، كأنها شيء حي. ألقى جراهام لمحة لحظية على صفوف و صفوف من الركاب في أعطيتهم، مسترخين في سلال شبكية صغيرة وراء مصدات الرياح، ومهندس يرتدي ملابس بيضاء يسير ببطء في مواجهة العاصفة على طول طريق سلمي، ومحركات نابضة تدق معاً، ومسمار الرياح اللولبي، وامتداد واسع للجناح. أسعدته المشاهدة. ومرت الطائرة في لحظة.

ارتفعت قليلاً وتمايلت أجنتها الصغيرة في اندفاع طيرانها. أخذت تهبط وتبدو أصغر. بدا أنهم بالكاد يتحركون، قبل أن تصبح مرة أخرى

مجرد شيء أزرق مسطح يتضاءل في السماء. إنها الطائرة التي تطير جيئة وذهاباً بين لندن وباريس. تروح وتجيء أربع مرات في اليوم في الطقس المعتدل وفي أوقات السلم. عبروا القناة، ببطء كما بدت الآن أفكار جراهام التي توسعت، وارتفعت بيتشي هيد بلون رمادي على يسارهم. قال الطيار: «الهبوط»، وجاء صوته ضئيلاً في مواجهة صفير الهواء فوق مصد الرياح.

«ليس بعد»، صاح جراهام ضاحكاً، «لن نهبط الآن. أريد أن أعرف المزيد عن هذه الآلة».

قال الطيار: «تعني...».

كرر جراهام: «أريد أن أعرف المزيد عن هذه الآلة».

ثم أضاف: «أنا قادم إليك»، وحرر نفسه من مقعده وخطا على الحاجز الواقى بينهما. توقف للحظة، وتغير لونه، وتوترت يداه. وبعد خطوة أخرى كان يقف متماسكاً بالقرب من الطيار. شعر بثقل على كتفه، ضغط الهواء. كانت قبعته نقطة تدور خلفه. هبت الريح على مصد الرياح أمامه، ونثرت شعره كشرائط على خده. أجرى الطيار بعض التعديلات المتسارعة لتحويل مركزي الجاذبية والضغط.

قال جراهام: «أريدك أن توضح لي هذه الأمور. ماذا يحدث عندما تُحرك ذلك المحرك إلى الأمام؟».

تردد الطيار، ثم أجاب: «إنها مسألة معقدة يا سيدي».

«لا يهمني»، صاح جراهام، «لا يهمني».

حدث توقف لحظي. «علم الطيران هو السر... الامتياز...».

«أعرف. لكنني السيد، وأريد أن أعرف». ضحك وهو مليء بهذا الإدراك الجديد للسلطة، التي منحها له طبقات الهواء العليا. انحنى الطائرة أحادية السطح في استدارة. لفحت الرياح العاتية الجديدة وجه جراهام، والتصقت ملابسه في جسده مع استدارة الطائرة إلى الغرب. نظر الرجلان في عيني بعضهما.

- سيدي، هناك قواعد...

«ليس حين يهمني الأمر»، قال جراهام، «يبدو أنك تنسى».

تمعن الطيار في وجهه، ثم قال: «لا. أنا لا أنسى يا سيدي. وإنما في جميع أنحاء الأرض... لا توجد فرصة على الإطلاق لأي رجل، إن لم يكن طياراً حلف اليمين. إنهم يأتون كمسافرين».

- لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل. لكنني لن أجادل في هذه النقاط. هل تعرف لماذا نمت مائتي عام؟ لكي أطيّر!

«سيدي»، قال الطيار، «إنها القواعد... وإذا كسرت القواعد...».

لوح جراهام بما يشير إلى وضع العقوبات جانباً.

- إذن، إذا كنت ستراقبني...

«لا»، قال جراهام وهو يتمايل ويتشبث بقوة، بينما ترفع الآلة أنفها مرة أخرى لتصعد. «هذه ليست لعبتي. أريد أن أفعل ذلك بنفسي. أفعل ذلك بنفسني حتى إذا فشلت وتحطمت! لا! سأفعل. انظر، سأسلق هنا... كي آتي وأشاركك مقعدك. اثبت! أعني أن أطيّر بنفسني، حتى إن تحطمت في النهاية. يجب أن أدفع شيئاً مقابل نومي. من بين كل الأشياء الأخرى... كان حلمي في الماضي أن أطيّر. والآن... حافظ على توازنك».

- عشرات الجواسيس يراقبونني يا سيدي.

وصل انفعال جراهام إلى نهايته. ربما اختار أن ينهي الوضع. أقسم أن يطير. تأرجح حول كتلة الروافع المتداخلة، وتمايلت الطائرة أحادية السطح.

«هل أنا سيد الأرض؟»، قال، «أم هو مجتمعك؟ الآن. أبعد يدك عن تلك الروافع وأمسك معصمي. نعم.. هكذا. والآن، كيف ندير أنفها إلى أسفل كي تنزلق؟».

«يا سيدي»، قال الطيار.

- ماذا؟

- هل ستحميني؟

- يا إلهي! نعم! حتى إذا تطلب الأمر حرق لندن. والآن!

وبهذا الوعد اشترى جراهام أول درس له في الملاحة الجوية: «من الواضح تمامًا أن هذه الرحلة لصالحك، كي تُعلمني بسرعة وبشكل جيد: هذه الرحلة»، قال ضاحكًا بصوت عالٍ، حيث كان الهواء مثل النبيذ القوي: «هل أسحب هذا؟ آه! هكذا! يا هلا!».

- إلى الوراء سيدي! إلى الوراء!

- إلى الوراء - اليمين. واحد... اثنان... ثلاثة، يا إلهي! آها! ها هي

ترتفع! لكنها مفعمة بالحياة!

بدأت الآلة الآن ترقص أغرب الأشكال في الهواء. قد تحلق الآن حول دوامة يبلغ قطرها حوالي مائة ياردة، وتندفع الآن في الهواء ثم تنقض ثانية بحدة وسرعة هابطة مثل صقر، ثم تعود إلى الطيران في حلقة

سريعة ترفعها إلى أعلى مرة أخرى. بدأ الأمر في إحدى عمليات الهبوط تلك كأنها تتحرك مباشرة في حديقة من البالونات المتدفقة في الجنوب الشرقي، وتتمايل حولها وتبعدها عن طريق استعادتها المفاجئة للبراعة. أدت السرعة الاستثنائية ونعومة الحركة -فضلاً عن التأثير الاستثنائي للهواء المخلخل على مزاجه- إلى شعور جراهام بانفعال طائش.

على أن واقعة غريبة حدثت وأدت إلى تهدئته، وإلى تحليقه إلى أسفل مرة أخرى، إلى الحياة المزدهمة أدناه بكل ألغازها المبهمة التي يصعب حلها. أثناء انقضاضه، سمع دقة، وطار شيء محلقاً، وسقوط ما يشبه قطرة من المطر. وعندما هبط، رأى شيئاً مثل قطعة قماش بيضاء تدور إلى أسفل في أعقابها.

سأل: «ما هذا؟ لم أره».

ألقي الطيار نظرة خاطفة، ثم أمسك الرافعة لاستعادة الوضع؛ لأنهم كانوا يهبطون بقوة. وعندما بدأت الطائرة أحادية السطح ترتفع مرة أخرى، أخذ نفساً عميقاً وأجاب: «هذا»، وأشار إلى أن الشيء الأبيض لا يزال يرفرف إلى أسفل، «كان بجعة».

قال جراهام: «لم أرها قط».

لم يرد الطيار، ورأى جراهام قطرات صغيرة على جبهته. طاروا أفقيًا، بينما تسلق جراهام مرة أخرى إلى مكان الراكب بعيداً عن سوط الرياح. ثم بدأ الاندفاع السريع إلى أسفل، مع دوران مسمار الرياح اللولبي للتحقق من الهبوط، وأخذت منصة الطيران تبدو واسعة ومظلمة أمامهم. هبطت معهم الشمس، وهي تغرق فوق تلال الطباشير في الغرب، وتركت السماء شعلة ذهبية.

وسرعان ما أمكن رؤية الرجال كنقاط صغيرة. سمع ضجيجًا قادمًا
لمقابلته، ضوضاء تشبه صوت الأمواج على شاطئ مُغطًى بالحصى،
كما رأى الأسطح المحيطة بمنصة الطيران تزدحم بشعبه المبتهج بعودته
سالمًا. تزاхمت كتلة سوداء تحت المسرح، وتناثرت في الظلام وجوه لا
تُعد ولا تُحصى، تهتز مع تمايل تلويح الأيدي والمناديل البيضاء.



الفصل السابع عشر

ثلاثة أيام

كان لينكولن ينتظر جراهام في شقة تقع أسفل منصات الطيران. بدا فضوليًّا لمعرفة كل ما حدث، وأسعده أن يسمع عن شعور جراهام بالبهجة والاهتمام غير العاديين بالطيران. وكان مزاج جراهام حماسيًّا؛ صاح: «يجب أن أتعلم الطيران، يجب أن أتقنه. إنني أشفق على جميع تلك الأرواح المسكينة التي ماتت دون أن تحظى بهذه الفرصة. الهواء السريع اللطيف! إنها أروع تجربة في العالم».

قال لينكولن: «ستجد عصرنا الجديد مليئًا بتجارب رائعة. لا أعرف ماذا تريد أن تفعل الآن. لدينا موسيقى ربما تبدو جديدة».

قال جراهام: «يشغلني الطيران حاليًّا. دعني أتعلم المزيد عنه. أخبرني الطيار أن هناك اعتراضات لهيئة الطيران على تعلُّم المرء».

«أعتقد أن هناك اعتراضات»، قال لينكولن: «ولكن بالنسبة لك...! إذا رغبت في أن تشغل نفسك بالطيران، يمكننا أن نجعلك طيارًا مُحلفًا من الغد».

أعرب جراهام عن رغبته بوضوح، وظل لبعض الوقت يتحدث عن أحاسيسه. وفجأة سأل: «وبالنسبة للأوضاع، كيف تسير الأمور؟».

قال لينكولن، ملوحًا بالأوضاع جانبًا: «سيخبرك أوستروج غدًا. كل شيء يستقر. والثورة تحقق نفسها في جميع أنحاء العالم. لا مفر من الاحتكاك هنا وهناك بطبيعة الحال؛ لكن حُكمك مؤكد. يمكنك الاطمئنان لوجود الأشياء في أيدي أوستروج».

قال جراهام، وهو يسرع خطاه: «هل يمكن أن أصبح طيارًا مُحلفًا، كما تسمونه، على الفور... أي قبل أن أنام؟ وبالتالي أبدأ في ذلك من الغد ثانية...».

فكر لينكولن وقال: «أعتقد هذا ممكن. ممكن جدًا. بالفعل، يجب أن يحدث». ثم أضاف ضاحكًا: «لقد جئت مستعدًا لاقتراح أنواع من التسلية، لكنك وجدت واحدة لنفسك. سأهاتف مكاتب الطيران من هنا، وسنعود إلى شققكم في هيئة دوارات الرياح. وسيأتي الطيارون إليك بعد أن تتناول العشاء. ألا تعتقد أنك بعد تناول العشاء قد تفضل...؟»، توقف عن الكلام.

قال جراهام: «ماذا؟».

- لقد أعدنا عرضًا للراقصين، أحضرناهم من مسرح كابري.

قال جراهام بإيجاز: «أنا أكره البالية. كرهته دائمًا. هذا الشيء الآخر... هذا ليس ما أريد رؤيته. كان لدينا راقصون في زمننا القديم. وفي هذا المجال، كان هناك كثيرون منهم في مصر القديمة. لكن الطيران...». «صحيح»، قال لينكولن، «على الرغم من أن راقصينا...».

«بإمكانهم الانتظار»، قال جراهام، «بإمكانهم الانتظار. أعرف. أنا لست لاتيّنًا. هناك أسئلة أود طرحها على بعض الخبراء حول آلاتكم. أنا

متحمس، ولا أريد أي تشتيت للانتباه».

قال لينكولن: «لديك العالم كله لتختار منه؛ كل ما تريده هو لك».

ظهر أسانو، وتحت حراسة قوية ساروا في شوارع المدينة عائدين إلى شقق جراهام. تجمعت حشود لمشاهدة عودته أكثر كثيرًا من تلك التي تجمعت لمشاهدة رحيله. كانت صيحات وهتافات هذه الجماهير الغفيرة تغطي أحيانًا على إجابات لينكولن على الأسئلة اللا نهائية التي أثارها رحلة جراهام الجوية. واجه جراهام في البداية هتافات وصيحات الحشد بالانحاء والتلويح، لكن لينكولن حذره من أن مثل هذا التقدير سيُعتبر سلوكًا غير صحيح. وجراهام -الذي أرهاقه بالفعل تلك المجاملات الإيقاعية- تجاهل رعاياه في المرحلة المتبقية من مروره العام.

بمجرد وصولهم إلى شققه، غادر أسانو بحثًا عن العروض السينماتوجرافية للآلات المتحركة، وأرسل لينكولن أوامر جراهام للحصول على نماذج من الآلات مختلفة الأحجام لتوضيح جوانب التقدم الميكانيكي المختلفة خلال القرنين الماضيين. جذبت مجموعة صغيرة من أجهزة الاتصال التلغرافي انتباه السيد بقوة، إلى حد أن عشاء المُعد بشكل مبهج -وقدمته عدة فتيات بارعات ساحرات- انتظر لفترة. كانت عادة التدخين قد توقفت تقريبًا على وجه الأرض، لكنه عندما أعرب عن رغبته في هذا التساهل، جرت عمليات البحث واكتشفوا وجود سيجار ممتاز في فلوريدا، ووصل إليه عن طريق الإرسال الهوائي بينما كان يتناول العشاء. وبعد ذلك جاء الطيارون، وفي أيدي مهندس عصري وليمة من العجائب البارعة. في ذلك الوقت، على أي حال، كانت البراعة المُتقنة

لآلات العد والترقيم، وآلات البناء، وماكينات الغزل، والاختراعات، والمحركات المتفجرة، ومخازن الغلال والمياه، وآلات الذبح، وأدوات الحصاد، أكثر إبهارًا لجراهم من أي عرض راقص. «كنا متوحشين»، كان تعليقه المتكرر، «كنا متوحشين. كنا في العصر الحجري، مقارنة مع هذا... وماذا لديكم أيضًا؟».

جاء أيضًا علماء النفس العمليون ومعهم بعض التطورات المثيرة جدًا للاهتمام في فن التنويم المغناطيسي. ووجد أن أسماء ميلن برامويل^(٣٣)، وفيشنر^(٣٤)، وليبو^(٣٥)، وويليام جيمس^(٣٦)، ومايرز^(٣٧)، وجورني^(٣٨)، تحمل قيمة الآن كانت لتدهش معاصريهم. وهناك عدة تطبيقات عملية لعلم النفس تُستخدم الآن بشكل عام؛ وقد حلت إلى حد كبير محل الأدوية، والمطهرات، والتخدير في الطب؛ ويستخدمها تقريبًا جميع من يحتاجون إلى تركيز ذهني. ويبدو أن التوسع الحقيقي للقدرة البشرية قد تحقق في هذا الاتجاه. إن مآثر «الأولاد اليقظين» -العجائب الفاتنة، كما

(٣٣) ميلن برامويل (Milne Bramwell): طبيب وجراح أسكتلندي، ومنوم مغناطيسي متخصص، تلقى تعليمه في جامعة إدنبرة (١٨٥٢ - ١٩٢٥). «المترجمة».

(٣٤) جوستاف تيودور فشنر (Gustav Theodor Fechner): طبيب نفسي تجريبي وفيلسوف وفيزيائي ألماني (١٨٠١ - ١٨٨٧). «المترجمة».

(٣٥) امبرواز- أوجست ليبو (Ambroise-Auguste Liébeault): طبيب نفسي فرنسي، ويُعتبر مؤسس العلاج الحديث بالتنويم المغناطيسي (١٨٢٣ - ١٩٠٤). «المترجمة».

(٣٦) وليام جيمس (William James): فيلسوف وطبيب نفسي أمريكي (١٨٤٢ - ١٩١٠). «المترجمة».

(٣٧) إيزابل بريجز مايرز (Isabel Briggs Myers): كاتبة أمريكية (١٨٩٧ - ١٩٨٠)، شاركت مع والدتها كاترين كوك بريجز في إنشاء مؤشر مايرز بريجز للأنماط. «المترجمة».

(٣٨) إدmond جورني (Edmund Gurney): طبيب نفسي إنجليزي (١٨٤٧ - ١٨٨٨). «المترجمة».

اعتبرها جراهام - هي الآن في نطاق أي شخص بمقدوره أن يتحمل تكلفة منوم مغناطيسي ماهر. ومنذ فترة طويلة، أدت هذه الوسائل إلى تدمير أساليب الامتحانات القديمة في التعليم. فبدلاً من الدراسة لسنوات، لجأ المرشحون إلى بضعة أسابيع من الغيبة، وخلالها كان على المدربين الخبراء ببساطة تكرار جميع النقاط اللازمة لإجابة وافية، مع إضافة إحياء بتذكّر هذه النقاط بعد انتهاء التنويم المغناطيسي. وفي عمليات الرياضيات بوجه خاص، كانت هذه الأداة المُعينة تمثل خدمة فريدة من نوعها، والآن يطلبها دائماً لاعبو الشطرنج وألعاب البراعة اليدوية التي لا تزال موجودة. وفي واقع الأمر، أمكن منهجياً الآن إخلاء جميع العمليات التي تجري بموجب قواعد محدودة، أي من نوع شبه ميكانيكي، من شرود الخيال والعاطفة، ووصلت إلى درجة غير مسبوقة من الدقة. أما الأطفال الصغار من الطبقات العاملة، فبمجرد وصولهم إلى سن مناسبة لتنويمهم مغناطيسياً، يجري تحويلهم إلى مُشغلي آلات يتميزون بالدقة وجديرين بالثقة، وبذا يتخلصون على الفور من أفكار الشباب الطويلة. كما يمكن أن يتخلص تلاميذ الطيران، الذين تصيبهم دوخة، من رعبهم الوهمي. في كل شارع، كان المنومون المغناطيسيون على استعداد لطباعة ذكريات دائمة على الذهن. وإذا أرد شخص تذكّر اسم، أو سلسلة من الأرقام، أو أغنية، أو خطاب، فيمكن ذلك بالطريقة نفسها؛ وعلى العكس، يمكن محو الذكريات، والتخلص من العادات، والقضاء على الرغبات - أي أنه نوع من الجراحة النفسية يجري، في الواقع، استخدامه العام. وهكذا يمكن نسيان الإهانات، والخبرات المتواضعة؛ ويمكن للأرامل نسيان أزواجهن السابقين، ويحرر العشاق الغاضبون أنفسهم من عبوديتهم. ومع

ذلك، لا يزال اكتساب الرغبات مستحيلًا، ولا تزال حقائق نقل الفكر غير منظومة بعد. وقد قدم علماء النفس عروضهم ببعض التجارب المذهلة في الاستذكار، التي أُجريت من خلال قوة فرقة من الأطفال شاحبي الوجه يرتدون ملابس زرقاء.

كان جراهام لا يثق في المنوم المغناطيسي، مثله مثل معظم الناس في عصره السابق، أو ربما أراح عقله حينذاك من العديد من المشاغل المؤلمة. لكنه -على الرغم من تأكيدات لينكولن- تمسك بالنظرية القديمة القائلة إن التنويم المغناطيسي هو بطريقة أو بأخرى تسليم لشخصيته، وتنازل عن إرادته. وقد حرص بشدة أن يبقى هو نفسه تمامًا خلال مأدبة التجارب الرائعة التي تبدأ.

أمضى اليوم التالي، ويومًا آخر، والذي يليه، في مثل هذه الاهتمامات. وكان يقضي ساعات عديدة يوميًا في استمتاع رائع بالطيران. وتمكن في اليوم الثالث من التحليق عبر وسط فرنسا، وعلى مرأى من جبال الألب المكسوة بالثلوج. منحته هذه التمارين القوية نومًا مريحًا، وتعافى كليًا تقريبًا من فتور صحوته الأولى وافتقاره إلى الحيوية والنشاط. وعندما لا يكون طائرًا ومستيقظًا، يجد لينكولن مجتهدًا في تسليته. جلب له كل ما كان جديدًا وغريبًا في الاختراعات المعاصرة، حتى قاربت شهيته للشبع أخيرًا من الأشياء الجديدة. يمكن أن يملأ المرء دزينة من المجلدات غير المتتالية بالأشياء الغريبة التي عرضوها. كان يعقد جلسة استقبال في مقره بعد ظهر كل يوم، لمدة ساعة أو نحو ذلك. وجد أن اهتمامه بمعاصريه أخذ يصبح شخصيًا وحميمًا. وكان في البداية يقطّأ بشكل أساسي لعدم معرفته بالأشياء ولغرابتها؛ فأى إسراف في ملابسهم، وأي تعارض مع مفاهيمه

المسبقة عن مكانة النبلاء وأخلاقهم كان يشعره بالتنافر. وقد لاحظ مندهشاً مدى سرعة اختفاء تلك الغرابة والعداء البسيط الذي نجم عنها؛ ومدى سرعة تقبله للمنظور الحقيقي لموقفه، وكيف أصبح يرى العصر الفيكتوري القديم باعتباره بعيداً وغريباً. وجد نفسه مستمتعاً على نحو خاص بالفتاة ذات الشعر الأحمر، ابنة مدير الحظائر الأوربية. وفي اليوم الثاني بعد العشاء، تعرّف على راقصة ترقص رقصةً حديثاً، ووجدها فنانة مذهلة. ثم تعرف بعد ذلك على المزيد من عجائب التنويم المغناطيسي. وفي اليوم الثالث اقترح لينكولن أن السيد يجب أن يذهب إلى مدينة المتعة، لكن جراهام رفض، كما لم يقبل خدمات المنومين المغناطيسيين في تجاربه في الطيران. كانت علاقته بالموقع المحلي يربطه بلندن؛ حيث وجد سعادة في تحديد المعالم الطبوغرافية التي كان ليفتقدها في الخارج. كان يمكنه القول: «هنا... أو على مسافة مائة قدم أسفل هنا، حيث اعتدت تناول شرائح اللحم في وجبة منتصف النهار خلال أيام جامعة لندن. هنا في أسفل، كانت توجد واترلو والمطاردة المرهقة لقطارات تثير الارتباك. كثيراً ما وقفت منتظراً هناك، وحقيتي في يدي، وأحرق إلى السماء فوق غابة من الإشارات، وأفكر قليلاً أنني يجب أن أمشي في يوم ما مائة ياردة في الهواء. وأنا الآن أحلق في طائرة أحادية السطح في تلك السماء التي كانت ذات يوم مظلة دخان رمادي».

انشغل جراهام خلال تلك الأيام الثلاثة بهذه الاهتمامات إلى حد أن الحركات السياسية الواسعة الدائرة خارج مسكنه لم تحظ سوى بقدر قليل من انتباهه؛ وأخبره من حوله بالقليل. كان يأتيه يومياً أوستروج، الزعيم، ورئيس الوزراء، وعمدة القصر، لإبلاغه بعبارات مبهمة عن

استقرار أساس حكمه؛ «مشكلة صغيرة» سرعان ما يجري حلها في هذه المدينة، «اضطراب طفيف» هناك. لم يعد يسمع أغنية الثورة الاجتماعية، ولم يعرف أنها محظورة في حدود البلدية؛ وخفتت في ذهنه كل المشاعر العظيمة لموقع المراقبة فوق الساري.

وعلى الرغم من اهتمامه بابتنة مدير حظائر الخنازير، أو ربما بسبب الأفكار التي أشارت إليها محادثتهما، فقد وجد نفسه في اليومين الثاني والثالث من الأيام الثلاثة يتذكر الفتاة هيلين وُوتون، التي تحدثت إليه بشكل غريب في اللقاء الذي نظمه مسؤول دوارات الرياح. كان الانطباع الذي تركته عميقاً، وإن كانت المفاجأة المستمرة للظروف الجديدة قد حالت لفترة دون التفكير فيه. لكن ذاكرتها تتبادر إلى ذهنه الآن. تساءل عما قصده بتلك الجمل المتقطعة نصف المنسية؛ وأصبحت صورة عينيها والشغف الجاد في وجهها أكثر حيوية مع تلاشي اهتماماته الميكانيكية. جاء جمالها المرهف مثيراً بينه وبين بعض الإغراءات الفورية لعاطفة بغیضة. لكنه لم يرها ثانية حتى مرت ثلاثة أيام كاملة.



الفصل الثامن عشر

جراهام يتذكر

صادفته أخيراً في دهليز صغير يمتد من مكاتب دوائر الرياح إلى شققه الحكومية. كان الدهليز طويلاً وضيقاً، ويضم سلسلة من الاستراحات، في كل منها نافذة مقوسة تطل على فناء من النخيل. صادفها فجأة في إحدى تلك الاستراحات. كانت جالسة. أدارت رأسها على صوت خطاه، ورأته. اختفت كل لمسة لونية من وجهها. نهضت على الفور، وخطت في اتجاهه كأنما ستخاطبه، ثم ترددت. توقف، وظل ساكناً، متوقفاً. ثم أدرك أن توتراً عصبياً أسكتها، وتصور أيضاً أن لا بد أنها سعت إلى الحديث معه وتنتظره في هذا المكان.

شعر بدافع ملكي لمساعدتها. قال: «لقد أردت أن أراك. قبل بضعة أيام أردت أن تقولي لي شيئاً، أردت أن تخبريني عن الناس. ماذا كنت تريدني إخباري؟».

نظرت إليه بعينين مضطربتين.

- قلت إن الناس غير سعداء؟

ظلت صامته للحظة.

قالت فجأة: «لا بد أن الأمر بدا غريبًا بالنسبة لك».

- نعم، ومع ذلك...

- كان حافزًا.

- حسنًا؟

- هذا كل شيء.

نظرت إليه بوجه متردد. تحدثت بجهد. قالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا:
«أنت تنسى».

- ماذا؟

- الشعب...

- هل تعنين...؟

- أنت تنسى الناس.

نظر إليها نظرة استفهام.

- نعم، أعلم أنك متفاجئ. فأنت لا تفهم من أنت. أنت لا تعرف
الأشياء التي تحدث.

- حسنًا؟

- أنت لا تفهم.

- ربما لا أفهم بوضوح. ولكن... أخبريني.

التفتت إليه بحزم مفاجئ: «يصعب الشرح جدًّا. لقد قصدت ما قلته،
وأردت قوله. لكنني الآن لا أستطيع. لست مستعدة بالكلمات. أما عنك...
هناك شيء. إنه أمر عجيب. نومك... يقظتك. هذه معجزات. بالنسبة لي
على الأقل... ولعامة الناس جميعًا. أنت من عاش وعانى ومات، أنت من

كنت مواطنًا عاديًا، استيقظ مرة أخرى، يعيش مرة أخرى، ليجد نفسه سيدًا للأرض».

قال: «سيد الأرض، هكذا أخبروني. لكن، حاولي أن تتخيلي القدر القليل الذي أعرفه عن ذلك».

- المدن... الصناديق الائتمانية... وزارة العمل...

- المقاطعات، السلطات، الهيمنة... القوة والمجد. نعم، لقد سمعتهم يصيحون. أعرف. أنا السيد. الملك، إذا كنتِ ترغبين في ذلك. مع أوستروج، الزعيم... توقف.

التفتت نحوه، ودققت في وجهه بنظرة فاحصة غريبة. «حسنًا؟».

ابتسم قائلاً: «ليتحمل المسؤولية».

«هذا ما بدأنا نخشاه»، صمتت للحظة، ثم قالت ببطء: «لا، ستتحمل المسؤولية. ستتحمل المسؤولية. الناس يتطلعون نحوك».

تحدثت بهدوء: «اسمع! على مدى نصف سنوات نومك على الأقل... في كل جيل، صلى العديد من الناس، وفي كل جيل حشود أكبر من الناس، صلوا لكي تستيقظ».

تحرك جراحاهم ليتحدث، لكنه لم يفعل.

ترددت، وتسلسل لون خافت إلى خديها مرة أخرى. «هل تعلم أنك كنت بالنسبة لملايين من الناس بمثابة الملك آرثر^(٣٩)،

(٣٩) الملك آرثر (King Arthur): قائد بريطاني أسطوري، قاد الدفاع عن بريطانيا ضد الغزاة السكسونيين في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس. «الترجمة».

بربروس^(٤٠)؛ الملك الذي سيأتي في الوقت المناسب ويُصلح العالم من أجلهم؟».

– أعتقد أن خيال الناس...

«ألم تسمع القول المأثور لدينا: 'عندما يستيقظ النائم'؟ عندما كنت راقداً دون إدراك وبلا حراك... جاء الآلاف. آلاف. يأتون كل أول شهر لرؤيتك وأنت راقد في رداء أبيض. رأيتك هكذا عندما كنت طفلة صغيرة، ووجهك أبيض وهادئ».

أدارت وجهها بعيداً عنه، ونظرت بثبات إلى الجدار المطلي أمامها. انخفض صوتها، قالت: «عندما كنت طفلة صغيرة، اعتدت أن أنظر إلى وجهك... بدا لي ثابتاً ومنتظراً وصبوراً».

ثم أضافت: «هذه كانت فكرتنا عنك. هكذا تصورناك».

وجهت عينيها اللامعتين نحوه، وقالت بصوت واضح وقوي: «في المدينة، على الأرض، ينتظر الملايين من الرجال والنساء ليروا ما ستفعله، وتملؤهم توقعات غريبة مذهلة».

– ماذا؟

– أوستروج... ولا أحد... يمكن أن يتحمل هذه المسؤولية.

نظر إليها جراهام مندهشاً، والانفعال يضيء وجهها. ظهر في البداية أنها تبذل جهداً لتتحدث، ثم أطلقت العنان لنفسها بالكلام.

(٤٠) بربروس (Barbarossa): هو خير الدين بربروس (حوالي ١٤٦٦/١٤٧٨-١٥٤٦)، أحد أشهر قادة الأساطير العثمانية، حققت انتصاراته الهيمنة العثمانية على البحر الأبيض المتوسط خلال منتصف القرن السادس عشر. «المترجمة».

قالت: «ألا تعتقد أنك أنت الذي عشت تلك الحياة القصيرة في الماضي البعيد، أنت الذي سقط ثم نهض من معجزة النوم هذه، ألا تعتقد أن التعجب والتبجيل والأمل لدى نصف العالم قد أحاط بك فقط لأنك قد تعيش حياة قصيرة أخرى؟ أنك قد تنقل المسؤولية إلى أي رجل آخر؟».

أجاب بتردد: «أعرف مدى عظمة هذه المَلَكِيَّة. أعرف كم يبدو هذا رائعًا. ولكن، هل هذا حقيقي؟ إنه أمر لا يُصدَّق... يشبه الحلم. هل هذا حقيقي، أم مجرد وهم عظيم؟».

قالت: «إنه حقيقي»، قالت: «إنه حقيقي. إذا امتلكت الجرأة».

- قبل أي شيء، ومثل كل ملك، فإن كوني ملكًا هو اعتقاد. إنه وهم في عقول البشر.

قالت: «إذا امتلكت الجرأة!».

- لكن...

قالت: «عدد لا يُحصى من البشر، وما دام في أذهانهم... سيطيعون».

- لكنني لا أعرف شيئًا. وهذا ما يدور في ذهني. لا أعرف أي شيء. وهؤلاء الآخرون... أعضاء المجلس، أوستروج. إنهم أكثر حكمة، وأكثر هدوءًا، ويعرفون الكثير، جميع التفاصيل. والآن، ما هذه المآسي التي تحدثن عنها؟ ماذا يجب أن أعرف؟ هل تعنين...؟

توقف بهدوء.

قالت: «أنا لا أزال أكبر قليلًا من مجرد فتاة، لكن العالم يبدو لي مليئًا بالتعاسة. لقد تغير العالم منذ يوم استيقاظك، تغير بشكل غريب جدًا.

أنا صليت لكي أراك وأخبرك بهذه الأشياء. العالم تغير؛ كأن علة أصابته
وسلبت الحياة من كل شيء جدير بسلب حياته».

أدارت وجهها المتورد نحوه، وتحركت فجأة: «كانت أيامك بمثابة
أيام الحرية. نعم، أعتقد ذلك. أخذت أفكر؛ أفكر في حياتي... فهي لم
تكن سعيدة. لم يعد البشر أحرارًا... ولا أعظم، ولا أفضل من البشر في
عصرك. وهذا ليس كل شيء. فهذه المدينة هي سجن. كل مدينة الآن هي
سجن. يسيطر الجشع على مقاليد الأمور. هناك عشرات الآلاف، عدد لا
يُحصى من البشر يكدحون من المهد إلى اللحد. هل هذا صحيح؟ هل
يستمر هذا... إلى الأبد؟ نعم، أسوأ بكثير مما كان عليه الحال في عصرك.
كل شيء حولنا وتحتنا، حزن وألم. وكل البهجة السطحية ضحلة في هذه
الحياة التي تجدها حولك، يفصلها القليل عن حياة البؤس التي تتجاوز
أي كلام. نعم، يعرف الفقراء ذلك... يعرفون أنهم يعانون. وهذه الجموع
التي لا تُعد ولا تُحصى، الذين واجهوا الموت من أجلك منذ ليلتين...
أنت مدين لهم بحياتك».

«نعم»، قال جراهام ببطء: «نعم، أنا مدين لهم بحياتي».

قالت: «أنت أتيت من الأيام التي كان فيها هذا الطغيان الجديد للمدن
يبدأ بالكاد. إنه طغيان... طغيان. رحل أباطرة الحرب الإقطاعيين في
عصرك، ولم تكن السطوة الجديدة للثروة قد أتت بعد. لا يزال نصف
البشر في العالم يعيشون في الريف الخُر. وستلتهمهم المدن. لقد سمعت
القصص من الكتب القديمة.. كان هناك نبلاء! عاش الناس العاديون حياة

من الحب والإخلاص آنذاك... وفعلوا ألف شيء. وأنت... جئت من ذلك العصر».

- لم يكن الحال كذلك. ولكن لا يهم. كيف الحال الآن؟

- الكسب ومدن المتعة! أو العبودية... عبودية لا تحظى حتى بالشكر أو الاحترام.

قال: «عبودية!».

- عبودية.

- أنت لا تقصدين القول إن البشر عبيد.

- أسوأ من ذلك. هذا ما أردتك أن تعرفه، ما أردتك أن تراه. أعلم أنك لا تعرف. سيخفون عنك هذه الأمور، ويأخذونك الآن إلى مدينة المتعة. لكنك رأيت رجالاً ونساء وأطفالاً يرتدون ملابس زرقاء شاحبة، ووجوههم صفراء نحيلة وأعينهم متجهمة؟
- في كل مكان.

- يتحدثون بلهجة مروعة، خشنة وضعيفة.

- سمعتها.

- هؤلاء هم العبيد... عبيدك. إنهم عبيد وزارة العمل التي تملكها.

- وزارة العمل! هذه عبارة مألوفة نوعاً ما. آه! تذكرت الآن. رأيتهما خلال تجوالي في المدينة، بعد عودة الأضواء؛ واجهات كبيرة لمبانٍ بلون أزرق باهت. هل تعنين حقاً؟

- نعم. كيف أشرح لك الأمر؟ صدمك بالطبع الزي الأزرق. يرتديه ما يقرب من ثلث شعبنا، والآن تزيد يومياً أعداد من يرتديه. لقد تنامت وزارة العمل هذه بشكل غير محسوس.

سألها جراهام: «ما وزارة العمل هذه؟».

- في العصور القديمة، كيف تعاملتم مع الناس الذين يتضورون جوعاً؟

- كان هناك دار العمل، تحت رعاية الأبرشيات.

- دار العمل! نعم، كان هناك شيء في دروس التاريخ لدينا. أتذكر الآن. حلت وزارة العمل محل دار العمل. ونمت جزئياً من شيء ما، ربما تذكره، من منظمة دينية مؤثرة تُسمى جيش الإنقاذ، التي أصبحت شركة أعمال. كانت في البداية جمعية خيرية لإنقاذ الناس من قسوة دار العمل. كان هناك تحريض كبير ضد دار العمل. أفكر في الأمر الآن؛ كان أحد أقدم الممتلكات التي حصل عليها أمانوك. اشتروا جيش الإنقاذ وأعادوا بناءه على هذا النحو. كانت الفكرة في المقام الأول هي تنظيم عمل المشردين الذين يتضورون جوعاً.

- نعم.

- لا توجد في الوقت الحاضر دور عمل، ولا ملاجئ أو جمعيات خيرية، ولا شيء سوى تلك الوزارة، ومكاتبها في كل مكان. واللون الأزرق هو لونها. وأي رجل أو امرأة أو طفل يعاني من الجوع والإرهاق وليس له منزل ولا صديق ولا مأوى، يجب أن يذهب في النهاية إلى الوزارة... أو يبحث عن طريقة ما للموت. يتجاوز القتل الرحيم إمكانياتهم... لا يوجد أمام الفقراء موت سهل. يتوفر في أي ساعة نهاراً أو ليلاً الطعام والمأوى والزي الأزرق لجميع القادمين؛ وهذا هو الشرط الأول لتأسيس الوزارة. وفي مقابل توفير مأوى ليوم واحد، تستفيد الوزارة بيوم عمل، ثم تعيد

للزائر ملابسه ليعود إلى الخارج مرة أخرى.

- ماذا؟

- ربما لا يبدو هذا فظيعة بالنسبة لك. كان الرجال في عصرك يتضورون جوعاً في الشوارع، وهذا سيء. لكنهم ماتوا رجالاً. أما هؤلاء الذين يرتدون الزي الأزرق... يقول المثل الشعبي: 'قماش أزرق مرة واحدة وإلى الأبد'. تتاجر الوزارة في عملهم، وتحرص على التأكد من العرض والطلب. يأتيها الناس جائعين وعاجزين، يأكلون وينامون ليلة ونهار، ويعملون يوماً واحداً، وفي نهاية اليوم يخرجون مرة أخرى. وإذا كان عملهم جيداً، يحصلون على قدر ضئيل من المال؛ ما يكفي لمسرح أو مرقص رخيص، أو قصة سينماتوجرافية، أو عشاء، أو رهان. ثم يتجولون بعد إنفاق ذلك المبلغ. وشرطة الطرق تمنع التسول. علاوة على ذلك، لا يعطيهم أحد أي شيء. يعودون ثانية في اليوم التالي أو اليوم الذي يليه، يعودون بسبب نفس العجز الذي أحضرهم أول مرة. وفي النهاية تبلى ملابسهم، أو تصبح خرقهم رثة بحيث يشعرون بالخجل. وعندئذٍ عليهم العمل لعدة أشهر للحصول على ملابس جديدة، إذا أرادوا ملابس جديدة. ويولد عدد كبير من الأطفال تحت رعاية الوزارة، وتدين لهم الأم بشهر بعد ذلك. وهناك الأطفال الذين يعتزون بهم ويعلمونهم حتى بلوغهم الرابعة عشرة من العمر، ويدفعون تقديم خدمة لمدة سنتين. وتأكد أن هؤلاء الأطفال يتعلمون من أجل الزي الأزرق. وهكذا تعمل الوزارة.

- ولا يوجد أحد مُعوز في المدينة؟

- لا أحد. إما يرتدون الزي الأزرق وإما في السجن. لقد ألغينا العوز.
وهذا مُدَوَّن على شيكات الوزارة.

- وإذا لم يعملوا؟

- سيعمل معظم الناس وفقًا لذلك، والوزارة تتمتع بصلاحيات.
هناك مراحل من عدم الارتياح في العمل، مثل توقف الطعام؛ والرجل -أو
المرأة- الذي رفض العمل مرة، يمكن التعرف عليه عن طريق نظام بصمة
الإبهام في مكاتب الوزارة في جميع أنحاء العالم. وبالإضافة إلى ذلك، مَنْ
بمقدوره مغادرة المدينة وهو فقير؟ الذهاب إلى باريس يكلف لايونين.
وفي حالة العصيان، توجد سجون مظلمة وتعيسة، تقع في أسفل بعيدة عن
الأنظار. هناك سجون الآن لأشياء كثيرة.

- ويرتدي ثلث الناس هذه الملابس الزرقاء؟

- أكثر من الثلث. الكادحون الذين يعيشون دون كرامة أو فرحة
أو أمل، ورنين قصص مدن المتعة في آذانهم، يسخرون من حياتهم
المخزية، من الحرمان والمشاق. إنهم فقراء جدًا حتى للحصول على
الموت الرحيم، الذي يُعتبر ملاذ الأغنياء من الحياة. ملايين من الصامتين
العاجزين، ملايين لا تُعد ولا تُحصى، في جميع أنحاء العالم، لا يعرفون
أي شيء سوى القيود والرغبات غير المُشبعة. إنهم يولدون، ويُحبَطون،
ويموتون. هذه هي الحالة التي وصلنا إليها.

جلس جراهام حزينا لبعض الوقت.

ثم قال: «لكن... كانت هناك ثورة. وكل هذه الأمور ستتغير.
أوستروج...».

- هذا ما نأمله. هذا أمل العالم. لكن أوستروج لن يفعل ذلك. إنه رجل سياسي. وهو يرى أن الأمور يجب أن تستمر هكذا. لا يمانع. ينظر إلى المسألة كأمر مُسلَّم به. ففي نهاية المطاف، ينظر كل الأغنياء، وكل المؤثرين، وكل السعداء، إلى هذه المآسي كأمر مُسلَّم به. إنهم يستخدمون الناس في سياساتهم، ويعيشون في يُسر نتيجة تدهور الناس. أما أنت، أنت أتيت من عصر أكثر سعادة. يتطلع إليك الناس. يتطلعون إليك.

نظر إلى وجهها. لمعت عيناها بدموع محبوسة. شعر بتدفق انفعالي. وللحظة، في إنسانية عباراتها المباشرة، نسي هذه المدينة، نسي العرق، وكل تلك الأصوات البعيدة.

قال وعيناه عليها: «لكن ماذا أفعل؟».

«عليك أن تحكُم»، أجابت، وهي تنحني نحوه وتحدث بنبرة منخفضة: «احكُم العالم كما لم يُحكَم أبدًا، من أجل خير البشر وسعادتهم. عليك أن تحكُم؛ لأن بإمكانك أن تحكُم.

«الناس يتحركون. في جميع أنحاء العالم، الناس يتحركون. لا يريدون سوى كلمة واحدة، كلمة منك، لتجمع شملهم جميعًا. حتى النوع المتوسط من الناس يشعرون بالقلق، وتعساء.

«إنهم لا يخبرونك بالأشياء التي تحدث. لن يعود الناس إلى الأعمال الشاقة، ويرفضون نزع سلاحهم. لقد أيقظ أوستروج شيئًا أعظم مما كان يحلم به؛ فقد أيقظ الآمال».

كان قلبه يخفق بسرعة. حاول أن يبدو حصيفًا، وأن يزن الاعتبارات.

قالت: «إنهم لا يريدون إلا قائدهم».

- وبعد ذلك؟

- يمكنك أن تفعل ما تريد؛ العالم ملكك.

جلس ولم يعد ينظر إليها. ثم تحدث: «الأحلام القديمة، والشيء الذي حلمتُ به، الحرية، السعادة. هل هي أحلام؟ هل يمكن لرجل واحد، رجل واحد...؟»، غاص صوته وتوقف.

- ليس رجلًا واحدًا، بل كل الرجال؛ امنحهم قائدًا فقط للتعبير عما في قلوبهم من رغبات.

هز رأسه، وساد الصمت لفترة.

وفجأة نظر إلى أعلى، والتقت أعينهما. قال: «ليس لديَّ إيمانك، ولا شبابك. أنا هنا أتمتع بسلطة تسخر مني. لا، دعيني أتكلم. أريد أن أفعل... غير صحيح... ليس لديَّ القوة لذلك... بل أفعل بالأحرى شيئًا صحيحًا وليس خاطئًا. لن يتحقق ذلك في ألف عام، لكنني مصمم الآن أن أحكم. ما قلته أيقظني... أنتِ على حق. يجب أن يعرف أوستروج مكانه. وسأتعلم... شيئًا واحدًا أعدك به. ستنتهي عبودية العمل هذه».

- وستحكم؟

- نعم. بشرط... هناك شيء واحد.

- ماذا؟

- أن تساعدني.

- أنا... فتاة!

- نعم. ألم يخطر ببالك أنني وحيدٌ تمامًا؟

ظهر التعاطف على عينيها للحظة. سألته: «وهل تحتاج إلى أن تسألني ما إذا كنت سأساعدك؟».

ساد صمت متوتر، ثم دقت الساعة. نهض جراهام.
قال: «الآن حتى، سيتنظر أوستروج». تردد وهو ينظر نحوها. عندما أوجه له بعض الأسئلة... هناك الكثير الذي لا أعرفه. ربما أذهب لأرى بعيني الأشياء التي تحدثت عنها. وعندما أعود...».

- سأعرف بذهابك وعودتك. سأنتظرك هنا مرة أخرى.
تبادلا النظرات بثبات وتساؤل، ثم استدار جراهام واتجه إلى مكتب دوارات الرياح.



الفصل التاسع عشر

وجهة نظر أوستروج

وجد جراهام أن أوستروج ينتظره لتقديم تقرير رسمي عن إدارته ليومه. كان جراهام -في مناسبات سابقة- ينتهي من هذا الطقس في أسرع وقت ممكن، لكي يستأنف خبراته الجوية؛ لكنه الآن بدأ في طرح أسئلة قصيرة سريعة. كان متلهفًا لتولي إمبراطوريته على الفور. قدم أوستروج تقريرًا جيدًا عن تطور الأحوال في الخارج. أدرك جراهام أنه كان يتحدث عن باريس وبرلين، وجود اضطراب، وليس مقاومة منظمة بالفعل، وإنما أحداث عصيان. وعندما ضغط جراهام بأسئلته، قال أوستروج: «رفعت الكومونة رأسها مرة أخرى بعد كل هذه السنوات. هذه هي طبيعة النضال الحقيقية، لنكن صرحاء». لكن هذه المدن استعادت النظام. ونظرًا لأن جراهام كان أكثر تعمدًا لإثارة ما شعر به من انفعالات متحمسة، سأل عما إذا كان هناك أي قتال. أجاب أوستروج: «قليلاً، في حي واحد فقط. لكن القسم السنغالي في شرطتنا الزراعية الإفريقية -حيث توجد لدى الشركات الإفريقية الموحدة شرطة جيدة التدريب- كان جاهزًا، وكذلك كانت الطائرات. توقعنا القليل من المتاعب في المدن القارية، وفي أمريكا. لكن

الأمور هادئة جدًا في أمريكا. وهم راضون عن الإطاحة بالمجلس. في الوقت الحالي».

سأله جراهام فجأة: «ولماذا توقعت حدوث متاعب؟».

- هناك الكثير من الاستياء، من السخط الاجتماعي.

- وزارة العمل؟

«أنت تتعلم»، قال أوستروج بمسحة من المفاجأة: «نعم. والاستياء أساسًا من وزارة العمل. وكان ذلك الاستياء هو القوة الدافعة للإطاحة التي حدثت، بالإضافة إلى استيقاظك».

- ماذا؟

ابتسم أوستروج. وأصبح صريحًا. «كان علينا أن نثير سخطهم، وإحياء المثل العليا القديمة للسعادة العالمية: جميع البشر متساوون، جميع البشر سعداء، لا ترف لا يتقاسمه الجميع... الأفكار التي غابت لمائتي عام. أنت تعرف ذلك؟ كان علينا إحياء هذه المثل، المستحيلة كما هي... من أجل الإطاحة بالمجلس. والآن...».

- حسنًا؟

- لقد تحققت ثورتنا، وأُطيح بالمجلس، ولا يزال الناس الذين أثروا عليهم يندفعون بقوة. لم يستمر القتال طويلًا... وقطعنا وعودًا بالطبع. على أن مدى عنف وسرعة إحياء هذه النزعة الإنسانية المبهمة القديمة وانتشارها يُعد أمرًا غير عادي. حتى نحن الذين زرعنا البذرة، قد اندهشنا. في باريس - كما أقول - اضطررنا أن نطلب القليل من المساعدة الخارجية.

- وهنا؟

- هنا توجد مشكلة. لن تعود الجموع إلى العمل. هناك إضراب عام. نصف المصانع فارغ، والناس يحتشدون في الطرق. إنهم يتحدثون عن كومونة. وقد تعرض من يرتدون ملابس من الحرير والساتان إلى الإهانة في الشوارع. أصحاب الزي الكتاني الأزرق يتوقعون كل أنواع الأشياء منك... ولا حاجة لك بالطبع للمشاكل. نحن نُجهز آلات الثروة للعمل حول اقتراحات مضادة، في قضية القانون والنظام. ويجب إبقاء القبضة مُحكّمة؛ وهذا كل شيء.

فكر جراهام. تصوّر طريقة لتأكيد نفسه. لكنه تحدث بضبط النفس.

قال: «حتى إلى حد جلب شرطة من السود».

قال أوستروج: «إنهم مفيدون، متوحشون مخلصون، ولا يوجد في رؤوسهم أي أفكار مندفعة كتلك التي توجد عند الحشود لدينا. وجب أن يستعين بهم المجلس كشرطة للطرق، وربما اختلفت الأمور. ليس هناك بالطبع ما يدعو إلى الخوف، سوى أعمال الشغب والحطام. يمكنك العودة إلى طائرتك الآن، والتحليق بعيداً إلى كابري في حالة وجود أي دخان أو ضجة. قبضتنا قوية على كل الأشياء العظيمة؛ الطيارون محظوظون وأغنياء، وأقرب اتحاد مهني في العالم، وكذلك مهندسو دوارات الرياح. لدينا الهواء، والسيطرة في الجو هي سيطرة على الأرض. لا أحد لديه أي قدرة للتنظيم ضدنا. ليس لديهم قادة، وإنما فقط قادة قطاعات في المجتمع السري الذي نظمناه قبل استيقاظك الذي حدث في الوقت المناسب. مجرد فضوليين وعاطفيين، ويغارون بمرارة من بعضهم. لا يصلح أي منهم كشخصية رئيسة. المشكلة الوحيدة ربما حدوث اضطراب غير

منظم. ولأكن صريحاً معك، قد يحدث ذلك. لكنه لن يعرقل طيرانك. لقد ولت الأيام التي يستطيع فيها الشعب أن يصنع ثورات». قال جراهام: «أعتقد أنها كذلك». استغرق في التفكير ثم كرر: «أعتقد أنها كذلك». وأضاف: «عالمك هذا مليء بالمفاجآت بالنسبة لي. كنا نحلم في عصرنا بحياة ديموقراطية رائعة، بزمان يتمتع فيه جميع البشر بالمساواة والسعادة».

نظر إليه أوستروج بثبات، وقال: «يوم الديموقراطية مضى. مضى إلى الأبد. بدأ ذلك اليوم مع رماة معركة كريسي^(٤١)، وانتهى عندما زحف المشاة، عندما توقف الرجال العاديون عن كسب معارك العالم، وعندما أصبحت المدافع باهظة التكلفة والمدركات الضخمة والسكك الحديدية الاستراتيجية بمثابة وسيلة القوة. اليوم هو يوم الثروة. الثروة الآن هي القوة كما لم تكن أي قوة من قبل؛ فهي تقود الأرض والبحر والسماء. كل السلطة لأولئك الذين يستطيعون التعامل مع الثروة. ونيابة عنك... يجب أن تقبل الحقائق، وهذه حقائق. العالم من أجل الجماهير! الجماهير كحاكم! وحتى في أيامك، تمت تجربة تلك العقيدة وأديننت. أما في يومنا هذا، فلا يوجد إلا مؤمن واحد - متعدد، وسخيف - الرجل في الجمهور». لم يرد جراهام على الفور. وقف مرتبكاً في انشغالات كئيبة.

«لا»، قال أوستروج، «لقد ولى عصر الرجل العادي. ففي الريف

(٤١) معركة كريسي (The Battle of Crécy): وقعت في عام ١٣٤٦ في شمال فرنسا بين جيش فرنسي بقيادة الملك فيليب السادس وجيش إنجليزي بقيادة الملك إدوارد الثالث، حيث انتصر الإنجليز؛ وتمكن الرماة الإنجليز في مبارزة قصيرة من دحر قوة ضخمة من المرتزقة الرماة في الجيش الفرنسي. «المترجمة».

المفتوح، يُعد أي رجل واحد جيداً مثل أي رجل آخر، أو تقريباً مثله. مرت الطبقة الأرستقراطية السابقة بفترة غير مستقرة من حيث القوة والجرأة. كانوا جبابة... جبابة. كانت توجد تمردات، ومبارزات، وأعمال شغب. لقد جاءت أول أرستقراطية حقيقية، أول أرستقراطية دائمة، بالقلاع والدروع، واختفت أمام البندقية والقوس. ولكن هذه هي الأرستقراطية الثانية. الأرستقراطية الحقيقية. لم تكن عصور البارود والديموقراطية سوى دوامة في التيار. الرجل العادي الآن هو وحدة عاجزة. لدينا في هذه الأيام الآلة العظيمة، المدينة، ومجمع تنظيمي يفوق فهمه».

«ومع ذلك»، قال جراهام، «هناك شيء يقاوم، شيء تحطمه باستمرار... شيء يتحرك ويضغط».

«سترى»، قال أوستروج بابتسامة مفتعلة من شأنها أن تزيح هذه الأسئلة الصعبة جانباً: «أنا لم أُحرك القوة لتدمير نفسي... ثق بي».

قال جراهام: «أتساءل».

نظر أوستروج محدقاً.

«هل يجب أن يسير العالم في هذا الطريق؟»، قال جراهام ومشاعره تنصب على نقطة التحدث: «هل يجب أن يسير بالفعل في هذا الاتجاه؟ هل ذهب كل آمالنا سُدى؟».

«ماذا تعني؟»، قال أوستروج، «آمال؟».

- لقد جئت من عصر ديموقراطي. وأجد الطغيان الأرستقراطي!

- حسناً، لكنك الطاغية الرئيس.

هز جراهام رأسه.

«حسنًا»، قال أوستروج، «تناول القضية العامة. هذه هي الطريقة التي كان يسير بها التغيير دائمًا. الأرستقراطية، سيادة الأفضل.. معاناة غير الصالح وانقراضه، وهكذا نصل إلى أشياء أفضل».

- لكن الأرستقراطية! هؤلاء الأشخاص الذين قابلتهم...

قال أوستروج: «أوه، لا، لا، لا، ليس هؤلاء! لكن معظمهم يموت. الرذيلة والمتعة! ليس لديهم أطفال. هذا النوع سيموت. إذا استمر العالم في طريق واحد، أي إذا لم يكن هناك عودة إلى الوراء. طريق سهل إلى الموت الرحيم المريح للباحثين عن المتعة الذين يحترقون في اللهب، وهذا هو السبيل لتحسين العرق!».

«انقراض لطيف»، قال جراهام، «ومع ذلك...» فكر للحظة، «هناك ذلك الشيء الآخر؛ الجمهور، كتلة كبيرة من البشر الفقراء. هل سينقرضون؟ هؤلاء لن ينقرضوا. وهم يعانون، ومعاناتهم قوة، حتى أنت...».

تحرك أوستروج بصبر نافذ. وعندما تحدث، تحدث على نحو أقل توازنًا من ذي قبل.

قال: «لا تقلق بشأن هذه الأمور. ستتمكن من تسوية كل شيء في غضون أيام قليلة. الجمهور وحش أحرق كبير. ماذا لو لم ينقرض؟ حتى إن لم ينته، لا يزال يمكن ترويضه وقيادته. ليس لدي أي تعاطف مع العبيد. أنت سمعت هؤلاء الناس يصيحون ويغنون منذ ليلتين. لقد علمناهم تلك الأغنية. إذا سألت شخصًا عن عمد لماذا يصيح؟ لن يخبرك. فهم يعتقدون أنهم يصيحون من أجلك، وأن ولاءهم وإخلاصهم لك. وعندئذ فقط

كانوا على استعداد لذبح المجلس. واليوم، يتذمرون بالفعل من أولئك الذين أطاحوا بالمجلس».

«لا، لا»، قال جراهام، «كانوا يصيحون لأن حياتهم كئيبة، بلا فرح أو كرامة، ولأن آمالهم كانت معقودة عليّ آمليّن يتطلعون نحوي كأمل».

- وما أملهم؟ ما أملهم؟ وهل يتمتعون بالحق في الأمل؟ إنهم يعملون بشكل سيئ ويريدون الحصول على مكافأة مثل الذين يعملون بشكل جيد. أمل البشرية... ما هو؟ أن يأتي الرجل مفرط القوة في يوم من الأيام، وأن يتحقق في يوم من الأيام إخضاع أو القضاء على الأدنى والضعيف والوحشي. إخضاعه إن لم يكن القضاء عليه. العالم ليس مكاناً للسيئين والأغبياء والضعفاء. من واجبهم -وهو واجب جيد أيضاً!- أن يموتوا. موت الفشل! هذا هو المسار الذي ارتقى به الوحش إلى رجل، والمسار الذي يرتقي من خلاله الإنسان إلى شيء أعلى.

خطا أوستروج خطوة، وبدا أنه يفكر، ثم استدار إلى جراهام. «يمكنني أن أتخيل كيف تبدو دولتنا العالمية العظيمة هذه بالنسبة لك كرجل إنجليزي فيكتوري. أنت تأسف على جميع الأشكال القديمة للحكومة التمثيلية... لا تزال أشباحها تطارد العالم، ومجالس التصويت، والبرلمانات، وكل حماقات القرن الثامن عشر. تشعر أنك تأثرت في مواجهة ضد مدن المتعة لدينا. ربما كان يجب أن أفكر في ذلك، لو لم أكن مشغولاً. لكنك ستتعلم بشكل أفضل. لقد جُن جنون الناس من الحسد؛ وسيتعاطفون معك. إنهم يطالبون الآن، حتى في الشوارع، بتدمير مدن المتعة. لكن مدن المتعة أجهزة الإخراج لدى الدولة؛ أماكن جذابة تجمع

معاً عامًا بعد عام كل ضعيف وشرير، كل فاسق وكسول، كل الاحتيال السهل في العالم، إلى تدمير لطيف. يذهبون إلى هناك، يستمتعون بوقتهم، يموتون بلا أطفال، تموت جميع النساء الفاسقات السخيفات بلا أطفال، والبشرية هي الأفضل. لو كان الناس عاقلين، لما حسدوا الأغنياء على طريقته في الموت. وأنت ستحرر العمال السخفاء متبليدي الذهن الذين استعبدناهم، وتحاول أن تجعل حياتهم سهلة وممتعة مرة أخرى... بعد أن انغمسوا تمامًا فيما يناسبهم». ابتسم ابتسامة أغضبت جراهام بشكل غريب. «ستعلم بشكل أفضل. أعرف تلك الأفكار؛ وقرأت في طفولتي قصائد شاعركم شيلي وحلمت بالحرية. لا حرية، إلا الحكمة وضبط النفس. الحرية داخلية، ليست خارجية. إنها مسألة تخص كل شخص. لنفترض - وهذا مستحيل - أن أصبح لهؤلاء الحمقى الذين يحتشدون بزيهم الأزرق اليد العليا علينا، ماذا بعد ذلك؟ سينهزمون فقط أمام سادة آخرين. فالطبيعة ستصر على وجود وحوش مفترسة، طالما الخروف موجود. وهذا لا يعني سوى تأخير لبضع مئات من السنين. إن قدوم الأرستقراطي مصيري ومؤكد. والنهاية هي الرجل المفرط القوة، لكل الاحتجاجات المجنونة لدى البشرية. دعهم يثورون، دعهم يفوزون ويقتلونني أنا ومن على شاكلتي. وعندئذ سيظهر آخرون، سادة آخرون. ولن تختلف النهاية».

قال جراهام بإصرار: «أتعجب».

وقف للحظة محبطًا.

ثم قال، متخذًا فجأة نبرة سيطرة واثقة: «لكنني يجب أن أرى

هذه الأشياء بنفسى. فقط من خلال الرؤية يمكننى أن أفهم. يجب أن أتعلم. هذا ما أريد قوله لك يا أوستروج. لا أريد أن أكون ملكاً فى مدينة المتعة، فهذا ليس من دواعى سرورى. لقد أمضيت وقتاً كافياً فى الملاحة الجوية... تلك الأشياء الأخرى. يجب أن أعرف كيف يعيش الناس الآن، كيف تطورت الحياة العادية. وعندئذ سأفهم هذه الأشياء بشكل أفضل. يجب أن أعرف كيف يعيش عامة الناس، العمال بوجه خاص، كيف يعملون، ويتزوجون، وينجبون أطفالاً، ويموتون...».

قال أوستروج: «يمكنك معرفة ذلك من الروائين الواقعيين لدينا»، ثم انشغل فجأة.

«أريد الواقع»، قال جراهام.

«هناك صعوبات»، قال أوستروج، وأخذ يفكر، «على العموم...».

- لم أكن أتوقع ...

- لقد فكرت.. ومع ذلك، ربما.. تقول إنك تريد السير فى طرقات المدينة ورؤية عامة الناس.

وفجأة توصل إلى نتيجة. قال: «عليك أن تذهب متنكراً. المدينة متحمسة للغاية، واكتشاف وجودك بينهم قد يخلق اضطراباً مخيفاً. إنها رغبتك فى السير فى هذه المدينة.. إنها فكرتك.. نعم، أعتقد الآن أن الأمر انتهى، وإن كان يبدو لى أنه لم ينتهِ تماماً.. يمكن أن نتدبر الأمر. إذا كنت حقاً تجد فائدة فى ذلك! أنت السيد بالطبع. يمكنك الذهاب سريعاً إذا أردت. وأسانو يمكنه تدبير مسألة التنكر. ويمكنه أن يذهب معك. وقبل كل شيء، فكرتك ليست سيئة».

«ألا ترغب في استشارتي في أي مسألة؟»، سأل جراهام فجأة، وقد أصابه شك غريب.

قال أوستروج مبتسمًا: «أوه.. لا يا عزيزي! لا! أعتقد أنك تثق في إدارتي للأمور لفترة، على أي حال. حتى لو اختلفنا...».

نظر إليه جراهام بحدة.

ثم سأله فجأة: «ليس من المحتمل أن ينشب قتال قريبًا؟».

- كلا، بالتأكيد.

- كنت أفكر في هؤلاء السود. لا أعتقد أن الناس يضمرون أي عدااء لي. وقبل أي شيء، أنا السيد. لا أود إحضارهم إلى لندن. ربما هذا تحيز قديم، لكن مشاعري غريبة تجاه الأوروبيين والأعراق التابعة. حتى عن باريس...

وقف أوستروج يراقبه من تحت حاجبيه المتدليين. قال ببطء: «لن أحضر السود إلى لندن. ولكن إذا...».

قال جراهام: «لن تُحضر سودًا مسلحين إلى لندن مهما حدث. لقد اتخذت قراري النهائي في هذه المسألة».

قرر أوستروج عدم الكلام، وانحنى باحترام.



الفصل العشرون

في طرقات المدينة

تنكر جراهام في تلك الليلة على نحو يجعله غير معروف أو يمكن الشك في شخصيته، ارتدى زي موظف بسيط في عطلة من عمله في دوائر الرياح. رافقه أسانو مرتدياً الرداء الكتاني التابع لوزارة العمل، تجولا في أنحاء المدينة، التي سار فيها من قبل عندما كانت الظلام يلفها. لكنه رآها الآن مضاءة ومستيقظة، دوامة من الحياة. على الرغم من تصاعد وتأرجح قوى الثورة، وعلى الرغم من السخط غير العادي، كانت مهمات النضال الأكبر الذي كان تمرده الأول ليس إلا المقدمة، فضلاً عن تيارات التجارة التي لا تُعد ولا تُحصى، لا تزال تتدفق على نطاق واسع وقوي. أصبح يعرف الآن شيئاً من أبعاد العصر الجديد ونوعيته، لكنه لم يكن مستعداً لتلك المفاجأة المستمرة بلا نهاية للمشاهدة التفصيلية، لسيل من الألوان والانطباعات المفعمة بالحياة التي تدفقت أمامه.

كان هذا أول اتصال حقيقي له مع الناس في هذه الأيام الأخيرة. أدرك أن كل ما حدث من قبل - باستثناء لمحاته الخاطفة للمسارح العامة والأسواق - كان يضم عنصر العزلة، إذ كان يتحرك داخل الحي السياسي

الضيق نسبياً، وأن جميع تجاربه السابقة كانت تدور مباشرة حول منصبه. أما هنا، فقد كانت المدينة في أكثر ساعات الليل ازدحاماً، حيث يمارس الناس إلى حدٍّ كبيرٍ اهتماماتهم المباشرة الخاصة، ويستأنفون الحياة الحقيقية غير الرسمية، والعادات الشائعة في العصر الجديد.

ظهرا بداية في شارع تزدهم طرقه المتعاكسة بأناس يرتدون الزي الكتاني الأزرق. كان هذا الجمع الذي رآه جراهام جزءاً من موكب... وكان من الغريب رؤية موكب يطوف في المدينة وأفراده جالسون. حملوا لافتات من مادة سوداء خشنة وعليها كتابة حمراء. كُتِبَ على اللافتات «لا لنزع السلاح»، ومعظمها بأحرف مُلَطَّخة وبتهجئة مختلفة؛ و«لماذا يجب نزع سلاحنا؟»؛ «لا لنزع السلاح»؛ «لا لنزع السلاح». مرت اللافتات واحدة تلو الأخرى، تيار متدفق من اللافتات. وأخيراً، في نهاية الموكب، أغنية الثورة وفرقة صاخبة من الآلات الغريبة. قال أسانو: «يجب أن يكونوا جميعاً في العمل. لم يحصلوا على طعام خلال اليومين الماضيين، أو سرقوه».

اتخذ أسانو الآن منعطفاً لتجنب الحشد المزدهم الذي انقسم عند مرور جثث من حين لآخر من المستشفى إلى المشرحة؛ حصيلة ما بعد حصاد الموت في الثورة الأولى.

كان عدد النائمين في تلك الليلة قليلاً؛ الجميع في الخارج. أحاطت بجراهام إثارة هائلة، وحشود دائمة تتغير على الدوام. شعر بذهنه مشوشاً ومظلماً بسبب الاضطراب المستمر، والصباح، وجوانب غامضة من الصراع الاجتماعي الذي كان الآن في بدايته فقط. أظهرت الأكاليل

واللافتات ذات الزخارف السوداء الغريبة في كل مكان مدى كثافة نوعية شعبيته. وكان يلتقط في كل مكان جزءاً من تلك اللهجة الثقيلة الفجة التي تستخدمها الطبقة الأمية؛ الطبقة، هذه هي، بعيداً عن ثقافة الفونوجراف، في الخطاب الشائع. وكانت الأجواء في كل مكان مملوءة بمشكلة نزع السلاح، مع نوع من الضغط المباشر لم تكن لديه أي فكرة عنه أثناء عزله في حي دوارات الرياح. ورأى أنه بمجرد عودته يجب أن يناقش مع أوستروج في هذا الموضوع وغيره من القضايا الكبيرة التي يُعبر عنها، بطريقة أكثر حسماً بكثير مما فعل حتى الآن. استحوذت على انتباهه طوال تلك الليلة روح الاضطرابات والثورة، حتى في الساعات الأولى من تجوالهما حول المدينة، إلى حد استبعاد أشياء غريبة كثيرة كان يمكنه ملاحظتها.

أدى هذا الانشغال إلى تجزئة انطباعاته. على أنه كان يصعب أن يمارس أي موضوع مهما - كان شخصياً ومُلحاً- تأثيراً غير جزئي، وسط الكثير مما كان غريباً ومفعماً بالحياة. عندما مرت الحركة الثورية، كانت في ذهنه مساحات فارغة، نُحيت جانباً مثل ستارة أمام جانب جديد مذهل لذلك العصر. لقد أثارت هيلين في عقله هذا الشغف الشديد في الاستفسار؛ ولكن هناك أوقات تراجعت فيها هي حتى بما يتجاوز أفكاره الواعية. ففي لحظة ما، على سبيل المثال، وجد أنهما يعبران الحي الديني، بغية المرور بسهولة حول المدينة من خلال الطرق المتحركة التي جعلت الكنائس المتفرقة غير ضرورية. استحوذت على اهتمامه بوضوح واجهة إحدى الطوائف المسيحية.

كانوا يتحركون جالسين على أحد الطرق العليا السريعة، وقفز المكان عند منعطف، متقدمًا بسرعة نحوهم. وكان مغطى بكتابة من قمته إلى قاعدته، بالأبيض والأزرق الزاهي، باستثناء حيث تعرض صور سينمائية شفافة واسعة النطاق وصارخة مشهدًا واقعيًا لكتاب «العهد الجديد»، وحيث تدلى بين الحروف إكليل أسود كبير لإظهار أن الدين الشعبي يتبع السياسة الشعبية. أصبحت هذه الكتابة ذات النمط الصوتي مألوفة لجراهام بالفعل، واستحوذت هذه النقوش على تفكيره، كونها بالنسبة لإحساسه تكاد أن تُعتبر في معظمها زندقة لا تُصدّق. ومن بين أقلها هجومًا: «الخلاص في الطابق الأول ثم اتجه إلى اليمين»؛ «ضع أموالك عند صانعك»، «الهداية الأكثر حدة في لندن، مشغلو الخبراء! تبدو زلقة!»؛ «ماذا سيقول المسيح للنائم؟ انضم إلى القديسين الجدد!»؛ «كن مسيحيًا... دون إعاقة مهنتك الحالية»؛ «جميع الأساقفة اللامعين يجلسون الليلة والأسعار كالمعتاد»؛ «بركات سريعة لرجال الأعمال المشغولين».

«لكن هذا مروع!»، قال جراهام عندما انطلقت أعلاهم صرخة للتقوى التجارية تصم الآذان.

«ما المروع؟»، سأل مرافقه الصغير، الذي يسعى عبثًا إلى أي شيء غير عادي في هذه الألوان الصارخة.

— هذا! من المؤكد أن الخشوع هو جوهر الدين.

نظر أوسانو إلى جراهام وقال بلهجة من وصل إلى اكتشاف: «أوه، ذلك! هل يصدّمك؟ نعم، أعتقد ذلك بالطبع. لقد نسيت. المنافسة على الاهتمام شديدة في عصرنا الحاضر، والناس ببساطة ليس لديهم وقت

فراغ للاعتناء بأرواحهم - كما تعرف - مثلما كانوا يفعلون». ابتسم، ثم أضاف: «قديمًا كان لديكم أيام السبت الهادئة والريف. كما أنني قرأت في مكان عن فترة ما بعد الظهر يوم الأحد، عندما...».

«لكن هذا»، قال جراهام وهو يلقي نظرة خاطفة مرة أخرى مع انحسار اللونين الأزرق والأبيض، «هذا بالتأكيد ليس الوحيد...».

- هناك المئات من الأساليب المختلفة. وإنما، بالطبع، إن لم تعلن طائفة عن نفسها، فلن تجني أي فائدة. لقد تغيرت العبادة مع الزمن. توجد طوائف من الطبقة العليا وأساليبها أكثر هدوءًا؛ مثل البخور باهظ الثمن، والرعاية الشخصية، وكل ذلك. يتمتع هؤلاء الناس بشعبية وازدهار إلى حد كبير. ويجب أن أخبرك أنهم يدفعون عشرات اللايونات للمجلس مقابل تلك الشقوق».

كان جراهام لا يزال يواجه صعوبة مع العملة، لكن تلك الإشارة إلى عشرات اللايونات ذكرته فجأة بهذه المسألة. اتجه ذهنه إلى هذا الاهتمام الجديد، ونسي في لحظة المعابد الصارخة وجمهورها المحتشد. أوحى التفاف في عبارة أن الذهب المدموغ، الذي بدأ عهده وسط تجار فينيقيا، قد فقد عرشه في النهاية؛ وقد أكدت الإجابة فكرة خروج الذهب والفضة من التداول. كان التغيير تدريجيًا لكنه سريع، وحدث نتيجة توسيع نظام الشيكات الذي كان قد حل عمليًا بالفعل في حياته السابقة محل الذهب في جميع المعاملات التجارية الأكبر. فمن أجل إدارة حركة التجارة العامة في المدينة، والعملة المشتركة بالفعل في جميع أنحاء العالم، كان المجلس يُصدر شيكات باللون البني والأخضر والوردي للمبالغ

الصغيرة، مع ترك مساحة فارغة لاسم المستفيد. يحمل أسانو مجموعة شيكات معه، ويسد في أول فرصة النقص في مجموعته. لم تكن مطبوعة على ورق قابل للتمزق، وإنما على نسيج شبه شفاف من الحرير المرن ومنسوجة بالحرير. وتضم جميع الشيكات صورة طبق الأصل من توقيع جراهام، أول لقاء له مع منحنيات ومنعطفات هذا التوقيع المألوف لمائي وثلاث سنوات.

لم تترك لديه بعض التجارب الوسيطة انطباعاً حياً كافياً لمنع مسألة نزع السلاح من استدعاء أفكاره مرة أخرى؛ ربما صورة غير واضحة أقل ظهوراً لمعبد ثيوصوفي، تعد بحدوث معجزات ومكتوبة بحروف ضخمة متزعزعة وبحماس ملتهب. ظهر بعدها مشهد لقاعة الطعام في شارع نورثمبرلاند، وقد أثار اهتمامه إلى حد كبير.

تمكن بفضل طاقة أسانو وأفكاره من مشاهدة هذا المكان من ممر صغير مزود بشاشة، مخصص محفوظ للجالسين على الطاولات. كانت صيحات مكتومة وأنغام مزمار وصرخات بعيدة تتغلغل في المبنى. لم يفهم مغزاها في البداية، لكنها استعادت في ذاكرته صوتاً خشناً غامضاً سمعه بعد عودة الأضواء في ليلة تجواله بمفرده.

وعلى الرغم من اعتياده على الاتساع وأعداد الناس الكبيرة، فقد أبقاه ذلك المشهد لفترة طويلة. فعندما شاهد خدمة الموائد أسفله مباشرة، وما يتخللها من أسئلة وأجوبة عديدة متعلقة بالتفاصيل، أصبح يدرك دلالة الاحتفال الكاملة لآلاف عديدة من الناس.

كانت دهشته الدائمة أن يجد أن النقاط التي يمكن للمرء أن يتوقع

أنها تصدمه بوضوح في البداية، لم تخطر على باله أبدًا إلى أن تتشكل فجأة بعض التفاصيل التافهة كلغز وتشير إلى الشيء الواضح الذي أغفله. اكتشف الآن فقط أن هذه الاستمرارية في المدينة، وهذا الاستبعاد للطقس، وهذه القاعات والطرق الواسعة، قد تضمنت اختفاء الأسرة؛ وأن «البيت» الفيكتوري النموذجي، الصومعة الصغيرة المبنية من الطوب وتضم المطبخ وحجرة الغسيل، وغرف المعيشة وغرف النوم، قد اختفت بالتأكيد تمامًا مثل الأكواخ الخشبية القديمة، باستثناء الأنقاض المختلفة في الريف. على أنه رأى الآن ما كان واضحًا بالفعل من البداية؛ وهو أن لندن -التي تُعتبر مكانًا للمعيشة- لم تُعد تجمعًا للمنازل بل فندقًا مذهلًا، فندقًا يضم ألف نوع من أماكن الإقامة، وآلاف من قاعات الطعام، والكنائس الصغيرة، والمسارح، والأسواق، وأماكن التجمع. وهذه تركيبة من المشاريع، هو أساسًا مالکها. يوجد لدى الناس غرف للنوم، وربما مع غرف انتظار، غرف صحية دائمًا على الأقل مهما كانت درجة الراحة والخصوصية؛ ويعيش بقية الناس مثلما عاش كثيرون في الفنادق العملاقة حديثة الصنع في العصر الفيكتوري، يتناولون الطعام والقراءة والتفكير واللعب والتحدث، وكل ذلك في أماكن الملاجئ العامة، ويذهبون إلى أعمالهم في الأحياء الصناعية في المدينة، أو يمارسون الأعمال التجارية في مكاتبهم في قسم التجارة.

أدرك على الفور كيف تطور هذا الوضع بالضرورة من المدينة الفيكتورية. لقد كان السبب الأساسي للمدينة الحديثة يتمثل دائمًا في اقتصاد التعاون. وكان الشيء الرئيس وراء منع دمج الأسر المنفصلة في جيله يكمن ببساطة في أن حضارة الشعب لم تكن قد اكتملت بعد، علاوةً

على الفخر الهمجي القوي، والعواطف، والأحكام المسبقة، والغيرة، والمنافسات، وعنف الطبقات الوسطى والدنيا، مما استلزم الفصل الكامل بين الأسر المتجاورة. على أن التغيير وترويض الناس تقدم بسرعة حتى في ذلك الحين. وخلال السنوات الثلاثين القصيرة لحياته السابقة، رأى إضافة هائلة لعادة استهلاك الوجبات المنزلية، فقد أفسح مقهى «هورس بوكس» مكاناً لمتجر الخبز المزدهم المفتوح، على سبيل المثال، وبدأ افتتاح النوادي النسائية، كما أدّى التطور الهائل في غرف القراءة والصالات والمكتبات إلى نمو الثقة الاجتماعية. وقد حققت بشائر التقدم الواعدة في هذا الوقت إنجازات كبيرة. وانتهت الأسرة المغلقة والمحبوسة.

عرف أن هؤلاء الناس في الأسفل ينتمون إلى الطبقة الوسطى الدنيا، الطبقة التي تقع مباشرة أعلى العمال الذين يرتدون القماش الكتاني الأزرق، وهي طبقة اعتادت في العصر الفيكتوري تناول الطعام مع استخدام كل احتياطات الخصوصية، لدرجة أن أفرادها عندما يتناولون أحياناً وجبة عامة، يخفون عادة إحراجهم بممارسة لهو مزعج أو سلوك متشدد بشكل ملحوظ. أما أولئك الناس الذين يرتدون ملابس خفيفة في أسفل، فهم يتسمون بسلوك مهذب وبالهدوء والراحة في تعاملهم مع بعضهم، وإن كانوا مرحين ومسرعين ومتحفزين.

لاحظ شيئاً يتسم بدلالة إلى حدٍّ ما. كانت الطاولة -بقدر ما تمكّن من الرؤية- لا تزال أنيقة بشكل مبهج. ولم يكن هناك ما يوازي الارتباك، وتناثر الفتات، وبقع البهارات والتوابل، وانقلاب الشراب، والزخارف في غير مكانها.. وكلها أشياء كانت ستميز التقدم العاصف للوجبة الفيكتورية. كما كان أثاث الطاولة مختلفاً تماماً. لا توجد زخارف ولا

زهور، والطاولة من دون مفرش وعرف أنها مصنوعة من مادة صلبة ذات نسيج ومظهر دمشقي. ولاحظ أن هذه المادة الدمشقية منقوشة بإعلانات تجارية مصممة برشاقة.

وتحقيقاً للراحة قبل كل عشاء، توجد مجموعة أدوات من الخزف والمعدن. هناك طبق واحد من الخزف الأبيض؛ وعلى طريقة صناير السوائل الساخنة والباردة المتطيرة، يتولى الشخص الذي يتناول العشاء غسله بنفسه بين كل صنف من الطعام؛ كما يغسل أدواته المعدنية البيضاء الأنيقة -السكين، والشوكة، والملقعة- حسب الاقتضاء.

يُقدم الحساء والنبذ الكيميائي -وهو المشروب الشائع حينذاك- بواسطة صناير مماثلة؛ وتُنقل تلقائياً أدوات الطعام المتبقية في أطباق مرتبة بذوق أسفل الطاولة على طول قضبان فضية. أوقف الشخص الذي يتناول العشاء هذه العملية، وساعد نفسه حسب تقديره. ظهرا عند باب صغير في أحد طرفي الطاولة، واختفيا عند الطرف الآخر. وجد أن ذلك التحول في تلك المشاعر الديموقراطية الآخذة في الازمحلال، وذلك الفخر القبيح لدى نفوس وضيعة، بما يجعل المتساوين يشمئزون لانتظار بعضهم، كان شديد القوة بين هؤلاء الناس. شغلته كثيراً هذه التفاصيل لدرجة أنه لم يلاحظ إلا عند مغادرته المكان تلك الصور الإعلانية الضخمة التي تمتد بمهابة على طول الجدران العليا للإعلان عن أبرز السلع.

وجدا وراء هذا المكان قاعة مزدحمة، واكتشف سبب الضوضاء التي حيرته. توقفا عند الباب الدوار، حيث يجري سداد النقود.

استرعى انتباه جراهام على الفور صياح عالٍ وعنيف، تلاه صوت خشن ضخم. صاح الصوت: «السيد ينাম بسلام. وصحته ممتازة. وسيكرس بقية حياته للملاحة الجوية. يقول إن النساء أجمل من أي وقت سابق. تراك! ياه! حضارتنا الرائعة تدهشه بما لا يقاس. تتجاوز كل مقياس. تراك. وهو يضع ثقة كبيرة في القائد أوستروج، ثقة مطلقة في القائد أوستروج. وسيصبح أوستروج رئيس الوزراء؛ ويُمنَح سلطة عزل أو إعادة الموظفين العموم... كل شيء سيصبح تحت رعايته وبين يديه. كل شيء سيصبح تحت رعاية القائد أوستروج وبين يديه! وقد أُعيد أعضاء المجلس إلى سجنهم فوق مقر المجلس».

توقف جراهام عند الجملة الأولى، ونظر إلى أعلى. لمح وجه بوق أحمر يصدر منه هذا النهيق. إنها آلة المخابرات العامة. بدا لفترة أنه يستجمع أنفاسه، وكان صوت الخفقان المنتظم لهيئتها الأسطوانية مسموعًا. ثم بدأ البوق «تراك، تراك»، وصاح مرة أخرى.

-باريس هادئة الآن. انتهت كل المقاومة. تراك! تحتل الشرطة السوداء كل منصب مهم في المدينة. قاتلوا بشجاعة كبيرة، وهم ينشدون الأغاني التي كتبها الشاعر كيلينج^(٤٢) في مدح أسلافهم. خرجوا عن السيطرة مرة أو مرتين، وعذبوا وشوهوا الجرحى وأسروا المتمردين، رجالًا ونساء. العبرة... لا تتمرد. هاها! تراك! تراك! إنهم زملاء مفعمون بالحيوية. زملاء شجعان مفعمون بالحيوية. ليكن هذا درسًا للحمقى غير

(٤٢) جوزيف رودريار كيلينج (Joseph Rudyard Kipling): كاتب وشاعر وقصاص بريطاني (١٨٦٥-١٩٣٦). «الترجمة».

المنضبطين في هذه المدينة، نعم! الحمقى! حثالة الأرض! تراك! تراك.
توقف الصوت. صدرت بين الحشد همهمات استنكارية مشوشة.
«سود ملعونون»، بدأ رجل يجادل بالقرب منهم: «هل هذا ما يفعله السيد
يا إخوتي؟ هل هذا ما يفعله السيد؟».

«الشرطة السوداء!»، قال جراهام، «ما هذا؟ أنت لا تعني...».
لمس أسانو ذراعه وألقى نحوه نظرة تحذيرية؛ وعلى الفور صاحت
آلية أخرى من هذه الآليات بصوت يصم الأذان وصرخت بصوت حاد.
«ياهاها، ياهاها، ياب! ها هي صحيفة حديثة ياب! صحيفة حديثة. ياها!
غضب صادم في باريس. ياهاها! الباريسيون الغاضبون من الشرطة
السوداء يؤخذون إلى ساحة الاغتيال. أعمال انتقامية مروعة. عودة الأزمنة
الوحشية مرة أخرى. دماء! دماء! ياها!»، صرخت أقرب آلة ثرثرة بشكل
مذهل، «تراك، تراك»، مع إسقاط نهاية الجملة، وشرعت في نغمة أكثر
تملقًا من ذي قبل، وإضافة تعليقات جديدة حول أهوال الفوضى. صاحت
أقرب آلة ثرثرة: «يجب الحفاظ على القانون والنظام».
«لكن...»، بدأ جراهام.

قال أسانو: «لا تطرح أسئلة هنا، وإلا ستورط في جدال».
فقال جراهام: «إذن دعنا نواصل سيرنا؛ لأنني أريد أن أعرف المزيد
عن هذا الموضوع».

وبينما كان هو ورفيقه يشقان طريق الخروج من خلال الحشد
المتحمس الذي تجمع أسفل هذه الأصوات، تمكن جراهام من تحديد
صورة أوضح لحجم هذه الغرفة وملامحها. كانت في المجمل كبيرة

وصغيرة، لا بد أن ما يقرب من ألف شخص كان حاضراً؛ متجمعين، ينفخون في الأبواق، يصيحون، يصرخون، يثرثرون، في هذه المساحة الكبيرة، كل مع حشده من المستمعين المتحمسين، وأغلبتهم رجال يرتدون الزي الكتاني الأزرق. توجد جميع أحجام الآلات، من الآليات الصغيرة الخاصة بالنميمة التي تطلق ضحكات من السخرية الميكانيكية في زوايا غريبة خلال عدد من الدرجات تصل إلى عمالقة بطول خمسين قدماً، مثل تلك التي صاحت بداية فوق جراهام.

ازدحم المكان بشكل غير عادي، نظراً لكثافة الاهتمام العام بمسار الأوضاع في باريس. من الواضح أن النضال كان أكثر وحشية مما صوره أوستروج. تحدثت جميع الآليات عن هذا الموضوع، وأدى تكرار الناس إلى أن تظن خلية النحل الضخمة هذه بعبارات مثل «إعدام رجال الشرطة»، و«حرق النساء أحياء»، و«الملاعين». تساءل رجل بالقرب منه: «ولكن، هل يسمح السيد بمثل هذه الأشياء؟ هل هذه بداية حكم السيد؟».

هل هذه بداية حكم السيد؟ ظلت صيحات الآلات وصفيها ونهيقها يلاحقه لفترة طويلة بعد أن غادر المكان؛ «تراك، تراك»، «ياهاها، ياها، ياب! ياها!». هل هذه بداية حكم السيد؟

بمجرد خروجهما إلى الطرق، بدأ يستفهم من أسانو عن طبيعة النضال الباريسي. «نزع السلاح هذا، ما المشكلة؟ ماذا يعني كل هذا؟». بدأ أسانو حريصاً في الأساس على طمأنته بأن الأمور «على ما يرام».

- لكن... ماذا عن هذه الاعتداءات؟!

أجاب أوسانو: «لا يمكنك عمل عجة دون أن تكسر البيض. إنهم

المحرضون فقط؛ وفي جزء واحد فقط من المدينة. جميع الأجزاء الباقية على ما يرام. العمال الباريسيون هم الأكثر وحشية في العالم، باستثناء عمالنا».

- ماذا! اللندنيون؟

- لا، اليابانيون. يجب الحفاظ على انضباطهم.

- وحرقت النساء أحياء!

قال أسانو: «إنها كومونة! يمكنهم سلب ممتلكاتك، ثم يتخلصون من الممتلكات ويُسلمون حُكم العالم للغوغاء. أنت السيد، العالم ملكك. لن توجد كومونة هنا. ولا حاجة للشرطة السوداء هنا.

«وقد أظهروا كل اعتبار. إنهم السود الموجودين بينهم... السود الناطقون بالفرنسية. أفواج السنغال، والنيجر، وتمبوكتو».

«أفواج؟»، سأل جراهام: «اعتقدت أنه فوج واحد فقط».

«لا»، قال أسانو ونظر نحوه: «هناك أكثر من فوج».

شعر جراهام بعجز مزعج.

«لم أكن أعتقد»، بدأ يقول ثم توقف فجأة. غير موضوع الحديث إلى طلب معلومات عن آلات الثروة هذه. كان الجزء الأكبر من الحشد الحاضر يرتدي ملابس رثة أو حتى ممزقة؛ وعرف جراهام أنه بقدر ما يتعلق الأمر بالطبقات الأكثر ازدهارًا، في جميع الشقق الخاصة المريحة في المدينة، توجد آلات الثروة التي يمكنها أن تتحدث بمجرد سحب رافعة. ويمكن لسكان الشقة ربط هذه الآلة بكابلات أي من المؤسسات الإخبارية الكبيرة التي يفضلها. وبعد أن عرف الآن بذلك، سأل عن سبب

عدم وجود مثل هذه الآلة في جناح شقيقه الخاص. شعر أسانو بالإحراج، وقال: «لم أفكر أبدًا. لا بد أن أؤسّروج أزالها».

نظر جراهام محدقًا، وصاح: «وكيف كان لي أن أعرف؟».

قال أسانو: «ربما ظن أن هذه الآلات سترعجك».

وبعد فترة صمت قال جراهام: «يجب إعادتهم مباشرة عند عودتي».

وجد صعوبة في فهم أن غرفة الأخبار هذه وقاعة الطعام ليست أماكن مركزية رائعة، وأن مثل هذه المؤسسات تتكرر كثيرًا في جميع أنحاء المدينة. وقد التقطت أذنيه مرارًا وتكرارًا خلال هذا الرحلة الليلية عبارات من بين الاضطراب في الطرق تصدر بصراخ غريب من آلة الأرجون التابعة للقائد أؤسّروج: «تراك، تراك!»، أو الصرخة: «ياهاها، ياها، ياب! اسمعوا ما في الجريدة حديثة الصدور! يلب!» من منافسه الرئيس.

تكررت أيضًا في كل مكان دور الإيواء، مثل تلك التي يدخلها الآن. وصل إليها عن طريق مصعد، وجسر زجاجي يمر عبر قاعة الطعام ويقطع الطرق بزاوية تصاعدية طفيفة. اقتضى دخول القسم الأول من المكان استخدام توقيعه كشخص قادر على الدفع، تحت إشراف أسانو. حضر إليهم على الفور رجل يرتدي ملابس بنفسجية ويضع مشبكًا ذهبيًا، وهذه شارة رجال الطب الممارسين. أدرك من أسلوب هذا الرجل أن هويته كانت معروفة، وبدأ في طرح أسئلة حول ترتيبات المكان الغريبة دون تحفظ.

على جانبي الممر الصامت والمُبطن، كأنما ليُخرس وقع الأقدام، توجد أبواب صغيرة ضيقة، أوحى حجمها وترتيبها بزنازين سجن

فيكتوري. لكن القسم العلوي في كل باب كان من نفس المادة الشفافة الخضراء التي أحاطت به عند استيقاظه، وفي الداخل يرقد في كل حاوية طفل صغير جدًا يمكن رؤيته على نحو باهت في عش صغير من الحشو. ويوجد جهاز متقن يراقب الجو، ويدق جرس بعيدًا في المكتب المركزي عند أدنى تغيير طفيف في درجة الحرارة والرطوبة المثلى. وقد حل نظام الحضّانات هذا بالكامل تقريبًا محل مخاطر مغامرات الرضاعة في العالم القديم. أثار المرافق الآن انتباه جراهم إلى المُرَضَّعات: مشهد من الشخصيات الميكانيكية، ذات أذرع، وأكتاف، وأنداء لنماذج واقعية بشكل مذهش، بتفاصيلها وملمسها، لكنها تقف على مجرد حوامل نحاسية أدناها؛ ويوجد قرص مُسطح في مكان الملامح، حمل إعلانات من المرجح أنها ذات فائدة للأمهات.

ومن بين كل الأشياء الغريبة التي شاهدها جراهم في تلك الليلة، لم يتنافر مع عاداته الفكرية شيء أكثر من هذا المكان. فقد كان مشهد المخلوقات الوردية الصغيرة -وأطرافها الضعيفة التي تتمايل في حيرة بأول حركات على نحو مبهم، ومتروكة بمفردها دون احتضان أو حب- بغيضًا تمامًا بالنسبة له. على أن رأي الطبيب المصاحب كان مختلفًا. وأظهرت أدلته الإحصائية بما لا يدع مجالًا للخلاف أن ذراعي الأم في العصر الفيكتوري واحتضانها الطفل كان أخطر مسار نحو الحياة، وأن معدل وفيات البشر كانت أفظع على الإطلاق. ومن ناحية أخرى، لم تفقد شركة الحضّانة هذه -وهي المؤسسة الدولية للحضّانة- نصفًا في المائة من ملايين الأطفال الرُّضَّع أو نحو ذلك، الذين خضعوا لرعايتها الغريبة. على أن موقف جراهم المتحامل كان شديد القوة، حتى بالنسبة إلى تلك الأرقام.

صادفوا الآن، على امتداد إحدى مسارات المكان العديدة، زوجين شابين يرتديان الزي الكتاني الأزرق المعتاد، ويطلان من خلال المادة الشفافة، ويضحكان بشكل هستيري على رأس مولودهما الأول الأصلع. لا بد أن وجه جراهام أظهر تقديره لهما، فقد توقف مرحهما وظهر عليهما الإحراج. بيد أن هذه الحادثة الصغيرة أبرزت إدراكه المفاجئ للهوة بين عاداته الفكرية وأساليب العصر الجديد. انتقل في حيرة وحزن إلى غرف الزحف، وروضة الأطفال. وجد غرف اللعب الطويلة الممتدة بلا نهاية فارغة! على الأقل لا يزال أطفال العصر الحديث يقضون لياليهم نيامًا. أشار المرافق خلال مرورهم إلى طبيعة الألعاب، والتطورات المستوحاة من تلك التي وضعها فرويبل^(٤٣). توجد هنا مربيات، لكن الآلات التي تغني وترقص وتميل تقوم بالكثير.

لا تزال العديد من النقاط غير واضحة بالنسبة إلى جراهام. «هناك الكثير من الأيتام»، قال حائرًا، وهو يعود إلى فكرته الخاطئة الأولى، ثم أدرك ثانية أنهم ليسوا أيتامًا.

بمجرد مغادرتهم دار الحضانة، بدأ يتحدث عن الرعب الذي شعر به بسبب رؤيته للأطفال في صناديق الحضّانة. سأل: «هل انتهت الأمومة؟ هل كانت نفاقًا؟ بالتأكيد كانت غريزة. يبدو ما رأيته غير طبيعي، بل بغضب». وعلى سبيل الرد، قال أسانو: «سنصل الآن إلى مكان الرقص. من المؤكد سنجده مزدحمًا. سنجده مزدحمًا على الرغم من كل الاضطرابات

(٤٣) فريديريك فرويبل (Friedrich Fröbel): مُعلم ألماني (١٧٨٢-١٨٥٢)، ابتكر فكرة روضة الأطفال. «المترجمة».

السياسية. لا تهتم النساء كثيرًا بالسياسة، باستثناء قليلات هنا وهناك. سترى الأمهات.. معظم الشابات في لندن أمهات. ترى تلك الفئة أن وجود طفل واحد يُعتبر شيئًا جديرًا بالثناء، إنه دليل على الحيوية. ويوجد أكثر من طفل لدى قلة من أبناء الطبقة الوسطى. ويختلف الأمر داخل وزارة العمل. أما بالنسبة للأمومة! فلا يزال هناك فخر بالأطفال. ويأتون إلى هنا في كثير من الأحيان للنظر إليهم».

- هل تعني إذن أن سكان العالم...؟

- يتقلصون؟ نعم. باستثناء الأشخاص الخاضعين لوزارة العمل. وعلى الرغم من الانضباط العلمي، إلا أنهم متهورون...

بدأ الهواء يتراقص فجأة مع الموسيقى. اتخذنا طريقًا غير مباشر، يضم مجموعة من الأعمدة الرائعة المصنوعة من حجر الجمشث^(٤٤). وعند اقترابهم، تدفقت مجموعة من الأشخاص المرحين يصيحون في مرح وضحك. رأى رؤوسًا ذات شعر مجعد، وحواجب مجدولة، وقفزات مُعقدة سعيدة من مقامر يسير منتصرًا.

قال أسانو بابتسامة خافتة: «سترى. لقد تغير العالم. سترى بعد لحظة أمهات العصر الجديد. تعال من هذا الطريق. سرعان ما سنرى هؤلاء هناك مرة أخرى».

صعدا إلى ارتفاع معين في مصعد سريع، ثم انتقلا إلى مصعد أبطأ. ومع تقدمهم تعالت الموسيقى حتى أصبحت قريبة ورائعة. وبالتحرك

(٤٤) الجمشث (amethyst): حجر كوارتز بنفسجي، يُستخدم عادة في صناعة المجوهرات.
«المترجمة»

خلال تركيباتها الرائعة، تمكنا من تمييز دقات أقدام راقصة لا تُعد ولا تُحصى. دفعا المبلغ المطلوب عند باب دوار، ثم دخلا إلى ممر واسع يطل على مكان الرقص، وفتنة الصوت والبصر كاملة.

قال أسانو: «هنا آباء وأمّهات الصغار الذين رأيتهم».

لم تكن القاعة مزينة بثراء مثل قاعة الأطلس، وباستثناء ذلك كان حجمها أروع ما شهده جراهام. ذكّرت الشخصيات الجميلة ذات الأطراف البيضاء - التماثيل، دعائم القاعات - باستعادة روعة النحت مرة أخرى؛ بدت متمائلة للمشاركة، ووجوها تضحك. كان مصدر الموسيقى التي ملأت المكان مخفياً، وكانت الأرضية الساطعة اللامعة بأكملها ممثلة براقصين في أزواج. قال الموظف الصغير: «انظر إليهم، انظر إلى أي مدى يظهرن الأمومة».

يمتد الممر الذي وقفوا عليه على طول الحافة العليا لشاشة ضخمة تقطع أحد جوانب قاعة الرقص من قاعة خارجية من النوع الذي يُظهر من خلال المداخل المقوسة الواسعة استمرار اندفاع طرق المدينة. احتشد في هذه القاعة الخارجية عدد كبير من الناس يرتدون ملابس أقل تألقاً، وعددهم كبير يماثل تقريباً عدد الذين يرقصون في الداخل، وترتدي الغالبية العظمى الزي الأزرق الخاص بوزارة العمل، وهو الزي الذي أصبح الآن مألوفاً تماماً لجراهام. كانوا فقراء بما لا يتيح لهم المرور من الأبواب الدوارة لدخول الحفل، ومع ذلك حالت أصوات الحفل المغرية دون ابتعادهم. ووجد بعضهم حتى مساحات فارغة، وكانوا يرقصون أيضاً، وتفرغ ملابسهم البالية في الهواء. أطلق بعضهم صيحات ودعابات

وتلميحات غريبة خلال رقصهم، لم يفهمها جراهام. بدأ شخص يطلق صفيح العبارة الأساسية المتكررة في الأغنية الثورية، وإنما بدا كأن تلك البداية قُمِعت على الفور. يقف جراهام في ركن مظلم، ولذا لم يتمكن من الرؤية. التفت نحو القاعة مرة أخرى. توجد فوق الأعمدة الداعمة تماثيل نصفية من الرخام لرجال كان هذا العصر يكن لهم تقديرًا كبيرًا كمُحررين ورواد معنويين؛ كانت أسماء أغلبهم غريبة على جراهام، لكنه تعرّف على جرانت ألن^(٤٥)، لو جاليان^(٤٦)، نيتشه^(٤٧)، شيلي، جودوين^(٤٨). عززت الأكاليل السوداء الكبيرة والمشاعر البليغة تلك الكتابة الضخمة التي شوهدت جزئيًا الطرف العلوي من مكان الرقص، وأكدت أن «احتفال الصحو» مستمر.

قال أسانو: «يأخذ عدد هائل من العمال عطلة أو لا يذهبون إلى العمل لهذا السبب، بصرف النظر عن العمال الذين يرفضون العودة. هؤلاء الناس مستعدون دائمًا للعطلات».

سار جراهام إلى الحاجز ووقف متكئًا، ينظر إلى الراقصين والراقصات. باستثناء اثنين أو ثلاثة من الأزواج ابتعدوا ويهمسون عن

(٤٥) جرانت ألن (Grant Allen): كاتب وروائي كندي (١٨٤٨-١٨٩٩)، تلقى تعليمه في إنجلترا، وكان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من مُشجعي التطور. «الترجمة».

(٤٦) ريتشارد لو جاليان (Le Gallienne): كاتب وشاعر إنجليزي (١٨٦٦-١٩٤٧). «الترجمة».

(٤٧) نيتشه (Nietzsche): عالم لغويات وفيلسوف ألماني من أشهر فلاسفة ألمانيا (١٨٤٤-١٩٠٠). «الترجمة».

(٤٨) ويليام جودوين (William Godwin): صحفي وفيلسوف سياسي وروائي إنجليزي (١٧٥٦-١٨٣٦). «الترجمة».

بُعد، كان هو ودليله يقفان في الممر بمفردهما. شعر بنفس دافئ ذي رائحة وحيوية يصل إليه. يرتدي الرجال والنساء في أسفل ملابس خفيفة مفتوحة الرقبة وأذرعهم عارية، كما يتيح الدفء العام في المدينة. وكانت شعور الرجال - في كثير من الأحيان - عبارة عن كتلة مجمعة شائكة، وذقونهم حلقة دائمة، ويتمتع كثيرون منهم بخدود متوردة أو ملونة. رأى العديد من النساء الجميلات، يرتدين جميعاً ملابس شديدة الدلال. وخلال سيره إلى أسفل، رأى وجوهاً منتشية، ذات أعين نصف مغلقة من المتعة.

سأل فجأة: «أي نوع من الناس هؤلاء؟».

- العمال... عمال مزدحرون. ما كنت ستطلق عليه الطبقة الوسطى. لقد انتهى منذ فترة طويلة التجار المستقلون الذين يملكون أعمالاً تجارية صغيرة مستقلة؛ على أن هناك العاملين بالتاجر، والمديرين، والمهندسين من مائة نوع. واليوم عطلة بالطبع، وستجد كل مكان للرقص في المدينة مزدحماً، وكل مكان للعبادة.

- لكن... النساء؟

- نفس الشيء. هناك ألف شكل من أشكال العمل للنساء الآن. لكن عصرك شهد بداية المرأة العاملة المستقلة. والآن معظم النساء مستقلات. ومعظم هؤلاء النساء متزوجات بشكل أو بآخر، إذ توجد العديد من طرق التعاقد، وهذا يتيح لهن المزيد من المال، ويُمكنهن من الاستمتاع.

«فهمت»، قال جراهام وهو ينظر إلى الوجوه المتوردة ووميض ودوامة الحركة؛ لكنه لا يزال يفكر في كابوس الأطراف الوردية العاجزة: «وهؤلاء أمهات؟».

- معظمهن.

- كلما رأيت المزيد من هذه الأشياء، أجد مشاكلكم أكثر تعقيداً. وهذه -على سبيل المثال- مفاجأة. كانت أخبار باريس مفاجأة».

صمت لفترة قصيرة ثم تحدث مرة أخرى:

- هؤلاء أمهات. أعتقد أنني سأبدأ الآن رؤية الأشياء بالطريقة الحديثة. هناك عادات فكرية قديمة تتشبث بي... عادات أعتقد أنها قائمة على احتياجات انتهت بالفعل. كان من المفترض أن المرأة -في عصرنا بالطبع- لا تنجب الأطفال فحسب، وإنما ترعاهم أيضاً وتكرس نفسها لهم، وتتولى تربيتهم... كل أساسيات التربية الأخلاقية والعقلية التي يدين بها الطفل لأمه. أو لا تفعل الأمهات ذلك؛ يجب أن أعترف أن عدداً لا بأس به لم يفعلن ذلك. أما في هذا العصر، من الواضح أنه لا توجد حاجة لمثل هذه الرعاية أكثر مما لو كان الأطفال فراشات. أصبحت أفهم ذلك! كان لدينا نموذج مثالي... شخصية لامرأة متزنة صبورة، عشيقة بصمت وهدوء في البيت، أم وصانعة رجال... وأن تحبها كان نوعاً من العبادة... توقف وكرر: «نوع من العبادة».

قال الرجل القصير: «المثل العليا تتغير مع تغير الاحتياجات».

استيقظ جراهام من خياله اللحظي، وكرر أسانو كلماته. عاد عقل جراهام إلى الواقع الذي يعيشه الآن.

- أرى بالطبع معقولة هذا تماماً. ضبط النفس، الرصانة، الفكر الناضج، الفعل غير الأناني... هي ضروريات الدولة البربرية، حياة المخاطر. الإصرار هو تكريم الإنسان للطبيعة التي لا تُقهر. لكن الإنسان

تغلب على الطبيعة الآن لجميع الأغراض العملية... شؤونه السياسية يديرها زعماء مع الشرطة السوداء... والحياة سعيدة.

نظر إلى الراقصين مرة أخرى، وقال: «مرح».

قال الضابط القصير مفكرًا: «تأتي لحظات متعبة».

- يبدون جميعًا شبابًا. لا بد أنني بينهم أكبر رجل سنًا. بينما في عصري، كنت سأعتبر في منتصف العمر.

- إنهم شباب. لا يوجد إلا عدد قليل من كبار السن في هذه الطبقة في مدن العمل.

- وكيف ذلك؟

- حياة كبار السن ليست ممتعة كما كانت سابقًا، إلا إذا كانوا أغنياء لتوظيف أحماء ومساعدين. ولدينا مؤسسة تُسمى الموت الرحيم.

قال جراهام: «آه! الموت الرحيم! الموت السهل؟».

-الموت السهل. إنها المتعة الأخيرة. تتولى شركة الموت الرحيم الأمر بشكل جيد. يسدد الناس المبلغ -وهو مبلغ كبير- قبل وقت طويل. يذهبون إلى مدينة المتعة ويعودون فقراء ومرهقين، مرهقين جدًا.

قال جراهام بعد لحظات توقف: «لا يزال أمامي الكثير لأفهمه. ومع ذلك، أرى منطق كل شيء. لقد كانت مجموعة فضائلنا الغاضبة وقيودنا المريرة نتيجة للشعور بالخطر وعدم الأمان. وكانت الرواقية والبروتستانتية -حتى في عصري- أنواعًا تتلاشى. تسلح الرجل قديمًا في مواجهة الألم، والآن يحرص على المتعة. وهنا يكمن الفرق. أبعدت الحضارة الألم والخطر بعيدًا... بالنسبة للموسرين. والناس الميسورون

فقط هم المهمون الآن. لقد بقيت نائمًا مائتي عام».

اتكأاً لدقيقة على الدرايزين، يتابعان حركات الرقص المتشابكة. كان المشهد جميلاً في الواقع.

وفجأة قال جراهام: «أقسم أنني أفضل أن أكون حارساً جريئاً يتجمد في الثلج من أن أكون واحداً من هؤلاء الحمقى الملونين!».

قال أسانو: «في الثلج، ربما يفكر المرء بشكل مختلف».

«أنا غير متحضر»، قال جراهام، دون أن يلتفت إليه: «هذه هي المشكلة. أنا بدائي.. من العصر الحجري القديم. لقد جفت نافورة الغضب والخوف وأغلقت، والعادات المكتسبة طوال فترة العُمر تجعلهم مرحين وسلسين ومبتهجين. يجب أن تتحمل صدماتي واشمئزازي القادمين من القرن التاسع عشر. هؤلاء الناس -كما تقول- هم عمال مهرة وهلم جرا. وبينما يرقصون، يقاتل الرجال... يموت الرجال يموتون في باريس للمحافظة على العالم... حتى يتمكن هؤلاء من الرقص».

ابتسم أسانو قليلاً وقال: «ولهذا السبب، يموت الرجال في لندن».

سادت دقيقة صمت.

سأل جراهام: «أين ينام هؤلاء؟».

- فوق وتحت... مأوى مُعقد.

- وأين يعملون؟ هذه... هذه هي الحياة المنزلية.

- سترى القليل من العمل الليلة. ذلك أن نصف العمال في الخارج أو تحت السلاح. يستمتع نصف هؤلاء الناس بالعطلة. لكننا سنذهب إلى أماكن العمل، إذا رغبت.

ظل جراهام يشاهد الراقصين لفترة، ثم ابتعد فجأة: «أريد أن أرى العمال. رأيت ما يكفي من هذا».

قاد أسانو الطريق على طول الممر عبر قاعة الرقص. وصلا إلى ممر مستعرض جلب نسمة من هواء أكثر نقاء وبرودة.

ألقي أسانو نظرة على هذا الممر أثناء سيرهما، توقف ثم عادا إليه والتفت إلى جراهام بابتسامة. قال: «هنا، يا سيدي، ستجد شيئاً مألوفاً لك على الأقل... ومع ذلك... لكنني لن أخبرك. تعال!».

قاد الطريق على طول ممر مغلق، أصبح الآن بارداً. عرفا من صدى أقدامهما أن هذا الممر هو جسر. وصلا إلى رواق دائري محاط بالزجاج ليحميه من الطقس الخارجي. وهكذا وصلا إلى غرفة دائرية بدت مألوفة، على الرغم من جراهام لم يتذكر بوضوح متى دخلها من قبل. يوجد سلم... أول سلم رآه منذ استيقاظه. صعدا السلم ووصلا إلى مكان مرتفع ومظلم وبارد، يضم سلماً آخر عمودياً تقريباً. صعدا، وجراهام لا يزال حائراً.

فهم جراهام عندما وصل إلى أعلى السلم، حيث تعرّف على القضبان المعدنية التي تشبث بها. كان في قفص أسفل قبة كاتدرائية القديس بولس. ارتفعت القبة قليلاً فوق محيط المدينة العام، نحو الشفق الساكن، منحدره بعيداً، مشرقة وزلقة تحت أضواء بعيدة قليلة، إلى خندق الظلام المحيط. نظر من بين القضبان إلى السماء الشمالية الصافية ورأى الكوكبات المرصعة بالنجوم لم يلحق بها جميعاً أي تغيير. رأى نجم العيوق مُعلقاً في الغرب، ونجم فيجا مرتفعاً، ونقاط الدب الأكبر السبع متلائة تتخذ مسيرتها الدائرية المهيبة حول القطب.

شاهد هذه النجوم في فجوة صافية من السماء. في اتجاهي الشرق والجنوب، كانت الأشكال الدائرية الكبيرة لدوّارات الرياح المتدمرة تحجب السماء، بحيث اختفى الوهج حول مقر المجلس. وفي اتجاه الجنوب الغربي، كانت كوكبة أوريون مُعلقة، تظهر كشبح باهت خلال زخارف الأعمال الحديدية والأشكال المتشابكة فوق تألق مبهر من الأضواء. صدرت صفارات الإنذار من منصات الطيران إعلانًا عن أن إحدى الطائرات جاهزة للإقلاع. ظل لفترة يحرق نحو المنصة المتوهجة. ثم عادت عيناه إلى الكوكبات الشمالية.

بقي صامتًا لفترة طويلة. قال أخيرًا وهو يتسم في الظل: «هذا يبدو أغرب شيء على الإطلاق. الوقوف في قبة القديس بولس والتطلع مرة أخرى إلى هذه النجوم المألوفة الصامته!».

اصطحب أسانو جراهام على طول الطرق الملتوية إلى حي القمار والأعمال الكبيرة، حيث يضيع ويُصنع الجزء الأكبر من ثروات المدينة. أعجب به جراهام كسلسلة لا نهاية لها من القاعات العالية، تحيط بها طبقات فوق طبقات من الأروقة التي تفتح فيها آلاف من المكاتب، ويمتد عبرها العديد من الجسور، وممرات المشاة، وقضبان الحركة الجوية، والعُقلة وأحبال القفز، وكلها متشابكة. وهنا -أكثر من أي مكان آخر- ارتفعت عاليًا نبرة الحيوية الشديدة، والنشاط المتسرع الذي تصعب السيطرة عليه، وانتشر الإعلان العنيف في كل مكان، حتى سبغ ذهنه في موجات مضطربة من الضوء واللون. كما انتشرت آلات الثرثرة فاسدة النبرة بشكل غريب، وملأت الهواء بصرير مرهق ولهجة عامية غبية: «اسلخ عينيك وانزلق»، «جيوهوب، بونانزا»، «جوليفر يأتي ويستمع!».

بدا له المكان مليئًا بأناس، إما منفعلين بعمق وإما متفخين بمكر غامض. ومع ذلك عرف أن المكان خالٍ نسبيًا، وأن الاضطراب السياسي الكبير الذي شهدته الأيام القليلة الماضية قد أدى إلى تقليص المعاملات إلى حد أدنى غير مسبوق. وفي أحد الأماكن الضخمة، شاهد طرقًا طويلة تضم طاولات الروليت، يحيط بكل منها زحام متحمس غير وقور. وفي مكان آخر، شاهد ثرثرة صارخة لنساء ييضاوات الوجه ورجال ذوي أعناق حمراء يشتررون ويبيعون أسهم مشروع تجاري وهمي تمامًا، يحقق كل خمس دقائق أرباحًا بنسبة عشرة في المائة، ويلغي نسبة معينة من أسهمه عن طريق عجلة يانصيب. استُكمِلت هذه الأنشطة التجارية بطاقة تحولت بسهولة إلى عنف. اقترب جراهام من ازدحام كثيف وجد في وسطه تاجرين بارزين في جدل عنيف وشرس حول نقطة حساسة تتعلق بآداب العمل. شيء لا يزال في الحياة للقتال من أجله. علاوة على ذلك، صدمته إعلانات قوية بحروف صوتية بلون قرمزي متوهج، يبلغ ارتفاع كل منها ضعف طول رجل: «نحن نضمن للمالك. نحن نضمن للمالك».

سأل: «مَن المالك؟».

- أنت.

«لكن، ماذا يضمنون لي؟»، سأل، «ماذا يضمنون لي؟».

- ألم يكن لديكم ضمان؟

فكر جراهام: «تأمين؟».

- نعم... التأمين. أتذكر أن هذه كانت الكلمة القديمة. إنهم يؤمنون حياتك. عشرات الناس يؤمنون على حياتك، يضعون عددًا لا يحصى

من اللايونات عليك. وبالإضافة إلى ذلك، يشتري آخرون المستحقات السنوية. يقومون بذلك لكل شخص بارز. انظر هناك!».

تدفق حشد من الناس صائحين، ورأى جراهام شاشة سوداء واسعة أُضيئت فجأة بأحرف أكبر بلون أرجواني ناري: «الاستحقاقات السنوية للمالك... إكس ٥ لكل جي». بدأ الناس في الاستهجان والصراخ؛ جاء عدد من رجال يركضون، أعينهم جامحة ويعانون من صعوبة التنفس، يخدشون بأصابع معقوفة في الهواء. كان هناك احتشاد غاضب حول مدخل صغير.

أجرى أسانو حاسبة قصيرة وغير دقيقة. «استحقاقهم السنوي عليك يبلغ ١٧ في المائة. لن يدفعوا نسبة مئوية كبيرة إذا تمكنوا من رؤيتك الآن يا سيدي. لكنهم لا يعرفون. كانت استحقاقاتك السنوية الخاصة تُعتبر عادة استثمارًا آمنًا، لكنها الآن مجرد مقامرة، بطبيعة الحال. ربما هذه محاولة يائسة. أشك في حصول الناس على أموالهم».

تزايد حولهم بكثافة حشد متلقي المستحقات السنوية المحتملين، بحيث عجزا لبعض الوقت عن التحرك إلى الأمام أو إلى الوراء. لاحظ جراهام وجود نسبة عالية من النساء بين المضاربين، وذكره مرافقه مرة أخرى باستقلال النساء الاقتصادي. ظهر بشكل ملحوظ أن النساء قادرات على الاعتناء بأنفسهن في الحشد، وذلك باستخدامهن المرفقين بمهارة خاصة، كما عرف بنفسه. رأى امرأة مجعدة الشعر تحاول في ظل ضغط الناس الوصول إلى مكان فارغ، وظلت تنظر إلى وجهه عدة مرات، كأنما تعرفت عليه، ثم اتجهت نحوه عمدًا ولمست يده بذراعها بطريقة تكاد

أن تبدو مصادفة، وأوضحت بنظرة قديمة قدم الكلدانية أنه وجد ترحيباً واستلطافاً في عينيها. وعندئذ ظهر رجل نحيف رمادي اللحية ويتعرق بغزارة في شغف نبيل لمساعدة الذات -أعمى عن كل الأشياء الدنيوية، باستثناء هذا الإغراء المبهر- واندفع بينهما بغتة نحو العلامة المغرية» «إكس ٥ بي آر جي».

قال جراهام لأسانو: «أريد الخروج من هنا. ليس هذا ما جئت لرؤيته. أريد أن أرى الناس الذين يرتدون الزي الأزرق. أما هؤلاء المجانين الطفيليون...».

وجد نفسه محشوراً بين كتلة هائلة من الناس.



الفصل الحادي والعشرون

الجانب السفلي من الحياة

سارا الآن عبر الطرق المتحركة السريعة من حي الأعمال إلى حي بعيد في المدينة، حيث يُصنع الجزء الأكبر من المصنوعات. عبرت المنصات نهر التايمز مرتين خلال سيرها، ومرت على جسر واسع عبر أحد الطرق الكبيرة التي تدخل المدينة من الشمال. كان انطباعه في الحالتين سريعاً ومفعماً بالحيوية. كان النهر بريقاً متشابكاً واسعاً من مياه البحر الأسود، تُشكل المباني قوساً فوقه، ويتلاشى في الاتجاهين متحولاً إلى سواد يتألق بالأضواء الآخذة في الانحسار. مرت سلسلة من الصنادل السوداء في اتجاه البحر، يديرها رجال يرتدون ملابس زرقاء. كان الطريق نفقاً طويلاً وواسعاً وعالياً، تتحرك على طولهِ آلات ذات عجلات كبيرة دون ضجيج وبسرعة. وهنا أيضاً، كان اللون الأزرق المميز لوزارة العمل وفيراً. أدهشت جراهام بوضوح سلاسة المسارات المزدوجة، وضخامة وخفة العجلات الكبيرة المملوءة بالهواء بما يتناسب مع جسم المركبات. جذبت انتباهه دون مبرر عربة ثقيلة وعالية جداً، ذات قضبان معدنية طويلة

تتدلى منها جثث نازفة لعدة مئات من الأغنام. وفجأةً انقطعت حافة الممر المقوس وأخفت الصورة.

غادرا الطريق الآن وهبط بهما مصعد، ثم عبرا مسارًا منحدرًا، وهكذا وصلا ثانية إلى مصعد هبوط. تغير مظهر الأشياء. اختفى حتى التظاهر بالزخرفة المعمارية، وتضاءلت الأضواء سواء من حيث العدد أو الحجم. ومع وصولهما إلى حي المصانع، أصبحت العمارة أكثر ضخامة بما يتناسب مع المساحات. شاهد الرجال والنساء والأطفال يرتدون جميعًا الملابس الكتانية الزرقاء في مكان الخزافين المُترب لصنع البسكويت، بين مطاحن الفلسبار^(٤٩)، في غرف الفرن لعمال المعادن، بين بحيرات خام الإيداميت المتوهجة.

كانت العديد من هذه الممرات الكبيرة المُتربة طرقًا لآلات صامته، أفران رمادية ملقاة بلا نهاية تشهد على الاضطراب الثوري. وأينما يوجد عمل، يقوم به عمال يتحركون ببطء ويرتدون الزي الكتاني الأزرق. وكان الأشخاص الوحيدون الذين لا يرتدون هذا الزي هم مراقبو أماكن العمل وشرطة العمل التي ترتدي زيًا برتقاليًا. ونظرًا لأن جراهام كان قادمًا لتوه من قاعات الرقص وشاهد وجوه الراقصين الوردية، فضلًا عن الحيوية التلقائية في الحي التجاري، فقد لاحظ هنا الوجوه المقروصة، والعضلات الضعيفة، والأعين المرهقة لدى العديد من عمال هذا العصر الحديث. كما رأى أن لياقة العمال أدنى بشكل ملحوظ مقارنة بعدد قليل من المديرين الذين يرتدون ملابس مبهجة، والنساء رئيسات العمل اللاتي

(٤٩) الفلسبار: هو معدن سليكات الألمنيوم. «الترجمة».

يوجهن عمالهن. في العصر الفيكتوري القديم، اتبع العمال أقوياء البنية مثال حصان جر الأثقال وكل ما يُنتج قوة حيوية، وصولاً إلى الانقراض؛ حيث حلت الآلات الماهرة محل عضلاتهم القوية. بينما عمال هذا العصر الحديث -الرجال والنساء على حد سواء- فدورهم في الأساس يكمن في تشغيل الآلات وتغذيتها؛ أي بمثابة خادمين أو مرافقين، أو فنانين تحت التوجيه.

كانت النساء -مقارنة بمن تذكرهن جراهام- يمثلن فئة تتميز بالبساطة والصدر المُسطح. لقد أدت مائتا عام من التحرر من القيود الأخلاقية للدين البيوريتاني، مائتا عام من حياة المدينة، إلى القضاء على ضغوط الجمال الأنثوي، ونشاط عشرات الآلاف من النساء اللاتي يرتدين الكتان الأزرق. أن تتمتع بجسد أو عقل رائع، وأن تتمتع بشكل ما بالجاذبية أو التفرد، كان ولا يزال وسيلة تحرر معينة للكادحين، خط الهروب إلى مدينة المتعة وروعها ومسراتها، وأخيراً إلى الموت الرحيم والسلام. ويكاد يندر توقع صمود نفوس سيئة التغذية أمام مثل هذه الإغراءات. في المدن الشابة في حياة جراهام السابقة، كانت الكتلة العمالية حديثة التجميع عبارة عن حشد متنوع، لا تزال تحركه تقاليد الشرف الشخصي والأخلاق العالية؛ أما الآن فهي تتحول إلى فئة ذات مقدرة طبيعية، مع اختلاف معنوي وجسدي خاص بها، بل ولهجة خاصة بها.

توغلا إلى أسفل، ثم إلى أسفل، نحو أماكن العمل. يمران الآن تحت أحد شوارع الطرق المتحركة، وشاهدا منصاتها تسرع فوقها بكثير على قضبانها، كما شاهدا شقوقاً من الأضواء البيضاء بين الفتحات المستعرضة. كانت المصانع التي لا تعمل قليلة الإضاءة؛ وقد بدت

لجراهم، هي والممرات المملوءة بآلات عملاقة، غارقة في الظلام. وحتى في الأماكن التي يجري فيها العمل، كانت الإضاءة أقل تألقاً بكثير مما هي عليه في الطرق العامة.

خلف بحيرات الإيدامات المتوهجة، وصل إلى منطقة الصاغة المكتظة. تمكن بصعوبة، وباستخدام توقيعه، من الحصول على موافقة لدخول هذه الدهاليز. كانت عالية ومظلمة، وباردة إلى حد ما. رأى في الدهليز الأول عدداً قليلاً من الرجال يصنعون حلقات ذهبية مزركشة. يجلس كل رجل على مقعد صغير بمفرده، تحت قليل من الضوء المظلل. وكان أغرب انطباع لديه هو ذلك المشهد الطويل من بقع الضوء، مع أصابع رشيقة ساطعة الإضاءة، تتحرك بين اللفائف الصفراء البراقة، والوجه المنكب على العمل مثل وجه شبح في كل ظل.

نُفذ العمل بشكل جميل، ولكن دون أي قدرة على النمذجة أو الرسم، فمعظمه فن زخرفي متشابك أو تنويعات على فكرة هندسية أساسية متكررة. ارتدى هؤلاء العمال زيّاً أبيض غريباً، بلا جيوب أو أكمام. يرتدونه عند وصولهم إلى العمل، لكنهم يخلعونه في الليل ويجري تفتيشهم قبل مغادرتهم مبنى الإدارة. وعلى الرغم من كافة الاحتياطات، أخبرهم شرطي العمل بنبرة مكتئبة أن الإدارة كثيراً ما تتعرض للسرقة.

يوجد وراء هذا المكان دهليز لنساء منشغلات في قطع وتركيب شرائح من الياقوت الاصطناعي، وبعدهن رجال ونساء يعملون معاً على شرائح شبكة نحاسية تُشكل أساس البلاط المصوغ بالمينا. كانت شفاه وأنوف العديد من هؤلاء العمال بيضاء زاهية، بسبب مرض ناجم

عن المينا الأرجوانية الغريبة التي صادف أنها موضة منتشرة. اعتذر أسانو لجراهام على هذا المشهد الكريه، كما اعتذر لعدم ملائمة هذا الطريق. قال جراهام: «هذا ما أردت أن أراه»، ثم كرر، في محاولة لتجنب بداية تشوه غريب ملفت للنظر: «هذا ما أردت أن أراه».

قال أسانو: «ربما كان يمكنها أن تفعل أفضل من ذلك مع نفسها».

أدلى جراهام ببعض التعليقات الساخطة.

فقال أسانو: «لكننا، يا سيدي، لا نستطيع ببساطة قبول تلك الأشياء دون أن تكون أرجوانية اللون. في عصرك كان الناس يقبلون تلك الفظاظ؛ ذلك أنهم قبل مائتي عام كانوا أقرب إلى البربرية».

سارا على طول أحد الدهاليز السفلية لمصنع الصياغة بالمينا، حتى وصلا إلى جسر صغير يمتد فوق قبو. نظر جراهام من فوق الدرابزين، ورأى في الأسفل رصيفاً تحت أقوس أكبر كثيراً من أي قوس رآه. كانت ثلاثة صنادل مخنوقة بغبار الدقيق تفرغ حمولاتها من مسحوق الفلسبار على أيدي عدد كبير من الرجال الذين يسعلون، ومع كل منهم عربة نقل صغيرة؛ ملأ الغبار المكان بضباب خانق، وحول الوهج الكهربائي إلى اللون الأصفر. كانت ظلال هؤلاء العمال غير الواضحة تتحرك حول أقدامهم، وتندفع جيئةً وذهاباً في مواجهة امتداد طويل لجدار أبيض. وكان يتوقف أحدهم بين الحين والآخر لكي يسعل.

ارتفعت من المياه حبرية السواد كتلة داكنة وضخمة من البناء، أثارت في ذهن جراهام فكرة العديد من الطرق والممرات والمصاعد التي ترتفع طابقاً فوق طابق أعلاه بينه وبين السماء. كان الرجال يعملون في صمت

تحت إشراف اثنين من أفراد شرطة العمل؛ وأصدرت أقدامهم أصواتًا كالرعد خلال حركتهم ذهابًا وإيابًا على الألواح. وبينما كان ينظر إلى هذا المشهد، بدأ صوت خفي في الظلام يغني.

صاح أحد رجال الشرطة: «أوقفوا ذلك الرجل!». لكن العمّال عصوا الأمر؛ وبدأ أحدهم في ترديد الأغنية، وتلاه جميع الرجال الملطخين ببقع بيضاء ويعملون هناك، في ترديدها أيضًا بتحدٍّ.. كانت أغنية الثورة. رعد وقع الأقدام على الألواح الآن على إيقاع الأغنية؛ تراك، تراك، ألقى الشرطي الذي صرخ نظرة على زميله، وشاهده جراهام وهو يهز كتفيه. فلم يبذل أي جهد آخر لوقف الغناء.

وهكذا واصلا سيرهما خلال هذه المصانع وأماكن الكدح، وشاهدا العديد من الأشياء المؤلمة والكئيبة. تركت هذه المسيرة في ذهن جراهام متاهة من الذكريات والصور المتذبذبة لقاعات مكتظة وأقبية مزدحمة شاهدها خلال سحب الغبار، والآلات المعقدة، وسرعة حركة خيوط الأنوال، والضربة الثقيلة لآلات وضع الأختام، وهدير وخشخشة الأحزمة والمحركات، والممرات الجوفية غير المضاءة كأماكن للنوم، والمشاهد اللا متناهية من الأضواء الصغيرة. هنا تشم رائحة الدباغة، وهنا تفوح رائحة مصنع الجعة، أما هنا فتفوح روائح غير مسبوقه. انتشرت في كل مكان أعمدة وأقوس متقاطعة لم يشهد جراهام مثيلاً من قبل لضخامتها؛ عمالقة سميكة من طوب لامع ناعم الملمس، سُحِقت تحت هذا الوزن الهائل لعالم المدينة المتشابك، مع انسحاق حتى هؤلاء الملايين الضعيفة من جراء تشابكها. توجد في كل مكان ملامح شاحبة، وأطراف هزيلة، وتشوه، وتدهور.

سمع جراهام مرة تلو الأخرى، ثم مرة ثالثة، أغنية الثورة خلال تفقده الطويل غير السار لهذه الأماكن؛ كما شاهد صراعاً مرتبكاً أسفل ممر، وعرف أن عددًا من هؤلاء العبيد قد استولوا على خبزهم قبل أن ينتهوا من عملهم. صعد جراهام في اتجاه الطرق مرة أخرى، ورأى عددًا من الأطفال ذوي الملابس الزرقاء يركضون في ممر مستعرض، ثم أدرك أن سبب ذعرهم يكمن في شركة تابعة لشرطة العمل مسلحة بالهراوات تهول نحو اضطرابات غير معروفة. ثم جاء اضطراب من بعيد. على أن النسبة الأكبر من البقية الذين ظلوا يعملون، واصلوا عملهم بيأس. أما كل من لا يزال يمتلك روحًا باقية داخل هذه الإنسانية الساقطة، كان في أعلى، في الشوارع، في تلك الليلة، يدعو السيد، ويحمل أسلحته ببسالة وصخب.

خرجوا من هذه الجولات ووقفوا يرمشان في الضوء الساطع لمسار المنصات الأوسط مرة أخرى. أصبحت على بينة من الصراخ والصياح البعيد لآلات أحد مكاتب الاستخبارات العامة، وفجأة ظهر رجال يركضون، والصراخ والبكاء في كل مكان على طول المنصات وحول الطرق. ثم ظهرت امرأة بوجه من الرعب الأبيض الصامت، وبعدها امرأة أخرى تلهث وتصرخ وهي تركض.

«ماذا حدث الآن؟»، سأل جراهام في حيرة؛ لأنه لم يستطع فهم حديثهم الغليظ. ثم سمعه باللغة الإنجليزية ورأى أن الشيء الذي سبب صراخ الجميع، وسبب صياح الرجال لبعضهم، وصيحات النساء، الشيء الذي كان يمر مثل أول هبة من عاصفة رعدية، برودة مفاجئة في أنحاء المدينة، هو: «أمر أوستروج الشرطة السوداء بالحضور إلى لندن. الشرطة السوداء قادمة من جنوب إفريقيا... الشرطة السوداء. الشرطة السوداء».

ظهر الشحوب والذهول على وجه أسانو. تردد، نظر إلى وجه جراهام، وأخبره الشيء الذي كان جراهام قد عرفه بالفعل. سأل أسانو: «لكن كيف يمكنهم أن يعرفوا؟».

سمع جراهام شخصًا يصيح: «توقفوا عن كل عمل. توقفوا عن كل عمل»، وجاء رجل أحذب داكن البشرة، يرتدي ملابس باللونين الأخضر والذهبي تبعث على السخرية، قافزًا عبر المنصات نحوه، ويصيح مرارًا وتكرارًا بلغة إنجليزية جيدة: «هذا من فعل أوستروج، أوستروج المخادع! هذه خيانة للسيد». كان صوته أجش، ورغوة رقيقة تسقط من فمه القبيح الصارخ. صرخ متحدثًا برعب لا يوصف عما فعلته الشرطة السوداء في باريس، ومضى صائحًا: «أوستروج المخادع!».

وقف جراهام للحظة ساكنًا؛ وتصور مرة أخرى أن هذه الأشياء مجرد حلم. نظر إلى منحدر المباني الهائل على الجانبين، متواريًا في الضباب الأزرق أخيرًا فوق الأضواء، وإلى أسفل وصولًا إلى طبقات المنصات الهادرة، والصراخ، والناس الذين يركضون صائحين: «هذه خيانة للسيد! هذه خيانة للسيد!».

وفجأة تبلور الوضع في ذهنه حقيقياً وعاجلاً. بدأ قلبه ينبض بسرعة وقوة.

قال: «لقد آن الأوان. كان يجب أن أعرف. لقد حانت الساعة».

فكر بسرعة: «ماذا يجب أن أفعل؟».

قال أسانو: «تعود إلى مقر المجلس».

-لماذا لا أناشد...؟ الناس هنا.

- ستضيّع الوقت. سيتشككون فيما إذا كنت أنت السيد. لكنهم سيتجمعون حول مقر المجلس. وهناك ستجد قاداتهم. قوتك هناك... معهم.

- لنفترض أنها مجرد إشاعة؟

قال أسانو: «يبدو الخبر صحيحًا».

فقال جراهام: «دعنا نحصل على الحقائق».

هز أسانو كتفيه. قال: «كان من الأفضل أن نتجه إلى مقر المجلس. فهم سيتجمعون هناك. الآن حتى قد يصعب المرور بين الأنقاض».

نظر إليه جراهام متشككًا، واتبعه.

صعدا المنصات المتدرجة إلى أسرع واحدة، وهناك تحدث أسانو مع أحد العمال. جاءت الإجابات على أسئلته بلغة غليظة ومبتذلة.

«ماذا قال؟»، سأل جراهام.

- لا يعرف الكثير، لكنه أخبرني أن الشرطة السوداء كانت لتصل إلى هنا قبل أن يعرف الناس، لو لم يعرف أحد في مكاتب دوائر الرياح. قال إنها فتاة.

- فتاة؟ ليس...؟

- قال إنها فتاة، لكنه لا يعرف مَنْ هي. خرجت من مقر المجلس وهي تصيح بصوت عالٍ، وأخبرت الرجال الذين يعملون بين الأنقاض.

ثم صدر صياح آخر؛ شيء حول اضطراب بلا هدف إلى حركات حاسمة، جاءت مثل الرياح على امتداد الشارع: «إلى أجنحتكم، إلى أجنحتكم. يجب أن يتسلح كل رجل. فليذهب كل رجل إلى جناحه!».

الفصل الثاني والعشرون

الصّراع في مقرّ المجلس

بينما كان أسانو وجراهام يسرعان عبر الأنقاض التي تحيط بمقر المجلس، شاهدا تزايد حماسة الناس في كل مكان. «إلى أجنحتكم! إلى أجنحتكم!». وفي كل مكان كان الرجال والنساء الذين يرتدون الملابس الزرقاء يسرعون من وظائف مجهولة تحت الأرض، إلى أعلى سلالم الطريق الأوسط. رأى جراهام في أحد الأماكن ترسانة من اللجنة الثورية يحاصرها حشد من الرجال يصرخون؛ ورأى في مكان آخر رجلين يرتديان زي شرطة العمل الأصفر المكروه، يلاحقهما حشد من المتظاهرين، يهربان بسرعة على الطريق السريع الذي يتحرك في الاتجاه المعاكس.

وها قد أصبحت صيحات «إلى أجنحتكم!» هتافاً مستمراً، وهم يقتربون من الحي الحكومي. العديد من الهتافات غير مفهومة. «لقد خاننا أوستروج»، صاح رجل بصوت أجش، مراراً وتكراراً، مُحدثاً ضجة حتى وصل الهتاف إلى أذن جراهام واستحوذ عليه. ظل هذا الشخص على مقربة من جراهام وأسانو في الطريق السريع، وهو يصيح للأشخاص الذين احتشدوا على المنصات السفلية بينما يندفع ماراً بهم. تناوب هتافه عن أوستروج مع بعض الأوامر غير المفهومة. والآن قفز إلى أسفل واختفى.

كان ذهن جراهام مليئاً بالضجيج. وكانت خططه مبهمه ولم تتشكل بعد. كان لديه تصور لموقع قيادي يمكنه مخاطبة الجموع منه، وتصور آخر لمقابلة أوستروج وجهاً لوجه. تملكه الغضب من الإثارة العضلية المتوترة؛ يقبض يديه، ويضغط على شفتيه.

كان الطريق إلى مقر المجلس عبر الأنقاض وعراً، لكن أسانو تغلب على تلك الصعوبة وأخذ جراهام إلى مقر مكتب البريد المركزي. كان مكتب البريد يعمل ظاهرياً، لكن الحماليين ذوي الملابس الزرقاء يتحركون ببطء أو يتوقفون للتحديق خلال أقواس دهاليزهم في الرجال الصارخين الذين يمرون في الخارج. «ليذهب كل رجل إلى جناحه! ليذهب كل رجل إلى جناحه!». وهنا، وفقاً لنصيحة أسانو، كشف جراهام عن هويته. عبرا إلى مقر المجلس باستخدام سلة شبكية لحبل غليظ. حدث تغيير كبير بالفعل في مظهر الأنقاض خلال هذه الفترة القصيرة منذ استسلام أعضاء المجلس. فقد أمكن السيطرة على الشلالات المتدفقة من الأنابيب المُحطمة في مياة البحر وكبح جماحها، وامتدت أنابيب ضخمة مؤقتة في أعلى على طول بنية واهية من العوارض. كانت السماء مغطاة بالأحبال والأسلاك المُرَمَّمة التي تخدم مقر المجلس؛ كما توجد كتلة من بناء جديد عليه رافعات وغيرها من آلات البناء، تتحرك جيئةً وذهاباً وتبرز من فوقها على يسار الكومة البيضاء.

أمكن أيضاً استعادة الطرق المتحركة التي كانت تمر عبر هذه المنطقة، وإن كان عندما تتحرك تحت سماء مفتوحة. كانت هذه هي الطرق التي رآها جراهام من الشرفة الصغيرة عندما استيقظ، ولم يرها ثانية منذ ذلك

الحين، أي منذ تسعة أيام. تقع القاعة التي شهدت غيوبته على الجانب الآخر، حيث تتراكم الآن أكوام قبيحة من الأبنية المُحطمة والمُبعثرة.

كان الوقت نهارًا والشمس مشرقة ببهاء. امتدت الطرق السريعة من كهوفها الطويلة ذات الضوء الكهربائي الأزرق، وازدحمت بالعديد من الناس الذين يتدفقون منها ويتجمعون بكثافة متزايدة فوق الحطام وخراب الأنقاض. امتلأ الهواء بصياحهم خلال ضغطهم وحركتهم في اتجاه المبنى المركزي. ضم الجزء الأكبر من كتلة الصباح مجموعات عديمة الشكل، لكن جراهام استطاع أن يرى هنا وهناك انضباطًا وقحًا يكافح لإثبات وجوده. طالب كل صوت بتحقيق النظام في هذه الفوضى. «إلى جناحك! كل رجل يذهب إلى جناحه!».

حملهما الحبل إلى قاعة تعرّف عليها جراهام بأنها غرفة الانتظار لقاعة الأطلس، حول الممر الذي سار فيه قبل أيام مع هاورد ليظهر أمام المجلس المنتهي، بعد ساعة من استيقاظه. أصبح المكان الآن فارغًا، باستثناء اثنين من العاملين في الأحبال. اندهش الرجلان للغاية عندما تعرفا على النائم في الرجل الذي يتأرجح في مقعد العبور.

سألهما جراهام: «أين أوستروج؟ يجب أن أرى أوستروج فورًا. لقد عصيني؛ وعُدت لأخذ المسؤولية من يديه». ودون انتظار أسانو، سار مباشرة في المكان وصعد الدرجات الموجودة في الطرف الآخر، وسحب الستارة جانبًا، ووجد نفسه في مواجهة التمثال العملاق الكادح دومًا.

كانت القاعة فارغة. تغير مظهرها كثيرًا منذ أن رآها أول مرة، فقد تعرضت لإصابات خطيرة في الصراع العنيف الذي اندلع في الثورة

الأولى. على الجانب الأيمن من التمثال العظيم، تحطم النصف العلوي من الجدار لما يقرب من مائتي قدم من طوله؛ وتحرك نحو الفجوة لوح من نفس الغطاء الزجاجي الذي أحاط بجراهام عند استيقاظه. تحطمت هذه الأشياء، لكنها لم تستبعد تمامًا هدير الناس في الخارج. كانوا يهتفون «الأجنحة! الأجنحة! الأجنحة!». رأى أيضًا عوارض ودعائم السقالات المعدنية التي ترتفع وتنخفض وفقًا لمتطلبات حشد كبير من العمال. امتدت على نحو هزيل عبر هذه الصورة الملونة بالأخضر، آلة بناء خاملة ذات أذرع رفيعة من المعدن المطلي باللون الأحمر. لا يزال هناك عدد من العمال يحدقون في الحشد أدناه. وقف جراهام للحظة ينظر إلى هذه الأشياء، ثم فاجأه أسانو.

قال أسانو: «أوستروج سيكون في المكاتب الصغيرة الموجودة هناك». بدا الرجل القصير شاحبًا الآن، وفحصت عيناه وجه جراهام.

تقدمًا بالكاد عشر خطوات من الستارة قبل أن يلتف لوح صغير إلى يسار الأطلس ويظهر أوستروج يرافقه لينكولن، ويتبعهما رجلان من السود يرتديان ملابس سوداء وصفراء. عبروا ركن القاعة البعيد متجهين نحو لوح ثانٍ مرفوع ومفتوح. صاح جراهام: «أوستروج»؛ وقد أثارت نبرة صوته اندهاش المجموعة الصغيرة. عند سماع نبرة صوته.

قال أوستروج شيئًا للينكولن، ثم تقدم بمفرده.

بدأ جراهام الحديث بصوت ديكاتوري مرتفع. سأل: «ما الذي أسمع؟ هل أحضرت الرجال السود إلى هنا... لإحباط الناس؟».

أجاب أوستروج: «ليس من السابق لأوانه. لقد أخذ الناس يخرجون عن السيطرة أكثر وأكثر، منذ الثورة. وأنا قللت من تقدير...».

- هل تعني أن هؤلاء السود الشياطين في طريقهم إلى هنا؟

- في الطريق. هذا هو الحال، هل رأيت الناس... في الخارج؟

- لا عجب! ولكن.. بعد ما قيل. لقد أخذت على عاتقك الكثير من المسؤوليات يا أوستروج.

لم يقل أوستروج شيئاً، لكنه اقترب أكثر.

قال جراهام: «يجب ألا يأتي هؤلاء السود إلى لندن. أنا السيد، ولن يأتوا».

ألقي أوستروج نظرة على لينكولن، الذي جاء نحوهما على الفور وخلفه مرافقاه عن قرب. سأل أوستروج: «ولم؟».

- يجب السيطرة على الرجال البيض عن طريق رجال بيض. إلى جانب ذلك...

- الرجال السود ليسوا إلا أداة.

- لكن هذا ليس هو الموضوع. أنا السيد. وأعني ما أقول إنني السيد. وأقول لك إن هؤلاء السود لن يأتوا.

- الناس...

- أنا أو من بالناس.

- لأن وجودك ينطوي على مفارقة تاريخية. أنت رجل من الماضي... مصادفة. ربما أنت مالك العالم -اسمياً، قانونياً- لكنك لست سيّداً. أنت لا تعرف ما يكفي لتكون سيّداً.

ألقى نظرة إلى لينكولن مرة أخرى. «أعرف الآن ما تفكر فيه.. يمكنني تخمين ما تقصد القيام به. لم يفت الأوان بعد لتحذيرك. أنت تحلم بالمساواة بين البشر.. نوع من النظام الاشتراكي.. لديك كل أحلام القرن التاسع عشر البالية، لا تزال متجددة وحية في ذهنك، وستحكم هذا العصر الذي لا تفهمه».

قال جراهام: «استمع! هل يمكنك سماع ذلك الصوت.. صوت كالبحر. ليست أصواتًا، بل صوتًا. هل تفهم ذلك جيدًا؟».

قال أوستروج: «علمناهم ذلك».

- ربما. وهل يمكنك تعليمهم نسيان ذلك؟ على أي حال، يكفي هذا! يجب ألا يأتي هؤلاء السود.

سادت لحظات صمت، ونظر أوستروج نحو عينيه.

وقال: «سيأتون».

قال جراهام: «أنا أ منع حضورهم».

- لقد تحركوا بالفعل.

- لن أقبل ذلك.

«لا»، قال أوستروج: «وآسف لأنني سأتابع أسلوب المجلس. لمصلحتك... يجب ألا تقف إلى جانب الاضطراب. والآن، بما أنك هنا... كان لطفًا منك أن تأتي إلى هنا».

وضع لينكولن يده على كتف جراهام. أدرك جراهام فجأة فداحة خطئه في المجيء إلى مقر المجلس. استدار نحو الستائر التي فصلت القاعة عن غرفة الانتظار. تدخلت يد أسانو لتمسك به. وفي اللحظة التالية أمسك لينكولن عباءة جراهام.

استدار ووجهه ضربة إلى وجه لينكولن، وأمسكه رجل أسود من ياقته وذراعه بقوة. سحب نفسه بقوة مبتعدًا، تمزق كفه بصوت عالٍ. تعثر مرة أخرى، لئلا يسقطه المرافق الآخر. اصطدم بالأرض بشدة وهو يحدق في سقف القاعة البعيد.

صاح، تدرج، كافح بشراسة، أمسك ساق أحد المرافقين وألقاه بهتور، ثم كافح ليقف على قدميه.

ظهر لينكولن أمامه. سقط جراهام بشدة مرة أخرى بضربة تحت الفك، ورقد ساكنًا. خطا جراهام خطوتين، ثم تعثر. كانت ذراع أوستروج حول رقبتة، وسحب للخلف، سقط بشدة، وذراعه مثبتان على الأرض. توقف عن المقاومة بعد بضعة جهود عنيفة، ورقد محققًا في تنهدات أوستروج. «أنت... أنت سجين»، لهث أوستروج، مبتهجًا: «أنت... أنت بالأحرى أحمق، لأنك عُدت».

أدار جراهام رأسه ورأى من خلال النافذة الخضراء غير المنتظمة في جدران القاعة أن الرجال الذين يتولون تشغيل رافعات المبنى يشيرون بحماس إلى الناس في أسفل. لقد شاهدوا ما حدث!

تبع أوستروج عينيه، ثم قال شيئًا إلى لينكولن، لكن لينكولن لم يتحرك. تحطمت رصاصة بين الزخارف المعمارية فوق الأطلس. تشققت الشريحتان الشفافتان الممتدتان عبر هذه الفجوة، واسودت حواف الفتحة الممزقة وانحنت، وسرعان ما تحركت نحو الإطار. أصبحت قاعة المجلس في لحظة مفتوحة في الهواء. هبت عاصفة باردة من الفجوة، جلبت معها ضجة الأصوات الصادرة من المساحات المدمرة

في الخارج، ضجيج جهنمي: «أنقذوا السيد!»، «ماذا يفعلون بالسيد؟»، «خانوا السيد!».

أدرك جراهام تشتت انتباه أوستروج، وتراخي قبضته. تمكن من تحرير ذراعيه، وكافح ليتمكن من التوازن. كما تمكن في اللحظة التالية، وهو يقف على قدم واحدة، من دفع أوستروج بعيداً عنه، ويده تقبض على حلق أوستروج، بينما تمسك يدا أوستروج الحرير حول رقبته.

والآن يأتي رجال نحوهم من عند المنصة... رجال أساء جراهام فهم نواياهم. لمح عن بُعد شخصاً يركض نحو ستائر غرفة الانتظار، ثم خلص أوستروج نفسه واقترب منه القادمون الجدد. ولدهشة جراهام اللانهاية، قبضوا عليه. أطاعوا صيحات أوستروج.

جروه لعشرات الياردات قبل أن يدرك أنهم ليسوا أصدقاء، وأنهم يجرونه نحو اللوح المفتوح. تراجع عندما رأى هذا، وحاول طرح نفسه أرضاً، وصاح بكل قوته طلباً للمساعدة. وجاء هذه المرة رد على الصيحات.

تراخت القبضة على رقبته؛ ويا للعجب! ظهر في الركن السفلي من الجدار المتصدع شخص واحد أولاً ثم عدد من الشخصيات السوداء الصغيرة، يصرخون ويلوحون بالأسلحة. جاءوا يقفزون من الفجوة إلى أسفل، إلى الممر المضيء الذي يؤدي إلى غرف الصمت. ركضوا على طول الممر، واقتربوا جداً إلى حد أن جراهام تمكن من رؤية الأسلحة في أيديهم. عندئذ أخذ أوستروج يصرخ في أذنه للرجال الذين احتجزوه. ومرة أخرى كان يكافح بكل قوته ضد مساعيهم لدفعه نحو الفتحة التي

اتسعت لاستقباله. قال أوستروج لاهثاً: «لا يمكنهم الهبوط. لا يجروون على إطلاق النار. كل شيء على ما يرام. سننقذه منهم في النهاية».

استمر هذا القتال الشرير لدقائق طويلة، كما بدا لجراهام. تمزقت ثيابه في العديد من المواضع، وغطاه التراب، وأُصيبت إحدى يديه. كان يسمع صيحات مؤيديه، وسمع مرة طلقات نارية. شعر بقوته تنهار، وأن جهوده جامحة وبلا هدف. لم تأتِ أي مساعدة، وبدأت تقترب -بتأكيد وبلا مقاومة- تلك الفتحة السوداء المتسعة.

تراخى الضغط عليه، وعاد للمقاومة. رأى رأس أوستروج الرمادي يتراجع، وأدرك أنه لم يعد مُحْتَجِزاً. استدار، وجد نفسه أمام رجل يرتدي ملابس سوداء. تصدع أحد الأسلحة الخضراء بالقرب منه، واندفع دخان لاذع إلى وجهه، وومض نصل فولاذي. تمتد الغرفة الضخمة حوله.

شاهد رجلاً في ملابس زرقاء باهتة يطعن أحد المرافقين الذين يرتدون ملابس سوداء وصفراء على بعد ثلاثة يارات من وجهه. ثم امتدت الأيدي نحوه مرة أخرى.

يُجَرّ في اتجاهين الآن. بدا أن الناس يصيحون له. أراد أن يفهم، ولم يستطع. أمسك شخص فخذه، ووجد أنه يُرَفَع إلى أعلى رغم جهوده القوية. فهم فجأة، وكف عن المقاومة. رفعه الرجال على أكتافهم، وابتعدوا به عن ذلك اللوح المُلتَمِّم. ارتفعت الهتافات من عشرة آلاف حنجرة.

رأى رجلاً في ملابس زرقاء وسوداء يسرعون وراء أنصار أوستروج المنسحبين، ويطلقون عليهم النار. ونظرًا لأنه كان محمولاً على الأكتاف،

تمكن الآن من رؤية امتداد القاعة كاملاً تحت صورة الأطلس، ورأى أنهم يتجهون به نحو منصة مرتفعة في وسط المكان. امتلأ بالفعل طرف القاعة البعيد بالناس الذين يركضون نحوه. كانوا ينظرون إليه ويهتفون.

أدرك أن حارساً شخصياً يحيط به. أطلق الرجال الناشطون حوله أوامر مبهمة. ورأى بالقرب منه ذلك الرجل الأسود بملابسه الصفراء -الذي كان من بين الذين استقبلوه في المسرح العام- وهو يصيح مطلقاً الأوامر. اكتظت القاعة بالفعل بالناس، وترهل الممر المعدني الصغير مع الحمولة الصارخة، وتمزقت الستائر المعلقة في طرف القاعة كاشفة عن ازدحام غرفة الانتظار. استطاع بالكاد أن يجعل الرجل القريب منه يسمع سؤاله، رغم الجلبة حولهم: «أين ذهب أوستروج؟».

من فوق الرؤوس، أشار الرجل الذي سألته نحو الألواح السفلية المحيطة بالقاعة، على الجانب المقابل للفجوة. كانت الألواح مفتوحة، والرجال المسلحون يركضون خلالها، في ملابسهم الزرقاء وشاراتهم السوداء، ويختفون في الغرف والممرات خلفها. بدا لجراهام أن صوت إطلاق النار يتدفق خلال العصيان. حملوه في منحنى مذهل عبر القاعة الكبرى نحو فتحة تحت الفجوة.

شاهد رجالاً يعملون بنوع من الانضباط الوقح لإبعاد الحشد عنه، وإفساح المجال أمامه. خرج من القاعة، وشاهد جداراً بدايئاً جديداً يرتفع بوضوح أمامه وتعلوه سماء زرقاء. أنزلوه متمائلاً على قدميه. أمسك شخص ذراعه ووجهه. وجد الرجل ذا الملابس الصفراء قريباً منه. كانوا يأخذونه إلى سلم ضيق من الطوب. ارتفعت على مقربة منه الكتل الهائلة

المطلية باللون الأحمر، الرافعات والعتلات، والمحركات الثابتة لآلة البناء الكبيرة.

وصل إلى قمة السلم. أسرعوا به عبر ممشى ضيق يمتد على جانبيه درابزين، ثم سمع هتافاً عالياً وانفتح أمامه ثانية فجأة المسرح المدرج المملوء بالأنقاض. «السيد معنا! السيد! السيد!». اجتاحت الصرخة بحيرة الوجوه مثل موجة، وتحطمت على جرف الأنقاض البعيد، ثم عادت في كتلة من الصيحات: «السيد في صفنا!».

أدرك جراهام أنه لم يعد مُحاطاً بالناس، وأنه يقف على منصة صغيرة مؤقتة من معدن أبيض، وهي جزء من سقالة واهية ترتبط بكتلة مقر المجلس الضخمة. تمايل ودار الناس صائحين على امتداد الأنقاض الهائل؛ وررفت هنا وهناك متمائلة اللافتات السوداء التابعة للجمعيات الثورية، وشكلت نواة استثنائية للتنظيم في ظل الفوضى. تجمع حشد ضخم أعلى سلالم الجدار شديدة الانحدار والسقالة التي أوصلت الرجال الذين أنقذوه إلى الفتحة في غرفة الأطلس؛ واجتهد عدد قليل من الشخصيات السوداء النشطة، المتشبهين بالأعمدة والبروزات، لحث هذه الجماهير المزدحمة على التحرك. وخلفه -عند نقطة أعلى على السقالة- كافح عدد من الرجال صعوداً مع الطيات المرفرفة لراية سوداء ضخمة. كان بإمكانه النظر إلى أسفل خلال الفجوة المفتوحة في الجدران تحته، ورؤية الجموع المهمة التي تتزاحم في قاعة الأطلس. ظهرت منصات الطيران البعيدة في الجنوب مشرقة وحية، وبدت أقرب خلال شفافية الهواء غير العادية. اندفعت طائرة منفردة أحادية السطح من المحطة المركزية، كأنما لتلتقي بالطائرات القادمة.

سأل جراهام: «ماذا حدث لأوستروج؟». وبينما كان يتحدث، رأى أن جميع الأعين تحولت من النظر إليه نحو قمة مبنى المجلس. وجّه بصره أيضًا إلى هذا الاتجاه الذي يستأثر باهتمام الجميع. لم يرَ أي شيء لعدة لحظات إلا ركنًا خشنًا من جدار، ثابتًا وواضحًا في مواجهة السماء. ثم لاحظ في الظل الجزء الداخلي من غرفة، وتمكن من التعرف بداية على الزخارف الخضراء والبيضاء لسجنه السابق. جاء مسرعًا - عبر هذه الغرفة المفتوحة، وصولًا إلى حافة هاوية الانقراض - شخص قصير يرتدي ملابس بيضاء ويتبعه شخصان آخران أقصر منه يرتديان ملابس سوداء وصفراء. سمع الرجل الواقف بجانبه يهتف «أوستروج»، فالتفت لتوجيه سؤال. لكنه لم يوجه سؤاله بسبب صيحة ذهول أطلقها شخص آخر من بين الذين كانوا معه، وإشارة من أصبع نحيل فجأة. توجه ببصره، ونظر! رأى أن الطائرة الأحادية - التي ارتفعت من منصة الطيران عندما نظر مؤخرًا في هذا الاتجاه - كانت تتجه نحوهم. كما كان طيرانها السريع المطرد ثابتة جديدًا بما يكفي لجذب انتباهه.

سرعان ما أخذت تبدو أكبر حجمًا مع اقترابها، إلى أن اجتاحت أبعد حافة من الانقراض، على مرأى من الجموع الكثيفة أدناه. مالت في الفضاء وارتفعت ثم طارت فوقهم، مرتفعة لمسح كتلة مقر المجلس؛ وكانت ذات شكل شفاف رقيق، يطل طيار منفرد خلال دعاماتها. اختفت خلف مشهد الانقراض.

نقل جراهام انتباهه إلى أوستروج. كان يشير بيديه، ومراقبوه منشغلون في تحطيم الجدار المجاور له. ظهرت الطائرة الأحادية على مرمى البصر مرة أخرى بعد لحظات؛ بدت كشيء صغير بعيد، تحلق في منحني واسع وتتحرك بسرعة أبطأ.

وفجأة صاح الرجل ذو الملابس الصفراء: «ماذا يفعلون؟ ماذا يفعل الناس؟ لماذا تُرك أوستروج هناك؟ لماذا لم يُقبَض عليه؟ سيرفعونه... الطائرة الأحادية سترفعه! آها!».

تردد صدى الصيحة من بين الأنقاض. انجرف صوت قعقعة الأسلحة الخضراء عبر الهاوية الفاصلة ووصل إلى جراهام، الذي رأى -عندما نظر إلى أسفل- عددًا من أصحاب الزي الأسود والأصفر يركضون على طول أحد الممرات المفتوحة في الهواء تحت التواء الذي يقف عليه أوستروج. أطلقوا النار وهم يركضون نحو رجال غير مرئيين، ثم ظهر عدد من الأشخاص بملابسهم الزرقاء الباهتة في المطاردة. وكان لهؤلاء الأشخاص المقاتلين الصغار أغرب الأثر؛ بدا كأنهم يركضون مثل نماذج صغيرة لجنود في لعبة. أضفى هذا المظهر الغريب لمبنى محطم مكشوف، نوعًا من عدم الواقعية على هذا الكفاح وسط الأثاث والممرات. ربما كان على بُعد مائتي ياردة منه، وما يقرب من خمسين ياردة فوق الرؤوس في الأنقاض أدناه. ركض الرجلان في الملابس السوداء والصفراء داخل قوس مفتوح، ثم استدارا وأطلقا وإبلاً من الرصاص. تقدم أحد المطاردين بالزي الأزرق إلى الأمام بالقرب من الحافة، فتح ذراعيه وقفز، ترنح على الجانبين؛ بدا لجراهام أنه تعلق على الحافة لعدة ثوان، ثم سقط على الفور. رآه جراهام وهو يصطدم بركن ناتئ، ثم يطير منقلبًا، رأسًا على عقب، ويختفي خلف ذراع آلة البناء الأحمر.

ثم جاء ظل بين جراهام والشمس. نظر إلى أعلى وكانت السماء صافية، لكنه يعرف أن الطائرة الأحادية الصغيرة قد مضت. اختفى أوستروج. كان الرجل ذو الزي الأصفر يندفع أمامه، متحمسًا ومتعرقًا، وهو يشير ويصيح.

قال: «إنهم يهبطون! إنهم يهبطون. قل للناس أن يطلقوا النار عليه. قل لهم أن يطلقوا النار عليه!».

لم يفهم جراهام. سمع أصواتًا عالية تكرر هذه الأوامر المبهمة. وفجأة رأى مقدمة الطائرة الأحادية تنزلق على حافة الانقراض وتتوقف مهتزة. فهم جراهام في لحظة أن الطائرة هبطت لكي يستخدمها أوستروج في الهرب. رأى ضبابًا أزرق يتصاعد من الهاوية، وأدرك أن الأشخاص الموجودين في أسفل يطلقون النار الآن على الجزء البارز من هيكل الطائرة.

هتف رجل بجانبه بصوت أجش؛ نظر جراهام ورأى أن المتمردين ذوي الملابس الزرقاء قد فازوا بالمر المقوس الذي كان محل نزاع قبل لحظات بينهم وبين الرجال ذوي الملابس السوداء والصفراء، وأخذوا يركضون في تيار مستمر على طول الممر المفتوح.

وفجأة انزلقت الطائرة الأحادية على حافة مبنى المجلس، وسقطت مثل طائر سنونو يغوص. انخفضت مائلة بزاوية ٤٥ درجة، انخفاضًا حادًا لدرجة أنه بدا جراهام -وربما لمعظم من هم في أسفل - أنها لا يمكن أن ترتفع مرة أخرى.

سقطت بالقرب منه بحيث تمكن من رؤية أوستروج وهو يمسك بأدوات توجيه المقعد، وشعره الرمادي يتدفق؛ ورؤية الطيار أبيض الوجه وهو يسحب الرافعة التي قلبت الآلة إلى أعلى. سمع صرخة غامضة متخوفة من عدد لا يحصى من الرجال أدناه.

أمسك جراهام الدرابزين أمامه وهو يشهق. بدت الثواني كأنها عُمر

كامل. تحركت ريشة المروحة السفلية للطائرة وكادت أن تمس الناس، الذين تصايحوا وصرخوا وداسوا بعضهم أدناه.

ثم ارتفعت الطائرة.

بدا للحظة كأنها لا يمكن أن تقفز إلى الجرف المقابل، وبالتالي لا يمكنها عبور دوار الرياح التي تدور خلف الجرف.

ياااااه! كانت واضحة ومُحلقة، لا تزال تتأرجح بانحراف، تصعد، تصعد إلى السماء التي اجتاحتها الرياح.

تحول القلق إلى غضب ساخط، عندما أدرك المحتشدون أن أوستروج نجا منهم. استعادوا نشاطهم وأخذوا يطلقون نيرانهم مرة أخرى، إلى أن تحولت القعقة إلى هدير وأصبحت المنطقة بأكملها قاتمة وزرقاء، وأصبح الهواء الرقيق مُحَمَّلًا بدخان أسلحتهم.

فات الألوان! بدأ حجم آلة الطيران يتضاءل مع ابتعادها، دارت في منحني واتجهت برشاقة إلى أسفل، إلى منصة الطيران التي سبق وأن طارت من فوقها مؤخرًا. هرب أوستروج.

استمرت ثرثرة مضطربة تتصاعد لفترة من الانقراض، ثم استعاد جراهام انتباهه بالكامل وهو يجلس عاليًا بين السقالات. رأى وجوه الناس تتجه نحوه، وسمع صيحاتهم لنجاته. ارتفعت من الطرق أغنية الثورة، تنتشر كالنسيم فوق ذلك البحر المتمايل من الرجال.

هتفت مجموعة الرجال الصغيرة الملتفة حوله مهتة بهروبه. كان الرجل ذو الزي الأصفر قريبًا منه، بوجه ثابت وعينين لامعتين. ارتفعت صوت الأغنية أعلى وأعلى. تراك، تراك، تراك، تراك.

أخذ جراهام يدرك ببطء معنى هذه الأشياء بالكامل، والتغيير السريع في موقعه. أوستروج، الذي كان يقف بجانبه كلما واجه هذا الصباح من قبل، أصبح في الخلف... كان هو الخصم. لم يعد هناك من يحكم بدلاً منه الآن. تطلع إليه الناس حتى من يحيطون به، وقادة الحشود ومنظموهم، لرؤية ما سيفعله، تطلعوا إليه للتصرف، وانتظروا أوامره. أصبح ملكًا بالفعل، وانتهى عهد الحاكم الدمية.

كان عازمًا على القيام بالشيء المتوقع منه. كانت أعصابه وعضلاته ترتجف، وربما ارتبك عقله قليلًا، لكنه لم يشعر بالخوف ولا بالغضب. خفقت يده المصابة، وكانت ساخنة. شعر ببعض التوتر تجاه مسؤوليته. يعرف أنه ليس خائفًا، لكنه حرص على ألا يبدو خائفًا. في حياته السابقة كان في كثير من الأحيان أكثر حماسًا في ممارسة ألعاب المهارة. كان يرغب في اتخاذ إجراء فوري، لكنه يعرف أنه يجب ألا يفكر كثيرًا في تفاصيل التعقيد الهائل للصراع حوله خشية أن يصيبه الشعور بتعقيداته بالشلل. كانت تلك الأشكال الزرقاء المربعة هناك، منصات الطيران، تمثل أهمية لأوستروج؛ والآن في مواجهة أوستروج، الذي كان واضحًا ومحددًا وحاسمًا، يقف هو بمشاعره الغامضة والمتردة ليقاوم من أجل مستقبل العالم بأسره.



الفصل الثالث والعشرون

جراهام يلقي كلمته

لفترة من الوقت لم يكن سيد الأرض سيدًا حتى لعقله. حتى إرادته بدت ليست إرادته، فقد فاجأته أفعاله الخاصة، ولم تكن إلا جزءًا من التشوش الناتج عن التجارب الغريبة التي تدفقت عبر كيانه. هناك أشياء محددة؛ السود قادمون، حذرت هيلين وُوتون الناس من قدومهم، وهو سيد الأرض. بدت كل من هذه الحقائق تكافح للاستحواذ على أفكاره بالكامل. وقد برزت على خلفية القاعات المزدحمة، والممرات المرتفعة، والغرف المكتظة بقيادة الأجنحة في المجلس، وغرف التصوير الحركي والهاتف، والنوافذ التي تطل على بحر من الرجال السائرين. كان الرجال الذين يرتدون ملابس صفراء، والرجال الذين توهم أنهم يُسمون قادة الأجنحة، إما يدفعونه إلى الأمام وإما يتبعونه بطاعة.. يصعب معرفة ذلك. ربما القليل من الحاليتين. ربما دفعتهم جميعًا قوة خفية وغير متوقَّعة. يعرف أنه على وشك الإدلاء بكلمة لشعب الأرض، ويعرف بعض العبارات الفخمة التي تطفو في ذهنه بوصفها الشيء الذي يقصد قوله. حدثت أشياء صغيرة كثيرة، ثم وجد نفسه مع الرجل ذي الملابس الصفراء يدخلان غرفة صغيرة حيث سيلقي كلمته.

كانت هذه الغرفة مطابقة للعصر من حيث تجهيزاتها. يوجد في الوسط شكل بيضاوي لامع، مضاء بأضواء كهربائية مظلمة من أعلى، بينما كانت بقية الغرفة في الظل. وتحقق سكون الغرفة تمامًا عن طريق الأبواب المزدوجة المناسبة بدقة، التي دخل منها وهو قادم من قاعة الأطلس المزدحمة. شعر جراهام بتأثير غريب ناجم عن الصمت المطبق عندما أغلقوا الباب خلفه، والتوقف المفاجئ للاضطراب الذي عاشه لساعات، ودائرة الضوء المرتعشة، والهمسات والحركات السريعة الصامتة للحاضرين المرئيين بصعوبة في الظلال. كانت مجموعة الأذان الهائلة لآلية الفونوجراف مفتوحة بالكامل لكلماته، كما كانت الأعين السوداء للكاميرات الفوتوجرافية الكبيرة في انتظار بدايته، خلف قضبان معدنية ولفائف تلمع بشكل خافت، وشيء يدور بهمهمة طنين. دخل إلى مركز الضوء، وأخذ ظله يتراكم بحدة وباللون الأسود إلى أن أصبح بقعة صغيرة عند قدميه.

كان الشكل الغامض للشيء الذي يقصد قوله في ذهنه بالفعل. لكنه لم يتوقع هذا الصمت، وهذه العزلة، والانسحاب من ذلك الحشد المُعدي، وهذا الحشد من الآلات الضخمة اللامعة. بدا أن جميع دعائمه انسحب معًا؛ شعر أنه سقط هنا فجأة، وأنه اكتشف نفسه فجأة. تغير في لحظة. اكتشف أنه يخشى الآن ألا يكون لائقًا، ويخشى أن يكون مسرحيًا، ويخشى من جودة صوته، ونوعية ذكائه. التفت مندهشًا إلى الرجل بالزي الأصفر بلفتة استرضائية. قال: «سأنتظر لحظات. لم أعتقد أن الوضع سيكون على هذا النحو. يجب أن أفكر فيما سأقوله».

وبينما لا يزال مترددًا، جاء رسول غاضب يحمل أنباء عن أن طائرات متقدمة تحلق فوق مدريد.

سأل جراهام: «ما أخبار منصات الطيران؟».

-سكان أجنحة الجنوب الغربي جاهزون.

-جاهزون!

التفت ثانية بنفاد صبر إلى الدوائر الفارغة في العدسات.

-أعتقد أنه يجب الإدلاء بخطاب من نوع ما. يا إلهي! عرفت بالتأكيد

ماذا يجب أن يُقال! الطائرات في مدريد! لا بد أنهم بدأوا قبل الأسطول الرئيس.

ثم أضاف: «أوه! ماذا يهم إن تحدثت بشكل جيد أو سيئ»، وشعر أن الضوء يزداد لمعاناً.

صاغ عبارة غامضة من المشاعر الديموقراطية، عندما غمرته الشكوك فجأة. فقد اقتناعه المؤكد بسماته البطولية ودعوته، وحلت محلها صورة عبثية عديمة الجدوى في امتداد عاصف لمصائر مبهمة. وفجأة اتضح له بجلاء أن هذه الثورة -ضد أوستروج- كانت سابقة لأوانها، ومقدر لها الفشل، نبضة الضعف العاطفي في مواجهة أشياء حتمية. فكّر في سرعة تلك الطائرات مثل انقضااض القدر نحوه. اندهش لأنه كان بإمكانه رؤية الأشياء في أي ضوء آخر. وفي حالة الطوارئ الأخيرة هذه، ناقش ودفع النقاش جانباً بحزم، وصمم بأي ثمن على المضي في العمل الذي اضطلع به. لم يجد كلمة ليبدأ. وحتى وهو يقف مُربكاً ومتردداً، يرتجف على شفتيه اعتذار أحرق عن عجزه، سمع ضجيج العديد من الناس وهم يصرخون ويركضون جيئةً وذهاباً. «انتظر»، صاح شخص، وفتح باب. استدار جراهام، وتضاءلت أضواء المشاهدة.

رأى خلال المدخل المفتوح فتاة نحيلة تقترب. قفز قلبه. كانت هيلين ووتون. خرج الرجل ذو الزي الأصفر من الظلال القريبة إلى دائرة الضوء. قال: «هذه هي الفتاة التي أخبرتنا بما فعله أوستروج».

دخلت في هدوء شديد، ووقفت ساكنة، كما لو أنها لا تريد مقاطعة كلام جراهام.. لكن شكوكه وتساؤلاته هربت قبل حضورها. تذكر الأشياء التي يريد قولها. واجه الكاميرات مرة أخرى، وازداد الضوء لمعاناً حوله. استدار نحوها.

«لقد ساعدتني»، قال بلطف، «ساعدتني كثيراً.. وهذا صعب للغاية». توقف. خاطب الجمع غير المرئي الذي حلق نحوه خلال تلك الأعين السوداء البشعة. تحدث ببطء في البداية.

قال: «يا رجال العصر الحديث ونساءه؛ لقد نهضتم لخوض معركة من أجل العرق! ليس أمامنا نصر سهل».

توقف لجمع كلماته. وتمنى بشغف امتلاك موهبة الخطابة المؤثرة. قال: «الليلة هي البداية. هذه المعركة القادمة، هذه المعركة التي تندفع نحونا الليلة، ليست إلا بداية. يجب أن تقاتلوا، ربما، بحياتكم كلها. لا تفكروا حتى لو أنني تعرضت للضرب، حتى لو أطيح بي تماماً. وأعتقد أنه قد يُطاح بي».

وجد أن الشيء الذي في ذهنه يصعب -لغموضه- وضعه في كلمات. توقف لبرهة، ثم شرع في مواعظ مبهمة، وبعدها اندفع في الكلام. لم يكن الكثير مما قاله إلا أموراً إنسانية مألوفة لعصر اختفى، لكن الاقتناع في صوته أضفى عليه لمسة حيوية. تحدث عن وضع العصر القديم إلى شعب

العصر الحديث، إلى الفتاة التي تقف بجواره.

قال: «لقد جئت إليكم من الماضي، بذكرى عصر كان يأمل. كان عصري هو عصر الأحلام.. عصر البدايات، عصر الآمال النبيلة؛ وفي جميع أنحاء العالم، وضعنا حدًا للعبودية؛ أنهينا العبودية في أنحاء العالم كافة؛ ونشرنا في أنحاء العالم كافة رغبتنا وتوقعنا أن تتوقف الحروب، وأن يعيش جميع الرجال والنساء بكرامة، في حرية وسلام.. هذا ما كنا نأمله في العصر الماضي. ماذا عن تلك الآمال؟ ما حال الإنسان بعد مائتي عام؟ «مدن عظيمة، قوى هائلة، عظمة جماعية تفوق أحلامنا. لم نعمل من أجل ذلك، لكن هذا ما حدث. وماذا عن أوضاع حياة البشر الذين يشكلون هذه الحياة الأعظم؟ ما أوضاع حياة البشر العاديين؟ إنها كما كان الوضع دومًا.. الحزن والعمل، حياة مُقيدة وغير متحققة، حياة تغريها السلطة، وتغريها الثروة، حياة تذهب سُدى وبحماقة. لقد تلاشت المعتقدات القديمة وتغيرت؛ المعتقد الجديد.. هل هناك معتقد جديد؟

«الصدقة والرحمة»، قال مرتبًا؛ «الجمال وحب الأشياء الجميلة.. الجهد والتفاني! ضحوا بأنفسكم كما سأضحى بنفسي.. كما ضحَّى المسيح بنفسه على الصليب. لا يهم إن كنتم تفهمون. لا يهم إن بدا أنكم فشلتم. أنتم تعرفون.. في صميم قلوبكم تعرفون. لا يوجد وعد، لا يوجد أمن.. لا يوجد شيء يمكن الاعتماد عليه إلا الإيمان. لا يوجد إيمان إلا الإيمان-الإيمان الذي هو شجاعة...».

لقد وجد أنه يؤمن بالأشياء التي كان يرغب منذ فترة طويلة في الإيمان بها. تحدث بحماس في جمل متقطعة غير مكتملة، لكنها من كل

قلبه وبكل قوته، عن هذا الإيمان الجديد بداخله. تحدث عن عظمة إنكار الذات، وإيمانه بحياة خالدة للبشرية، نوجد ونعيش ونتحرك فيها. كان صوته يرتفع وينخفض، واهتزت أجهزة التسجيل وهو يتحدث، شاهده الحاضرون وهم يختفون في الظل..

تعزز صدقه مع إحساسه بوجود هذه المتفرجة الصامتة بجانبه. أثار الحماس لبضع لحظات مجيدة. لم يشعر بأي شك في صفاته البطولية، ولا في كلماته البطولية، كان كل شيء مباشرًا وواضحًا. لم تعد بلاغته عرجاء. وأخيرًا أنهى حديثه صائحًا: «هنا والآن، أنا أصنع إرادتي. كل ما أملكه في العالم أعطيه لشعوب العالم. كل ما أملكه في العالم أعطيه لشعوب العالم. لكم جميعًا. أعطيه لكم، وأعطيكم نفسي. وكما يشاء الرب الليلة، إما سأعيش من أجلكم، أو سأموت».

ختم حديثه. وجد ضوء تمجيده الحالي منعكسًا في وجه الفتاة. التقت أعينهما؛ كانت عيناها تسبحان في دموع الحماس.

قالت هامسة: «كنت أعرف. أوه! أبو العالم.. سيدي! كنت أعرف أنك ستقول هذه الأشياء».

«لقد قلت ما بوسعي»، أجابها بضعف، ثم أمسك بيديها الممدودتين متشبثًا.



الفصل الرابع والعشرون

بينما كانت الطائرات قادمة

كان الرجل ذو الزي الأصفر بجانبهما. لم يلحظ أيُّ منهما مجيئه. كان يقول إن الأجنحة الجنوبية الغربية تسير. ثم صاح: «لم أكن أتوقع ذلك بهذه السرعة. لقد فعلوا العجائب. يجب أن ترسل إليهم كلمة لمساعدتهم في طريقهم».

نظر نحوه جراهام وهو شارد الذهن. ثم عاد إلى انشغاله السابق بمنصات الطيران.

قال: «نعم، هذا جيد، هذا جيد». كان يفكر مليًا في الرسالة. «قل لهم... أحسستم صنعًا في الجنوب الغربي».

أدار عينيه إلى هيلين ووتون مرة أخرى. كان وجهه يُعبر عن صراعه بين الأفكار المتضاربة. أوضح قائلاً: «يجب أن نضع أيدينا على منصات الطيران. وما لم تتمكن من ذلك، سيهبط عليها السود. علينا أن نحول دون حدوث ذلك بأي ثمن».

شعر -حتى وهو يتحدث- أن هذا لم يكن في ذهنه قبل المقاطعة. رأى لمحة اندهاش في عينيها. بدت على وشك الكلام، لكن جرسًا حادًا أغرق صوتها.

خطر على بال جراهام أنها توقعت منه أن يقود مسيرة هؤلاء الناس، وأن هذا هو الشيء الذي يجب أن يقوم به. طرح الفكرة فجأة. وجه حديثه إلى الرجل في الزي الأصفر، لكنه كان يخاطبها. رأى وجهها يستجيب. قال: «أنا لا أفعل أي شيء هنا».

احتج الرجل ذو الزي الأصفر: «هذا مستحيل. إنه قتال في متاهة من الممرات المتشابكة. مكانك هنا».

أوضح بإسهاب؛ ثم أشار إلى الغرفة التي يجب أن ينتظر فيها جراهام، مُصرّاً على عدم وجود أي مسار آخر ممكن. قال: «يجب أن نعرف أين أنت. ففي أي لحظة قد تنشأ أزمة تحتاج إلى وجودك وقرارك».

طافت في ذهنه صورة لمثل هذا الصراع الدرامي الهائل، كما أوحى الجماهير المتجمعة عند الأنقاض. لكن هنا لا يوجد ميدان معركة مذهل كما يتصور، بل توجد بالأحرى عزلة.. وقلق. لم يتمكن -إلا في فترة بعد الظهر- من الإلمام بصورة أكثر صدقاً للقتال الذي كان مستعراً، على نحو غير مسموع وغير مرئي، على بُعد أربعة أميال منه، تحت منصة روهامبتون. كانت معركة غريبة وغير مسبوقة، معركة عبارة عن مائة ألف معركة صغيرة، معركة في متاهة من الطرق والقنوات، تُخاض تحت الوهج الكهربائي بعيداً عن السماء أو الشمس، تخوضها في ارتباك كبير جموع غير مدربة على الأسلحة، تقودها الهتافات بشكل رئيس؛ جموع بليدة من عمال حمقى أرهقتها تقاليد مائتي عام من الأمن الذليل ضد جموع أحبطتها حياة الامتياز العارض والانغماس الحسية. لم يكن لديهم مدفعية، ولا تمايز بين هذه القوة أو تلك. وكان السلاح الوحيد

لدى الجانبين هو البندقية المعدنية الخضراء الصغيرة، التي كان تصنيعها السري وتوزيعها المفاجئ بكميات هائلة أحد تحركات أوستروج التي بلغت ذروتها في مواجهة المجلس. قليلون هم من كانت لديهم أي خبرة بهذا السلاح، وكثيرون لم يستخدموه أبدًا، وكثيرون ممن حملوه جاءوا من دون ذخيرة. لم يحدث مطلقًا في تاريخ الحرب تراشق بالنيران أكثر وحشية. كانت معركة هواة، حربًا تجريبية بشعة؛ متمردون مسلحون يقاتلون متمردين مسلحين، متمردون مسلحون تحركهم كلمات أغنية وغضبها، يحركهم تعاطف وقع أقدام أعدادهم، يتدفقون بآلاف لا تُعد ولا تُحصى نحو الطرق الأصغر، والمصاعد المعوقة، والممرات الزلقة بالدم، والقاعات والمسارات المختنقة بالدخان، أسفل منصات الطيران، لتتعلم هناك الألغاز القديمة في الحرب عندما يصبح التراجع ميؤوسًا منه. كان النهار صافياً رائعاً في أعلى، باستثناء عدد قليل من القناصة فوق مساحات الأسطح وقليل من خطوط وخيوط البخار التي تتكاثر وتزداد عتمة مع اقتراب المساء. ويبدو أن أوستروج لم تكن في حوزته قنابل، ولم تضطلع آلات الطيران بأي دور في جميع المراحل السابقة من المعركة. لم تكن هناك حتى أصغر سحابة لكسر تألق السماء الفارغ؛ كأنما تركت نفسها فارغة إلى أن تأتي الطائرات.

وردت تكرارًا ومرارًا أخبار تلك المسيرة التي تقترب قادمة من المدينة الإسبانية، ثم الآن من فرنسا. أما عن البنادق الجديدة التي صنعها أوستروج ومن المعروف أنها في المدينة، فلم ترد أي أخبار عنها على الرغم من إلحاح جراهم، كما لم ترد أي تقارير عن نجاحات تحققت في خطوط القتال الكثيفة حول منصات الطيران. أفاد قسم بعد قسم من الجمعيات

العملالية أنهم تجمعوا وخرجوا في مسيرة، إلا أن أخبارهم انقطعت بعد دخولهم إلى متاهة تلك الحرب. ماذا يحدث هناك؟ لا يعرف حتى قادة الأجنحة المشغولون. وعلى الرغم من فتح الأبواب وإغلاقها، والمبعوثين المُسرعين، وقرع الأجراس، والدققة الدائمة لأدوات التسجيل، فقد شعر جراهام أنه معزول وغير فعال بشكل غريب وعديم التأثير.

بدأت عزلته في بعض الأحيان أكثر الأشياء غرابة وعدم توقع من بين كل ما حدث منذ استيقاظه. كانت تضم شيئاً من نوعية ذلك الخمول الذي يأتي في الأحلام. الاضطراب، والإدراك المذهل لوجود صراع عالمي بينه وبين أوستروج، ثم هذه الغرفة الصغيرة الهادئة الضيقة بأبوابها، وأجراسها، والمرأة المكسورة!

سيُغلق الباب الآن ويبقى جراهام وهيلين وحدهما معاً. كانا منفصلين تماماً عن تلك العاصفة العالمية غير المسبوقة التي اندفعت في الخارج، ويعي كل منهما الآخر بوضوح، ولا يُعنى كل منهما إلا بالآخر. ثم انفتح الباب مرة أخرى. سيدخل الرُّسل، أو يطعن الجرس الحاد خصوصيتهما الهادئة. كان مثل نافذة في منزل جيد البناء وإضاءته زاهية، انفتحت فجأة على إعصار. اندفعت باكتساح هرولة الظلام والاضطراب، فضلاً عن توتر المعركة وعنفها. لم يعودا أشخاصاً، بل متفرجين، مجرد انطباعات عن اضطراب جبار. أصبحا غير واقعيين حتى لأنفسهم، مجرد شخصيات مصغرة، صغيرة بشكل يتعذر وصفه؛ أما الواقع الوحيد فكان حقيقتين متضادتين، حقيقتين وحيدتين في الوجود: تتمثل أولاهما في المدينة التي تهتز وتهدر في جنون دفاعي متأخر، وتتمثل الثانية في الطائرات التي تندفع بلا هوادة نحوهم فوق حافة العالم المستديرة.

حدثت ضجة مفاجئة في الخارج، ركض جيئةً وذهاباً، وصراخ.
وقفت الفتاة عاجزة عن الكلام، ومتشككة.

كانت الأصوات المعدنية تصرخ: «النصر!»، نعم كانت «النصر!».
ظهر الرجل ذو الزي الأصفر مندفعاً خلال الستائر، مذهولاً أشعث
منفعلاً، وصاح: «النصر، النصر! الشعب ينتصر. انهار رجال أوستروج».
نهضت: «النصر؟».

سأله جراهام: «ماذا تعني؟ أخبرني! ماذا؟».
- لقد طردناهم من الممرات السفلية في نوروود؛ وستريثهام مشتعلة
وتحترق بعنف، وروهامبتون أصبحت لنا.. لنا... وقد استولينا على الطائرة
أحادية السطح التي توجد هناك.

رن جرس حاد. ظهر رجل منفل، خط الشيب رأسه، من غرفة قادة
الأجنحة. صاح: «لقد انتهى كل شيء».

-ماذا يهم الآن بعد أن حصلنا على روهامبتون؟ وقد شوهدت
الطائرات في بولوني!

«القناة!»، قال الرجل ذو الزي الأصفر. ثم أضاف بعد أن حسب
بسرعة: «نصف ساعة».

قال الرجل العجوز: «لا يزال لديهم ثلاث منصات للطيران».

صاح جراهام: «تلك الأسلحة؟».

- لا يمكننا تركيها في نصف ساعة.

- هل تعني أنكم عثرتم عليها؟

قال العجوز: «فات الأوان».

صاح الرجل ذو الزي الأصفر: «إذا استطعنا إيقافهم ساعة أخرى!».
قال العجوز: «لا شيء يمكن أن يوقفهم الآن. لديهم ما يقرب من مائة
طائرة في الأسطول الأول».

«ساعة أخرى؟»، سأل جراهام.

أجاب قائد الأجنحة: «حتى نصبح قريبين جدًا! والآن بعد أن وجدنا
تلك الأسلحة. لكي نصبح قريبين جدًا... لو أمكننا إخراجهم لمرة واحدة
من مساحة السطح».

«كم من الوقت سيستغرق ذلك؟»، سأل جراهام فجأة.

- ساعة... بالتأكيد.

«بعد فوات الأوان»، صاح قائد الجناح، «بعد فوات الأوان».

«هل فات الأوان؟»، قال جراهام. «الآن حتى... ساعة!».

أدرك فجأة وجود إمكانية. حاول التحدث بهدوء، لكن وجهه كان
شاحبًا. قال: «هناك فرصة. قلت توجد طائرة أحادية السطح؟».

- على منصة روهامبتون يا سيدي.

- مُحطمة؟

- لا. بل توجد عند مفترق الطرق في اتجاه حاملة الطائرات. يمكن
وضع أدوات التوجيه بسهولة.. ولكن ليس لدينا أي طيار..

نظر جراهام إلى الرجلين ثم إلى هيلين. تحدث بعد فترة صمت
طويلة: «ليس لدينا أي طيار؟».

- ولا أي طيار!

التفت فجأة إلى هيلين. اتخذ قراره: «يجب أن أفعل ذلك».

- تفعل ماذا؟

- أذهب إلى منصة الطيران هذه... إلى هذه الآلة.

- ماذا تعني؟

- أنا طيار. وفي النهاية... تلك الأيام التي وبختني فيها، لم تكن مهدرة تمامًا.

التفت إلى الرجل العجوز في الزي الأصفر: «قل لهم أعدوا أدوات التوجيه في الآلة».

تردد الرجل ذو الزي الأصفر.

صاحت هيلين: «ماذا تريد أن تفعل؟».

- هذه الطائرة أحادية السطح.. إنها فرصة...

- أنت لا تعني...

- أن أقاتل... نعم. القتال في الهواء. لقد فكرت من قبل... الطائرة الكبيرة شيء أخرق. الرجل الحازم...

صاح الرجل ذو الزي الأصفر: «ولكن.. لم يحدث أبدًا منذ أن بدأ الطيران...».

- لم تكن هناك حاجة. لكن... حان الوقت الآن. أخبرهم الآن... ابعث إليهم رسالتي.. كي يقوموا بتجهيز أدوات التوجيه. أرى الآن شيئًا أفعله. وأعرف الآن لماذا أنا هنا!

استفهم العجوز بغباء، وأومأ الرجل ذو الزي الأصفر وأسرع خارجًا.

تحركت هيلين خطوة نحو جراهام. كان وجهها شاحبًا: «ولكن يا سيدي.. كيف يقاتل المرء؟ ستقتل».

- ربما. ومع ذلك، فإن عدم القيام بذلك.. أو السماح لأحد آخر بمحاولة ذلك...

كررت: «ستُقتل».

- لقد قلت كلمتي. ألا ترين؟ قد يؤدي هذا إلى إنقاذ... لندن! توقف، لم يعد يستطيع التحدث، وأبعد أي فكرة بديلة بلفتة، ووفقا يتبادلان النظرات.

كان واضحًا ل كليهما أنه يجب أن يذهب. ما من تراجع عن هذه البطولات العظيمة.

امتلأت عيناها بالدموع. تقدمت نحوه وهي تحرك يديها بطريقة غريبة، كأنما لا ترى وتتحسس طريقها؛ ثم أمسكت يده وقبلتها. صاحت: «استيقظت لهذا السبب!».

أمسكها بشكل أخرق للحظة، وقبّل شعر رأسها المنحني، ثم دفعها بعيدًا، والتفت نحو الرجل في الزي الأصفر. لم يستطع الكلام. قالت إشارة ذراعه: «إلى الأمام».



الفصل الخامس والعشرون

قدوم الطائرات

كان رجلان يرتديان الزي الأزرق الشاحب يرقدان عند الخط غير المنتظم الذي يمتد على طول حافة منصة روها مبتون بعد الاستيلاء عليها من أولها إلى آخرها، ويمسك كل منها بندقية قصيرة، ويحدقان في ظلال المنصة المُسماة ويمبلدون بارك. يتبادلان الحديث بين الحين والآخر، باللغة الإنجليزية المشوهة التي تتسم بها طبقتهم وعصرهما. تضاءلت نيران رجال أوستروج وتوقفت، ولم يشاهدوا إلا عددًا قليلًا من أفراد العدو بعض الوقت. على أن أصداء القتال الذي يجري بعيدًا الآن في أسفل، في الممرات السفلية لتلك المنصة، كانت تأتي بين الحين والآخر بين الطلقات المتقطعة من الجانب الشعبي. كان أحدهما يصف للآخر كيف رأى رجلًا في أسفل يتوارى خلف عارضة، وقد خَمَّن مكانه ووجه إليه ضربة مباشرة وهو يحاول الهرب بعيدًا. قال القناص: «إنه لا يزال هناك. انظر إلى تلك البقعة الصغيرة. نعم. بين تلك القضبان».

رقد على مسافة ياردات قليلة خلفهم شخص غريب ميت، وجهه إلى أعلى نحو السماء، وقماش سترته الأزرق يحترق في دائرة حول ثقب رصاصة مُتقنة على صدره. جلس بالقرب منه رجل جريح، ساقه ملتفة،

ووجهه خالٍ من أي تعبير، ينظر إلى استمرارية ذلك الحرق. وخلفهم كانت الطائرة الأحادية التي استولوا عليها تقف فوق حاملة الطائرات.

قال الرجل الثاني بنبرة استفزازية: «لا أستطيع أن أراه الآن».

أصبح القناص وقحًا وعالي الصوت، في محاولة جدية لتوضيح الأمور. وفجأة قاطعه صوت صراخ صاخب قادم من المنصة السفلية.

قال: «ماذا يحدث الآن؟»، ورفع نفسه على ذراع واحدة ليرى أول السُّلم في أخذود المنصة الرئيس. كان عدد من الأشخاص يرتدون الزي الكتاني الأزرق يصعدون ويحتشدون عند المنصة.

قال صديقه: «لا نريد كل هؤلاء الحمقى. إنهم يزدحمون فقط ويفسدون الطلقات. ما الذي يسعون إليه؟».

- ششش! إنهم يصيحون، يقولون شيئًا.

استمع الرجلان. تزامم القادمون الجدد بكثافة حول الآلة. ظهر ثلاثة من قادة الأجنحة، بعباءاتهم السوداء وشاراتهم، تسلقوا جسم الآلة وظهروا فوقه. ألقى الرجال بأنفسهم على الأجنحة وهم يشددون قبضتهم على الحواف، إلى أن غطوا جميع الخطوط العريضة للآلة، وبعمق ثلاثة في بعض المواضع. ركع أحد القناصين. «إنهم يضعونها على الحاملة... هذا ما يسعون خلفه».

نهض واقفًا، ونهض صديقه أيضًا. «وما الفائدة؟»، قال صديقه، «ليس لدينا أي طيار».

«هذا ما يفعلونه على أي حال». نظر إلى بندقيته، ثم نظر إلى الحشد المكافح، واستدار فجأة نحو الرجل الجريح. قال وهو يعطي بندقيته

وحزام الطلقات إلى زميله: «اهتم بهذه يا صديقي»؛ ثم أخذ يركض نحو الطائرة أحادية السطح. استمر لمدة ربع ساعة يسحب، ويدفع، ويصيح، ويصغي. وبعد أن انتهى العمل، وقف مع العديد من الآخرين يهتفون فرحين بإنجازهم. بحلول هذا الوقت، عرف ما يعرفه الجميع في المدينة، أن السيد سيأتي الآن ليخلق بهذه الآلة بنفسه على الرغم من حداثة معرفته بالطيران، ولن يسمح لأي رجل آخر محاولة ذلك.

«إن من يتحمل أكبر خطر، من يتحمل أثقل عبء، ذلك الرجل هو الملك»؛ قيل إن هذا من خطاب السيد. وحتى عندما كان هذا الرجل يهتف، وبينما كانت حبات العرق لا تزال تنهمر من شعره المتطاير، سمع دوي اضطراب أكبر: مقاطع من إيقاع الأغنية الثورية ونبضها. رأى من خلال فجوة بين جموع الناس تيارًا كثيفًا من الرؤوس لا تزال تتدفق على السلم. صاحت أصوات: «السيد قادم»، «السيد قادم»، وازدادت كثافة الحشد حوله. بدأ يدفع نفسه نحو الأخدود الرئيس. ارتفع هدير الأصوات: «السيد قادم!»، «النائم، السيد!»، «يا إلهي، السيد!».

رأى فجأة بالقرب منه الزي الأسود للحرس الثوري، ولأول وآخر مرة في حياته رأى جراهام، رآه عن قرب. رجل طويل القامة ومتجهم، في رداء أسود متدفق، وجهه أبيض وحازم، وعيناه تتجهان بثبات إلى الأمام؛ رجل على الرغم من كل الأشياء الصغيرة حوله، ليس لديه أذنان ولا عيان ولا أفكار..

تذكر ذلك الرجل طوال حياته مرور جراهام بوجه شاحب خلت منه الدماء. مر في لحظة، وواصل الرجل معركته وسط الحشد المتجمع.

اندفع أمامه صبي يبكي رعباً، واتجه نحو السلالم وهو يصيح: «أفسحوا الطريق للانطلاق أيها الحمقى!». أصبح صوت الجرس الذي أدخل منصة الطيران قعقة بلا لحن.

اقترب جراهام، وفي أذنيه صوت هذه القعقة من الطائرة، وسار تحت ظل جناحها المائل. أدرك أن عددًا من الأشخاص حوله يعرضون مرافقته، لكنه لوح بيده بما يشير إلى عدم موافقته. أراد أن يفكر كيف يبدأ تشغيل المحرك. أخذ الجرس يصيح أسرع وأسرع، وارتفع صوت سرعة وقع أقدام الناس الذين يتراجعون بعيدًا عن الطائرة. كان الرجل ذو الزي الأصفر يساعده على الصعود خلال أضلاع هيكل الطائرة. صعد إلى مكان الطيار، وثبت نفسه بعناية فائقة وبتأن. ما هذا؟ كان الرجل ذو الزي الأصفر يشير إلى آلتين طائرتين صغيرتين تطيران إلى أعلى في السماء الجنوبية. لا شك أنهم يبحثون عن الطائرات القادمة. هذا.. الآن.. الشيء الذي يجب القيام به الآن هو البدء. وصلت إلى سمعه صيحات، وأسئلة، وتحذيرات. أثار ذلك إزعاجه؛ فقد أراد أن يفكر في الآلة، ليتذكر كل بند من عناصر خبرته السابقة. لوح للناس كي يتعدوا. رأى الرجل ذو الزي الأصفر ينزل من خلال دعامات الآلة، كما رأى أن إيماءته جعلت الحشد يتفرق عند خط العوارض.

ظل للحظة بلا حراك، يحدق في الروافع، وفي عجلة تشغيل المحرك، فضلاً عن جميع الأجهزة الحساسة التي لا يعرف منها إلا القليل. لمحت عيناه ميزان تسوية يتجه مقياسه نحوه، وهنا تذكر شيئاً؛ أمضى ١٢ ثانية يؤرجح المحرك إلى الأمام، حتى أطفأ المقياس في وسط الأنبوب. لاحظ أن الناس كفوا عن الصياح، وعرف أنهم يشاهدون تفكيره المتأن.

اصطدمت رصاصة بالعارضة فوق رأسه. مَنْ أطلق النار؟ هل كان الخط خاليًا من الناس؟ وقف ليرى، ثم جلس مرة أخرى.

بدأت المروحة تدور في الثانية التالية، واندفع بسرعة إلى أدوات التوجيه. أمسك عجلة القيادة وأرجح المحرك مرة أخرى لرفع هيكل الطائرة. وعندئذٍ صاح الناس. في لحظة كان يهتز مع اهتزاز المحرك، وسرعان ما بدأت الصيحات تتضاءل إلى أن ساد الصمت. سمع صغير الرياح على حواف الشاشة، وغرق العالم بعيدًا عنه بسرعة كبيرة.

نبضة، نبضة، نبضة.. نبضة نبضة، نبضة؛ ارتفع عاليًا. تخيل نفسه متحررًا من كل إثارة، وشعر بالهدوء والتروي. رفع الجذع قليلًا، وفتح صمامًا واحدًا على الجناح الأيسر والتف دائريًا لأعلى. نظر إلى أسفل برأس ثابت، ثم إلى أعلى. كانت إحدى الطائرات الأحادية التابعة لأوستروج تحلق عبر مساره، ولذا قاد بشكل غير مباشر نحوها لكي يمر أسفلها بزاوية حادة. كان طياروها الصغار ينظرون نحوه. ماذا يريدون أن يفعلوا؟ نشط عقله. رأى أحدهم يوجه سلاحًا، ومستعدًا لإطلاق النار. ماذا يعتقدون أنه سيفعل؟ فهم في لحظة تكتيكاتهم، واتخذ قراره. تلاشى خموله المؤقت. فتح صمامين آخرين على يساره وأدارهما بحيث أصبحت نهايتهما في اتجاه الآلة المعادية، أغلق صماماته، وأطلق النار عليها مباشرة، محتميًا من الطلقة بجسم الآلة وشاشة الرياح. مالوا قليلًا كما لو كانوا يتخلصون منه. انطلق بطائرته.

نبضة، نبضة، نبضة، وقفة، نبضة، نبضة، نبضة. حسم أمره، ظهرت تكشيرة لا إراديًا على وجهه، وحدث تحطُّم! أصابها! وجهه ضربته إلى أعلى تحت الجناح الأقرب.

بدا جناح خصمه يتسع ببطء شديد، وأدّى زخم ضربته إلى رفعه لأعلى. رأى اتساعه الكامل، ثم انزلق إلى أسفل بعيداً عن بصره.

شعر أن طائرته تنخفض. شدد قبضة يديه على الروافع، التف وصدّم المحرك من الخلف. شعر بالارتجاج الناتج. ارتفعت مقدمة الآلة بشكل حاد مع ارتفاعها، وبدا للحظة أنه مستلقٍ على ظهره. كانت الآلة تمايل وتترنج، كأنها ترقص على مسمارها اللولبي. بذل جهداً كبيراً، وتعلق للحظة بالروافع، وجاء المحرك ببطء إلى الأمام مرة أخرى. كان يقود مرتفعاً، لكن صعوده لم يعد حاداً. لهث للحظات ثم أمسك بالروافع مرة أخرى. كان يسمع صفير الرياح حوله. بذل جهداً آخر، وأصبحت الطائرة مستوية تقريباً. تنفس. أدار رأسه للمرة الأولى ليرى ما حدث لخصومه. التفت مرة أخرى إلى الروافع للحظة، ثم نظر ثانية. كان يمكنه أن يتصور للحظة أنهم أُبِيدوا. ثم رأى هوة بين المنصتين في اتجاه الشرق، سقطت فيها بسرعة حافة نحيلة واختفت، كما تسقط ستة بنسات في صدع.

لم يفهم في البداية، ثم استحوذت عليه فرحة جامحة. صاح بأعلى صوته، صيحة مبهمة، وطار أعلى وأعلى في السماء. نبضة، نبضة، نبضة، وقفة، نبضة، نبضة، نبضة. فكر: أين كان الآخر؟ إنهم أيضاً.. وبينما كان ينظر إلى السماء الخالية، شعر بخوف لحظي أن تكون الآلة الثانية قد ارتفعت فوقه، ثم رآها تضيء على منصة نوروود. كانوا يقصدون إطلاق النار. فالمخاطرة بالاصطدام على ارتفاع ألفي قدم في الهواء كان يتجاوز شجاعة عصرهم الحديث.

دار لفترة قصيرة، ثم انقض في هبوط حاد نحو المنصة الغريبة. نبضة،

نبضة، نبضة، نبضة، نبضة، نبضة. كان الشفق يزحف بسرعة؛ ودخان منصة سترينهام الذي كان كثيفًا ومظلمًا، أصبح الآن عمودًا ناريًا؛ وأخذت تتوهج خافتة الآن جميع المنحنيات المتشابكة بالطرق المتحركة، والسقوف الشفافة، والقباب، والفتحات بين المباني، يضيئها إشعاع خفيف من الضوء الكهربائي الذي تغلب عليه وهج النهار. كانت المنصات الثلاث الفعالة التي استولى عليها رجال أوستروج تتوهج بأضواء إرشادية للطائرات القادمة؛ إذ كانت ويمبلدون بارك عديمة الفائدة بسبب حريق روهامبتون، وكانت سترينهام فرنًا. عندما حلق فوق منصة روهامبتون، رأى كتلاً غائمة من الناس. سمع تصفيقًا وهتافًا محمومًا، وسمع رصاصة من منصة ويمبلدون بارك تغرد في الهواء، ثم توجه أعلى نفايات منطقة ساري. شعر بنسيم الرياح من الجنوب الغربي، فرفع جناحه الغربي كما تعلم أن يفعل، وطار إلى أعلى في الهواء العلوي السريع النادر. طنين، طنين.

قاد طائرته صعودًا بهذا الإيقاع النابض، إلى أن أصبحت البلد أسفله أزرق غير واضح، وامتدت لندن كخريطة صغيرة يمكن تتبعها في الضوء، كأنها مجرد نموذج لمدينة بالقرب من حافة الأفق. كانت سماء الجنوب الغربي زرقاء كالياقوت فوق حافة العالم المظلمة، وزادت حشود النجوم مع ارتفاعه.

عجبًا! في الجنوب، توجد في الأسفل بقعتان صغيرتان من ضوء سديمي يقترب تألقهما بسرعة. ثم ظهرت بقعتان أخرتان، ثم توهج من أشكال تتحرك بسرعة. يمكنه الآن إحصاء عددهم. كانوا أربعة وعشرين. لقد وصل الأسطول الأول من الطائرات! وظهر خلفه توهج أكبر.

دار في نصف دائرة وهو يحدق في هذا الأسطول المتقدم. طار الأسطول على شكل يشبه الوتد، رحلة مثلثة من أشكال فوسفورية عملاقة تقترب مكتسحة خلال الهواء السفلي. أجرى عملية حسابية سريعة لسرعتها، وأدار العجلة الصغيرة التي دفعت المحرك إلى الأمام. لمس رافعة فتوقف جهد نبضات المحرك. بدأ يهبط، زادت سرعة هبوطه. كان يستهدف قمة الوتد. سقط كالحجر وسط صفير الهواء. مرت ثانية بالكاد من لحظة التحليق هذه قبل أن يضرب الطائرة الأولى.

لم يرَ أي رجل من هذه المجموعة من الرجال السود مجيء مصيره، ولم يحلم أي رجل منهم بالصقر الذي هبط عليهم من السماء وضربهم. أما أولئك الذين لم تصبهم آلام دوار الهواء، فكانوا يمدون أعناقهم السوداء وهم يحدقون لرؤية المدينة الغائمة التي ترتفع خلال الضباب؛ المدينة الغنية الرائعة التي جلب «السيد القائد» عضلاتهم المطيعة إليها. تألقت أسنانهم اللامعة، وأشرقت وجوههم البراقة. لقد سمعوا عن باريس. يعرفون أنهم سيقضون أوقاتاً مترفة بين القمامة البيضاء الفقيرة. وفجأة ضربهم جراهام.

استهدف جراهام جسم الطائرة، لكن فكرة أفضل ومضت في ذهنه في اللحظة الأخيرة. انعطف ووجه ضربته بالقرب من حافة الجناح الأيمن بكل وزنه المتراكم. أدت الضربة إلى اهتزازه مرتدًا إلى الخلف. انزلقت المقدمة عبر امتدادها السلس نحو الحافة. شعر أن اندفاع البنية الضخمة إلى الأمام اجتاحه هو وطائرتة أحادية السطح. وللحظة بدت دهرًا لم يستطع معرفة ما كان يحدث. سمع ألف حنجرة تصرخ، وأدرك أن آتته توازنت

على حافة العوامة العملاقة، وتهبط إلى أسفل، إلى الأسفل. نظر من فوق كتفه، ورأى العمود الفقري للطائرة والعوامة المقابلة يتمايلان. ومن خلال دعائم المقاعد المنزلة، تمكن من رؤية وجوه محدقة وأيدي تثبت بقضبان أدوات التوجيه المائلة. ومضت نوافذ العوامة الأبعد وانفتحت، بينما كان الطيار يحاول تعديلها. رأى عن بُعد طائرة ثانية تقفز بشكل حاد، هرباً من دوران الطائرة التي في أعقابها. اهتزت مرتفعة المنطقة الواسعة للأجنحة المتمايلة. شعر أنها سقطت تمامًا، وأن البنية الوحشية انقلبت بالكامل، وأصبحت مُعلقة مثل جدار مائل فوقه.

لم يفهم بوضوح أنه أصاب العوامة الجانبية للطائرة وانزلق، بل تصور أنه يطير بحرية على الانحدار السفلي ويقترب بسرعة من الأرض. ماذا فعل؟ أخذ قلبه ينبض مثل محرك صاخب. وللحظة محفوفة بالمخاطر، لم يتمكن من تحريك روافعه بسبب شلل يديه. سحب الروافع بقوة ليعود محركه إلى الخلف مرة أخرى، قاوم وزن المحرك لثانيتين، وشعر أنه تمكن من تصحيح الوضع وأنه في وضع أفقي، وبدأ المحرك ينبض مرة أخرى.

نظر إلى أعلى ورأى طائرتين تنزلقان صارختين عن بُعد فوقه. ونظر إلى الورا، ورأى الجسم الرئيس للأسطول ينفتح مندفعاً إلى أعلى وإلى الخارج. رأى الطائرة التي أصابها تسقط من الجنب ونصطدم كشفرة سكين عملاقة على طول عجلات الرياح أسفلها.

هبط بمؤخرة طائرته ونظر مرة أخرى. طار غافلاً عن اتجاهه وهو يشاهد. رأى دوائر الرياح تسقط، رأى البنية الضخمة ترتطم بالأرض،

رأى مراوحها السفلية تنهار مع ثقل هبوطها، ثم انقلبت الكتلة بأكملها متحطمة، رأسًا على عقب، فوق العجلات المائلة. ثم انطلق لسان ناري أبيض رفيع من الحطام المتطاير متجهًا نحو الذروة. كان يعرف بوجود كتلة ضخمة تحلق في الهواء نحوه، واستدار محلقةً لأعلى في الوقت المناسب لتفادي هجوم طائرة ثانية، إن كان هناك هجوم. دار منخفضًا أدناها، جذبها إلى أسفل، وكاد أن يقلبها في زوبعة مسارها القريب.

أصبح على بينة من ثلاث طائرات أخرى تندفع نحوه، مُدركًا الضرورة الملحة للضرب من فوقهم. كانت الطائرات تدور حوله بعنف لتتجنبه، كما يبدو. طارت تتجاوزه، من أعلى ومن أسفل، شرقًا وغربًا. صدر عن بُعد في اتجاه الغرب صوت الاصطدام، وتوهج الاثنان مع سقوطهما. بعيدًا في الجنوب، كان سرب ثانٍ قادمًا. انطلق إلى أعلى بثبات. أصبحت جميع الطائرات أسفله الآن، لكنه شك للحظة في ارتفاعها ولم ينقض مرة أخرى. ثم هبط في اتجاه ضحية ثانية، ورآه جنودها كلهم قادمًا. تأرجحت الآلة الكبيرة وتمايلت مع تدافع رجالها بخوفهم المجنون إلى المؤخرة لأخذ أسلحتهم. تناثر الرصاص في الهواء، وومضت نجمة في شاشة الرياح الزجاجية السميقة التي تحميه. تباطأت الطائرة وانخفضت لإحباط ضربته، ثم انخفضت بدرجة كبيرة. وفي الوقت المناسب رأى عجلات رياح تلة بروملي تسرع نحوه، وتدور وترتفع مع تحطم الطائرة التي يطاردها بين ريشاتها. تحولت كل أصواتها إلى شعور بالصراخ. بدت البنية الهائلة مرتعبة لثانية بين المراوح المائلة والمتشقة، ثم تناثرت متحطمة. تطايرت شظايا ضخمة في الهواء، وانفجرت محركاتها كالقذائف. اندفع لهيب حار إلى السماء المظلمة.

«اثنان!»، صاح، مع انفجار قبيلة في أعلى أثناء سقوطها، وعلى الفور بدأ يضرب مرة أخرى. تملكته الآن بهجة مجيدة، نشاط عملاق. انتهت إلى الأبد مشاكله حول الإنسانية، وحول عدم أهليته. كان رجلاً في معركة مبتهجاً بقوته. بدت الطائرات تبتعد عنه في كل اتجاه، عازمة فقط على تجنبه، وانطلق صراخ ركابها المزدحمين في هبات قصيرة عند مروره. اختار الطريدة الثالثة وضرب متعجلاً، فأصابها عند الحافة. هربت منه الطائرة، لتتحطم عند هاوية جدار لندن العالي. حلق مبتعداً عن هذا التأثير، وطار بشكل سطحي قريباً من الأرض المظلمة، بحيث أمكنه رؤية أرنب خائف يفر أعلى منحدر. اهتز بشدة، ووجد نفسه مُحلقاً فوق جنوب لندن، والهواء المحيط به خالٍ. رأى على يمينه صخباً جامحاً من جراء اصطدام هائل لصواريخ إشارة تابعة لأنصار أوستروج، ارتفع صاخباً في السماء. وفي اتجاه الجنوب، اشتعلت النيران في حطام ست سفن جوية، وهربوا أمامه شرقاً وغرباً وشمالاً. انطلقوا إلى الشرق والشمال، واتجهوا جنوباً؛ لأنهم لم يتمكنوا من التوقف في الهواء. ففي ظل ارتباكهم الحالي، كانت أي محاولة للتقدم تعني مصادمات كارثية.

اجتاز مائتي قدم أو نحو ذلك فوق منصة روهامتون. كانت الرؤية معتمة من تزامم الناس وصاخبة من صياحهم المحموم. لكن لماذا كانت منصة حديقة ويمبلدون معتمة وصائحة أيضاً؟ أخفى دخان ولهب ستريثام المنصات الثلاث الأخرى. انحنى ونهض لرؤيتهم ورؤية الأحياء الشمالية. ظهرت في البداية الكتل المربعة في شوترز هيل من وراء الدخان، مضاءة ومنظمة وهبطت عليها الطائرة التي نزل منها الرجال السود. وبعدها ظهرت بلاكهيت، ثم منصة نوروود أسفل زاوية كرية الرائحة. لم تهبط أي طائرة

فوق منصة بلاكهيت. ازدحمت منصة نوروود بمجموعة من الشخصيات الصغيرة تركض جيئةً وذهابًا في ارتباكٍ انفعالي. لماذا؟ وفجأة فهم. انتهى الدفاع العنيد عن منصات الطيران، وأخذ الناس يتدفقون على الطرق السفلية لتلك المعاقل الأخيرة التي استولى عليها أوستروج. ومن بعيد، عند الحدود الشمالية للمدينة، المليئة بمعانٍ مجيدة له، صدر صوت، إشارة، لحن الانتصار، جلجل الرصاص من بندقية. ارتعشت شفتاه، وارتبك وجهه من التأثير.

استنشق نفسًا عميقًا. «إنهم يفوزون»، صاح في الهواء الخالي، «إنهم يفوزون»؛ «الشعب يفوز!»، جاءت الطلقة الثانية من البندقية كإجابة. ثم رأى الطائرة أحادية السطح تركض فوق منصة بلاكهيت استعدادًا للانطلاق. ارتفعت بلا عوائق وانطلقت في الهواء، متجهة إلى الجنوب مباشرة وبعيدًا عنه.

أدرك في لحظة ما يعنيه هذا. لا بد أن أوستروج في هذه الطائرة. صاح، وانخفض متجهًا نحوه. ونظرًا لزخم ارتفاعه، سقط مائلًا أسفل الهواء وبسرعة كبيرة؛ ثم ارتفع بشكل حاد في طريقه. فتح السرعة، وطار مباشرة نحوها.

أصبحت فجأة مجرد حافة مسطحة، ويا للعجب! لقد تجاوزها؛ طار بتهور بكل قوة ضربته العقيدة.

استشاط غضبًا. أدار المحرك إلى الخلف على طول عموده، وحلق مرتفعًا. رأى آلة أوستروج تصارع دوامة أمامها. ارتفع نحوها مباشرة، ونجح في الارتفاع فوقها بفضل زخم انقضاضه وميزة ووزن

رجل. انخفض بتهور.. وفقدها مرة أخرى! أسرع نحوها، ورأى وجه طيار أوستروج واثقًا وباردًا، ورأى في سلوك أوستروج قرارًا متحيرًا. كان أوستروج ينظر بثبات بعيدًا عنه.. إلى الجنوب. أدرك بوميض من الغضب مدى حمق رحلته. رأى تلال كرويدون في أسفل. اهتز صاعدًا، وتفوق مرة أخرى على عدوه.

نظر من فوق كتفه ولفت شيء انتباهه. بدت المنصة الشرقية ترتفع، تلك المنصة التي تقع عند شوترز هيل؛ ومضة تتحول إلى شكل رمادي طويل، شكل من الدخان والغبار يرتدي قلنسوة يهتز في الهواء. للحظة وقف هذا الشكل القلنسوي بلا حراك، وأسقط كتلاً معدنية ضخمة من كتفيه، ثم بدأ في تفكيك رأس كثيف من الدخان. تولى الناس تفجيرها، طائرة وكل شيء! وفجأة انبثق وميض ثانٍ وشكل رمادي من منصة نوروود. انتهى الشكل حتى وهو يحدق فيه؛ وأصابته موجة الهواء الناتجة عن الانفجار الأول. اندفع إلى أعلى وجانبًا.

للمحة سقطت طائرتة أحادية السطح من الجنب تقريبًا ومقدمتها إلى أسفل، وبدأت مترددة فيما إذا كانت ستقلب تمامًا. وقف على حاجب الرياح، يشد العجلة التي تمايلت فوق رأسه. ثم أدت صدمة الانفجار الثاني إلى انحراف طائرتة.

وجد نفسه متشبثًا بأحد أضلاع طائرتة، والهواء يندفع أمامه ويتصاعد. بدا أنه لا يزال معلقًا في الهواء، والرياح تهب أمامه. تبادر إلى ذهنه أنه يسقط. ثم تأكد أنه يسقط. لم يستطع أن ينظر إلى أسفل.

وجد نفسه يستعيد بإيجاز وبسرعة لا تُصدق كل ما حدث منذ استيقاظه؛ أيام الشك، أيام الإمبراطورية، وأخيرًا اكتشافه العنيف لغدر أوستروج المحسوب.

كان للرؤية طبيعة عدم الواقعية المطلقة. مَنْ كان هو؟ لماذا يمسك يديه بإحكام؟ لماذا لا يستطيع تركها؟ في مثل هذا السقوط، انتهت تلك الأحلام التي لا تُعد ولا تُحصى. لكنه سيستيقظ خلال لحظة...

تسارعت أفكاره. تساءل عما إذا كان سيرى هيلين مرة أخرى. بدا من غير المعقول ألا يراها مرة أخرى. لا بد أنه حلم! لكنه سيلتقيها بالتأكيد. كانت حقيقية على الأقل. كانت حقيقية. سيستيقظ ويقابلها.

وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من النظر إليها، فقد أدرك فجأة أن الأرض قريبة جدًا.



